تنوير السور القرآنية
المفصل (١)

بصائر المعرفة القرآنية
(٢)

الإسلام في سبع آيات

الفاتحة منهاج حياة

دراسة تحليلية لمقاصد سورة الفاتحة

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي

دار الأصول العلمية

الإسلام في سبع آيات

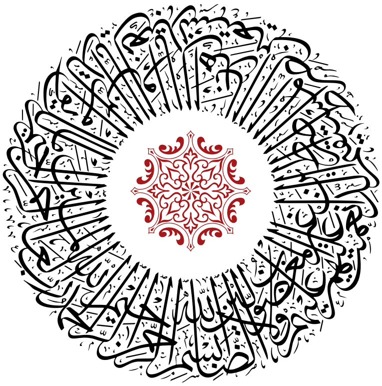

التنوير المعنوي لـ

سورة الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

بصائر المعرفة القرآنية
(١)

تنوير السور القرآنية
(١)

التنوير المعنوي لـ

سورة الفاتحة

الإسلام في سبع آيات

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي

حقوق الطَّبع محفوظة

الطَّبعة الثالثة

١٤٤٢هـ/ ٢٠٢١م

ISBN 978-605-7896-44-5

9 786057 896445

Kitab ismi:	Et-tesvirul manevi li suretil fatiha el-islamu fi sebi ayat.
Yazar:	Abdulsalam Ghaleb.
baskı yılı:	2021

Üçüncü baskı.

tüm baskı hakları mahfuzdur.

دار الأصول العلمية
İLMİ USÛLLER YAYINEVİ
طباعة – نشر – توزيع

تركيا – اسطنبول
00905378167783:
00902125146104:
www.dar-alusool.com
info@dar-alusool.com
daralusool usool2017

Balabanağa Mah. Büyük Reşitpaşa Cad. 16B/15,
Yümni iş hanı, Fatih - İstanbul

BASKI
Step Ajans Matbaacılık
Göztepe Mah. Bosna Cad. No.11 Mahmutbey-Bağcılar-İstanbul
Tel.: 0212 446 88 46 Matbaa Sertifika No. 45522

مُقَدِّمَة
في بصائر القرآن المجيد ورسمها خريطة النجاح الإنساني

الحمد للَّه.. حمدًا يبلغنا رضاه، وإن كان جَهد الحمد لا يفي بشكر أدنىٰ نعمه.

الحمد للَّه.. حمدًا يسبغ به علينا مزيدًا من عطاياه، وإن كانت محامدنا ليست شيئًا أمام كرمه.

الحمد للَّه.. حمدًا لا منتهىٰ لحدِّه ومداه، وإن كانت ألفاظُنا تتصاغر أمام جلال آياته وكَلِمه.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ صَلَوَاتِكَ، وَرَحْمَتَكَ، وَبَرَكَاتِكَ عَلَىٰ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ، مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ، إِمَامِ الْخَيْرِ، وقائد الهدىٰ، وَرَسُولِ الرَّحْمَةِ، وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

وبعد: ائذن لي -أعزك الله- أن ألخص أفكار هذه المقدمة في البصائر الآتية:

البَصِيرَة الأُولَى:

القرآن المجيد صانع السلام الحقيقي يبين برنامج الرحمة الحقيقية بالحياة الإنسانية:

القرآن، وما أدراك ما القرآن؟..

إنه كتاب الحقيقة الكاملة..

إنه الكتاب الذي يفسر وجود العالم (الوجود الكوني) في قولٍ واضحٍ مبينٍ ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:١٢٠]..

تستلهم البشرية من القرآن المجيد المعرفة، والسلوك، والمشاعر.. إنه القرآن ذو الذكر يفتح للعالَم الأبصار والبصائر، وينير في الدنيا كلَّ قلبٍ خائف قلقٍ حائر.. اسمع إلىٰ الإعلان الإلهي للعالم يخبر عن حقيقة القرآن: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢]

القرآن بيانٌ إلهيٌّ عامٌّ يصنع السعادة للبشرية، وينقذها من شرور القوىٰ المستغلة، ويحميها من إفساد المستكبرين ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٨].. قلِّب الطرف لترىٰ ما آلت إليه حالة الإنسانية بغير المنهاج القرآني من الدمار والخسار النفسي والعقلي والاجتماعي؟.. انظر حواليك.. تلك بيوت السيطرة الدولية ومعاقلها.. لـمَّا خلت من تطبيقات الأنوار القرآنية أصبحت أداةً لإشاعة الجنون العالمي المثير للحروب.. لا ترىٰ فيها إلا إدارة مسعورة للعدوان العابر للقارات، والتلاعب بأقوات الشعوب وفق مؤامرات المؤسسات الفكرية والأمنية المختلفة مِمَنْ يبغون الحياة عوجًا.. ويحيدون عن سبيل الحق منهجًا.

وهنا تظهر قيمة القرآن الذي يُخَلِّصُ البشرية من الشقاء والكدر والعذاب الأليم ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء : ٢٦].. تأخذ أنواره بنواصينا إلىٰ جمال الحياة، وقوة القسط، وإغاثة الحق للخلق.. لتَهديَ هذا العالم لبناء سبل السلام الحقيقي علىٰ أسس العدل القويم ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة : ١٦].

أليس عجيبًا أن ترىٰ المعاندين للقرآن يتركون عنادهم عندما تحيط بهم الأزمات، ويغشاهم موج الشقاء الإنساني بما كسبت أيديهم؟، يقبلون عليه معترفين بأن ما يقدمه يمثل الحل المثالي من الأزمات والنكبات.. خذ هذا الخبر من صحيفة

الرياض.. فقد ذكرت أن صناعة المال والاقتصاد العالمي شهد تحولاتٍ بارزة في خضم الأزمة العالمية وأزمة الرهن العقاري، ومن هذه التحولات: المفاجأة التي فجرتها صحيفة الفاتيكان الرسمية المعروفة باسم (أوسيرفاتور رومانو) عندما أشارت إلىٰ أنه يتوجب علىٰ البنوك التقليدية أن تنظر إلىٰ المصرفية الإسلامية بعنايةٍ فائقة علىٰ أنها الحل الأمثل للأزمة المالية العالمية التي تعصف بدول العالم والتي أطاحت بكياناتٍ ماليةٍ عملاقة، وأن استعادة الثقة لهذه الكيانات الاقتصادية العالمية يكمن في تطبيق نظام الاقتصاد الإسلامي في البنوك الغربية(١).

البَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ:

من أجل ذلك كتب الله علىٰ البشرية أن يكون شرفها ومجدها مرتبطًا بتنمية الاعتزاز بالبصائر القرآنية باعتبارها أهم عوامل الفلاح والانتصار الفردي والجماعي ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]:

وما زال القرآن حبل الله الممدود.. لمن رام من كل البشر الرُّقيَّ والسعود، والتقدم والصعود، يعصم من استمسك به من الضلال الفكري والهلاك المعيشي والاقتصادي والحياتي، فقد قال لنا النبي ﷺ من قبل: «**فإن هذا القرآن سببٌ طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به؛ فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبدًا**»(٢)... امتلأ قلب ابن القيم بذلك فقال: «أنزله لنقرأه تدبرًا، ونتأمله تبصرًا، ونسعد به تذكرًا، ونحمله علىٰ أحسن وجوهه ومعانيه، ونصدق به، ونجتهد علىٰ إقامة أوامره ونواهيه»(٣).

---

(١) صحيفة الرياض العدد ١٤٨٧٤ الأحد ١٨ ربيع الأول ١٤٣٠هـ الموافق ١٥ مارس ٢٠٠٩م، وهي نقلت عن جريدة L’osservatore Romano ٤/ ٣/ ٢٠٠٩.

(٢) ابن حبان (١/ ٣٣٠)، وحسن الأرناؤوط إسناده علىٰ شرط مسلم.

(٣) مدارج السالكين (١/ ٣).

وهذا الكتاب يسير في استنباطه للبصائر القرآنية علىٰ منهجٍ جامعٍ بين المدارس التفسيرية التي شيدها النبلاء السابقون:

فأما أولًا: فيجمع بين مجامع التفسير الموضوعي والإجمالي والتحليلي في الوقت نفسه علىٰ هيئةٍ أقرب إلىٰ التيسير في فهم كلام العلي الكبير -تعالىٰ ذكرُه وعزَّ جارُه-.

وأما ثانيًا: فيعتمد علىٰ تدبر السورة وتقسيمها إلىٰ محاور (مقاصد) مترابطة، ثم ينقسم كل محورٍ بدوره إلىٰ أقسام، ويتم التعبير بالبصائر عندما أتناول تفاصيل الآيات، وأُبرزُ منها الفوائدَ المحكمةَ التي توجه الإنسانية.

وأما ثالثًا: فيرجع إلىٰ مصادر التفسير الأساسية، وخاصة تفسير القرآن بالقرآن مما يسميه المعاصرون (التناظر النصي) للبحث عن حقيقة المراد الإلهي علىٰ أن ذلك لا يكتمل دون النظر إلىٰ التفسير النبوي قولًا وفعلًا وسيرة وتقريرًا.

وأما رابعًا: فيجتني ثمارَ علوم الوسائل ومقاصدَها، وسترىٰ جليًا -إن شاء الله- أنني حاولت أن أجتني ثمار علوم البيان والمعاني واللغة ليظهر من خلالها الاستنباطات الثرية التي تتضمنها الآيات.. فعسىٰ عند ذلك أن تسَّاقط أنوار القرآن المجيد علىٰ المتدبر رطبًا جنيًا، لتُكوِّنَ المقاصد والبصائر التي تبني الحياة.

البَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ:

من أهم أهداف هذا الكتاب:

أما الهدف الأول:

فاستنباط الرؤية القرآنية لتحدد للمسلمين -أفرادًا وأمة، وشعوبًا وحكومات- الأولويات الحيوية التي تشكل الأساس الفكري والثقافي الذي نبصر به كيفية التعامل مع الوجود ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَاۚ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، وتطبيق ذلك علىٰ سورة (الفاتحة).

وأما الهدف الثاني:

فبيان الحكمة والإحكام في ترتيب آيات السورة الواحدة، بإظهار محاور السورة في صورة خطيةٍ متتابعةٍ مترابطة متكاملة تؤدي كل آية إلىٰ الآية التي تليها، ويقتضي أولها الوصول إلىٰ آخرها، ويخبر آخرها عن أولها، فيتجلىٰ جمالُ الاتصال المحكم بين آيات السورة الواحدة.. ويقرر الله -جل مجده- هذه الحقيقة لترابط آي الذكر الحكيم، فيقول: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١]؟ فما معنىٰ الإحكام؟ وكيف يكون التفصيل وَفقه؟.

إن كل آيةٍ تسوقك إلىٰ ما بعدها بترتيبٍ مُعْجِزٍ، وعلىٰ نسقٍ خطِّيٍّ مستقيمٍ يبين التماسكَ الموضوعي في السورة، ويساعد علىٰ إقامة الحجة علىٰ المستوىٰ العالمي بالبلاغ القرآني..

ماذا يعني ذلك؟ إنه يستوجب منا المصابرة علىٰ استكشاف المعجزة القرآنية، ومن ذلك استكشاف الإحكام الوارد بين آيات السور ومحاورها المختلفة؛ فقد شكا بعض القراء للقرآن من غير المسلمين من أن الواحد منهم عندما يروم استكشاف القرآن «للمرّة الأولىٰ، لا سيّما في نسخته المترجمة، سرعان ما يقع في حيرة إزاء هذا النصّ، نتيجة لعجزه عن إدراك العلاقات بين أجزائه التي تتتابع موضوعاتها، وتختلط فيما بينها دون أيّ منطقٍ، أو اتّساقٍ ظاهر.

ولنرَ ما يقوله (جاك بيرك) أحد المفكّرين الفرنسيّين المتخصّصين في دراسة القرآن في القرن العشرين: «إنّ أولئك الذين يقرؤون القرآن دونما إعدادٍ مسبق يجدون أنفسهم مشوشين بسبب إسهابه؛ إذ ينتقل الحديث من موضوع إلىٰ آخر دونما تتابع أو اكتمال، وتتكرّر الموضوعات والأفكار الرئيسة نفسُها هنا وهناك

دونما انتظامٍ ملحوظ»[١].

اسقِ -أيَّدك الله- هؤلاء العطشىٰ من ينابيع القرآن ما يبين لهم التماسك المدهش، والإحكام المذهل للألفاظ والمعاني في البيان القرآني؛ ففصلُ الخطاب أن آياتِ القرآن «جاءت عَلَىٰ حَسَبِ الْوَقَائِعِ تَنْزِيلًا، وَعَلَىٰ حَسَبِ الْحِكْمَةِ تَرْتِيبًا وَتَأْصِيلًا»[٢]، «فَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ وَتَدَبَّرَ مَا قَبْلَ الْآيَةِ، وَمَا بَعْدَهَا... تَبَيَّنَ لَهُ الْمُرَادُ، وَعَرَفَ الْهُدَىٰ وَالرِّسَالَةَ، وَعَرَفَ السَّدَادَ مِنْ الِانْحِرَافِ وَالِاعْوِجَاجِ»[٣].

البَصِيرَةُ الرَّابِعَةُ:

نعم! يحق للمرء أن يتساءل حول الحكمة من ترتيب الآيات علىٰ هذه الشاكلة الفريدة دونما اعتمادٍ للمنهج التاريخي أو الموضوعي المباشر.

ويكفي في الجواب أن تعلم أن الترتيب القرآني بسوره وآياته أنتج عدة مستوياتٍ لفهم النص، مما ميز النص القرآني بجعله ميسرًا للأمي وفق مقدرته الثقافية، كما مَكَّن العالم الراسخ من أن يستنبط من النص ذاته المبادئ والمفاهيم المذهلة في بناء الحياة، وذلك بإعمال العقل البشري في تدبر كلام الله -جل مجده-:

وتحضرني هنا قصةٌ حدثت في ملتقىٰ نظمه رئيس عربي مع السلك الدبلوماسي في بلده، وحضره واحدٌ من أبرز الوجوه العلمية، فطرح السفير الفرنسي عليه سؤالًا يقول فيه: هل ألفاظ القرآن محدودة؟ فأجابه: نعم! عدد آيات القرآن ٦٢٣٦آية،

---

(١) (في نظم سورة المائدة) نظم آي القرآن في ضوء منهج التحليل البلاغيّ لميشيل كويبرس ص١٢، وهو قد قام في هذا الكتاب بمحاولة لافتة لبيان الإحكام والترابط في القرآن الكريم، مع اختلاف النسق العام بين عملنا هنا وكتبه.

(٢) من كلمة سديدة لولي الدين الملوي رحمه الله. انظر: البرهان للزركشي ١/ ٣٧، الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٣٧٠).

(٣) مجموع فتاوىٰ ابن تيمية (١٥/ ٩٤).

فقال: هل قضايا العالم محدودة، فأجابه: لا.. فما تزال المستجدات الإنسانية تزداد مع تقدم الزمان، فقال السفير: فكيف يحيط المحدود بغير المحدود؟

وقصد من السؤال الرد علينا معشر المسلمين في قولنا: إن القرآن هو الحل لكل قضايا بني الإنسان، وقد رد عليه الشيخ بإجابة خلاصتها: المحدود يسع كلَّ ما يستجد من القضايا والحدود؛ لأن الذي تكلم به هو الذي خلق الإنسان، وهو المحيط علمًا بكل القضايا المستجدة.

إن الإجابة واضحة في المستويات المتعددة لفهم النص القرآني وفق منهجية أصول التفسير؛ بل إن هذا الوجه يعد من أهم وجوه الإعجاز القرآني؛ إذ القرآن ألفاظٌ محصورةٌ، وكلمٌ معدودةٌ لكنها رُتِّبْت ترتيبًا خاصًا، ونُظِمَتْ نظمًا محكمًا لتستوعب من المعاني ما ليس في طوق البشر(١)..وبذا يتمهد الطريق لمعرفة تفصيل مقاصد التنزيل القرآني التي أُجملِت في قوله -جل ثناؤه-: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩].

وفكرة الإحكام والترابط الموضوعي في آيات السور تصبح غيثًا فكريًا وعاطفيًا مركزًا لبناء العقلية والنفسية المسلمة وفق الهدايات القرآنية.. فهل أغفلها علماؤنا الذين لهم قدم صدق سابقة في التفسير؟

كلا.. بل تراها مبثوثة في كلامهم وهم جهابذة العلماء، وأساطين المفسرين إلا أنها ربما كانت مستترة وفي مواضع محددة، وبتعابير مختصرة يحجبها الاهتمام بالتفسير التحليلي لكل كلمةٍ وآية علىٰ حدة، حتىٰ انبعث أئمة الهدىٰ فظهر اهتمامهم بالتفسير الكلي، والإحكام الموضوعي بين الآيات مقترنًا بالتفسير التحليلي.

---

(١) أشار عبد القاهر الجرجاني إلىٰ نحوِ ذلك في وجه الإعجاز القرآني في تدبرٍ آسِرٍ. انظر: دلائل الإعجاز للجرجاني، تحقيق محمود شاكر ص٤٠، وراجع دروس شرح الكتاب لفضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد أبو موسىٰ.

ومن أبرزهم: الإمام **الفخر الرازي** (ت٦٠٦هـ) وشيخُ الصنعة **البقاعي** (ت٨٨٥هـ)، ومضىٰ علىٰ ذلك التدبر مع تجدد الأفكار والتفكر الأستاذ عبد الحميد الفراهي (ت١٣٤٩هـ)، وبرز ذلك بصورةٍ مدهشة عند **الشيخ محمد رشيد رضا** (ت١٣٥٤هـ)، ثم جاء الغيث المنهمر مع من عاش مع القرآن ومات عليه.. إنه الأستاذ الأديب **سيد قطب** (ت١٣٨٥هـ) ونلمس ذلك بصورةٍ ظاهرة عند إمام المتأخرين في التفسير **محمد الطاهر بن عاشور** التونسي (ت١٣٩٣هـ) صاحب كتاب «تحرير المعنىٰ السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد».. أمة بعضها من بعض يصنع منهم القرآن أعلامًا باسقة، ونجومًا يستضيء العالم بها -جزاهم ربي أحسن جزاء- علىٰ أنني لم أسرِ في هذا الكتاب إلا مؤيدًا بالنظرات الرائدة التي تجد رحيقها عند **شيخ المفسرين أبي جعفر محمد بن جرير الطبري** (ت٣١٠هـ) الذي يقدم قومه من المفسرين إمامَ صدق لمن بعده كإمام فقهاء المحدثين أبي الفداء **إسماعيل بن عمر بن كثير** (ت ٧٧٤هـ)، وغيرهما رَحِمَهُمَاٱللَّهُ.

البَصِيرَةُ الخَامِسَةُ:

منهج التدبر (أيها التالي: أَنْعِمِ النظر، وأعد التفكير والتمس العِبَر):

ما الوسيلة الممكنة لاستشكاف المعجزة القرآنية؟

جعل الله -تعالىٰ عزه- استكشاف النور القرآني رهنًا بتدبرك لآياته، وإعمال فكرك في بيناته ومعجزاته، وكلما عظم التدبر كان العقل الإنساني أكمل حالًا، بل يصل إلىٰ أن يكون ضمن النخبة من أولي الألباب..

تأمل هذا المعنىٰ في قول ربنا -تقدست أسماؤه-: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]. واستخراج الرؤية القرآنية لكل تفاصيل الحياة يتعلق

بالجهد البشري في التعرف إلىٰ الكلام الإلهي ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

وعند تنقيبك في لآلئ القرآن الكريم، وتدبره ستشعر بنشوة غامرة، وتعاين عندها أن القرآن كالمحيط الهائل الرائع يغريك كي تبحر في أمواجه الباهرة نحو الأعمق فالأعمق حتىٰ توغل في داخله، ولكن بدلًا من أن تغرق في بحرٍ لُجِّيٍّ مظلمٍ ستجد نفسك مغمورًا في بحرٍ من النور والرحمة الإلهية[١].

إن (التدبر) يُوجِدُ (الخفيَّ الممتعَ من التفكر)، ويجلبُ (العظيمَ من صادق التأثر)، فالتدبر بحثٌ عما وراء الكلمة من المعاني الحقة التي ترسم الوعيَ الإسلامي، وتنير التفكير الإنساني، فلنُعِد قراءتَنا للـ(فاتحة) بقلبٍ يؤمن بأنها النبع الصافي والدواء الشافي، والبديلُ الحقيقيُ الثقافيُ لفوضىٰ الحلول التي نبحث عنها في الشرق والغرب، ولتحقيق ذلك لا بد أن نبحث عن المقاصد الكلية في (الفاتحة) المباركة التي تتضمن بصائرَها وأنوارَها في بناء الحياة، لتكون معانيها المفردة عونًا علىٰ فهم حقائقها الكلية بدلًا من أن تكون المعاني الجزئية حائلة عن المراد الإلهي.. وهناك سنرىٰ المفاهيم تكتسي ثيابًا خُضْرًا مشَكِّلَةً جملًا كاملةً تعلق بالذهن، ويورق بها يابس الغُصن.. عسىٰ أن تهتز أرض التدبر بها، وتربو، وتُنبت من كل زوجٍ بهيج.

وقد وجدتُ السلف يتسابقون -بصورةٍ مدهشة- إلىٰ تقرير الأفياء القرآنية، والبصائر الفرقانية عند النظر في الآيات لبناء النفوس والحياة، فها هو مطرٌ الوراق يتدبر قوله تعالىٰ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧] فيقول: «هل من طالب علمٍ فيعان عليه»[٢]، فانظر جمال الاستنباط الذي جعل التذكر الوارد في ﴿مُّدَّكِرٍ﴾

(١) انظر: الصراع من أجل الإيمان لجفري لانج ص١١٩.

(٢) رواه البخاري معلقًا (٩/ ١٩٥).

يؤدي إلىٰ التأثر، والتأثر يؤدي إلىٰ الاجتهاد في التحصيل العلمي، ليجد المعارف القرآنية ميسرةً دانية القطوف لمن رامها واجتهد في استخراج كنوزها.

البَصِيرَةُ السَّادِسَةُ:

تعتمد البصائر القرآنية علىٰ المصدرية الإلهية للقرآن الكريم، وهي مصدرية لم تَطَلْها يد التحريف أو التزييف.

هنا نذكر قول موريس بوكاي في لقاء متلفز له عام١٩٨٧م: لا بد لي أن أعترف حينما قرأت القرآن في لغته العربية لأول مرة في عام١٩٧٢م كانت المعلومات المتعلقة بجسم الإنسان فيه هي أول ما أدهشني إلىٰ أبعد الحدود، وبالنظر إلىٰ وضع المعرفة العلمية في عهد النبي ﷺ فإنه لا يعقل أن يكون ذلك الكم الهائل من المعلومات المتصلة بالعلم الوارد في القرآن لا يعقل أن تكون من وضع إنسان، ولذا فإنه من المشروع تماماً النظر إلىٰ القرآن ليس باعتباره وحياً منزلاً فحسب بل أيضاً أن نفرد له موقعاً مهيمناً خاصاً به علىٰ أساس الضمان الذي توفره لنا مصدريته الإلهية، وأيضاً بما تحتويه آياته من إشاراتٍ علمية عندما ندرسها في عصرنا هذا نراها لا تزال تشكل تحدياً حقيقياً للمعرفة الإنسانية.

.. إلا أن كل متدبرٍ يقر بأن استنباطه للبصائر القرآنية يظل اجتهادًا بشريًا، ويقوم علىٰ تدبرٍ إنسانيٍ يطرأ عليه الخلل، ويعتريه الزلل.

وقد تفضل جمٌ غفيرٌ من الفضلاء فراجعوا الكتاب، وتابعوا تطور التفكير فيه، وهرع عددٌ من المحبين يطلبون المدارسة لأفكاره في مجالس قرآنية ازدانت بالمناقشة والتأمل، فكانوا شاهدين علىٰ تلمس الرشد في المعاني التي نتدبرها في السبع المثاني، واقترح بعضهم تسميته: لب الألباب في مقاصد أم الكتاب، وتضوع مسك عبير اقتراحاتهم بغير ذلك، فرفعهم الله مكانًا وكان بهم حفيًا.. علىٰ أنني ينبغي

أن أذكر أن من التسميات السابقة لهذا الكتاب: (الخطة القرآنية لبناء الحياة في ضوء مقاصد سورة الفاتحة).

وبعد:

فهذه النظرات محاولة للفرار إلىٰ معين القرآن زمن الفتن عسىٰ أن تُضاء ببصائره الأبصار.. وأن تكون مقاصده نورًا يُشرِقُ من سنا تلك الأنوار.. يأوي به الخلق إلىٰ ركنٍ شديد، ويستبين القول السديد في الارتباط بقضايا العصر، وينجو المتواصون به من الخُسر، فينشأ الوعي الصحيح الذي يقيم المؤسسات التعليمية والثقافية والإعلامية علىٰ أساس الرؤية القرآنية، والمنهجية التربوية النبوية، مردِّدًا قول إقبال، بعد قراءة كتاب ربنا ذي الإكرام والجلال:

يا ليت قومي يسمعون شِكايةً ... هي في ضميري صرخة الوجدان
إن الجواهر حيَّرت مِرآة هذا ... القلب فهو علىٰ شفا البركان
أسمِعهمو يا ربِّ ما ألهمتني ... وأعدْ إليهم قومة الإيمانِ
وأذقهم النبعَ القديم فإنه ... عين اليقين، وكوثر الرضوانِ

عبد السلام مقبل المجيدي

غرة جمادىٰ الثانية ١٤٣٨هـ

s1435y@gmail.com

تمهيد
مِعْرَاجُ الفَاتِحَة

(الفاتحة) تُقدِّم الإسلام للعالم، وترسم خطَّة الإنقاذ للبشرية وتقرر المقاصد المعرفية والسُّلوكية التي تحتاجها الإنسانية

نماذج لإدراك قيمة الفاتحة وعظمتها

الأنموذج الأول: بين الحضارة العظيمة (حضارة الحِجْر) وسورة (الفاتحة):

(الفاتحة).. يا لَعظمة هذا الاسم وجماله! حسبك في معرفة قيمتها أن تعلم هذه العلاقة الفريدة بين سورة (الفاتحة) وبين سورة (الحِجْر)..

فالله – جلَّ مجده– أنزل في كتابه الكريم سورةً جليلةً سُمِّيت باسم فريد هي سورة (الحِجْر).. أما لماذا سُميت السورة بهذا الاسم فلأن الله ذكر هذه الكلمة في السورة، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر:٨٠] ولكن ما معنىٰ الحِجْر؟ ومن هم أصحابه؟ الحِجْرُ: اسمٌ لحضارة عظيمة أنشأتها قبيلة (ثَمُودَ) بوادِي القُرَىٰ بَين المدينةِ والشَّامِ، وَهِي بُيوتٌ مَنحوتَةٌ فِي الجِبَال، فهي بيوتٌ شامخة، وقصورٌ منيفة لكن داخل الجبال مثْل المغارات، وكلُّ جَبَلٍ منْقَطِعٌ عَن الآخَرِ، بلغ من قوة أصحابها أن ينقروها دون احتياجهم للآلات المعاصرة، ويصف الله نحتهم المترف الفاره فيقول: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء:١٤٩]، فهي دليل رفاهية، وهي أيضـًا علامة للأمن القومي ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢] بالإضافة إلىٰ اتخاذهم القصور في السهول القريبة من تلك الجبال، ويُذَكِّرهم نبيهم بذلك ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤].. الآن بعد أن استبانت حقيقة الحِجْر، وتسمية السورة باسمه تعال بنا لنسمع الله –جل في علاه– يقول في السورة ذاتها يخاطب النبي ﷺ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧].. إنها الأسماء الرائعة اللافتة! ما معنىٰ (السبع المثاني والقرآن

العظيم) وما علاقتها بالحِجْر؟

السبع المثاني هي سورة (الفاتحة) سميت بذلك لأنها سبع آياتٍ (مثاني) أي تكرر وتثنىٰ في اليوم والليلة سبع عشرة مرة علىٰ الأقل وهي (القرآن العظيم) فهي أعظم القرآن..

ويبقىٰ السؤال: ما علاقة الفاتحة بحضارة أصحاب الحِجْر؟

إن الله يريد أن يبين لنا أن كنز (الفاتحة) أعظم من تلك الحضارة.. إن التمسك بعهد (الفاتحة) يعني إنشاء حضارات أعظم من تلك الحضارة في الدنيا.. فكيف في الآخرة.. من أجل ذلك قال الله -جلَّ في علاه- بعد ذلك ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:٨٨].. ولماذا ستمد عينيك، وأنت عندك (الفاتحة) التي إن تدبرتها، وفهمت مراميها ستنشئ لك ما هو أعظم من كل الحضارات التي تتمتع بها البشرية.. ويؤكد النبي ﷺ ذلك وهو يحدد المكانة المركزية لسورة (الفاتحة) في الوحي الإلهي كلِّه الأول والآخر مقسمًا بالله، فيقول: «والذي نفسي بيده، ما أنزل في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلها، وإنها سبعٌ من المثاني، والقرآن العظيم الذي أعطيته»(١).. إذن هي أحسن الأحسن، وأفضل الأفضل.. أحسن الأحسن من أي شيء؟ من كل الوحي الإلهي: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان.. يعلن النبي ﷺ هذا للناس جماعاتٍ وفرادىٰ، فعن أنس رضي الله عنه: كان النبي ﷺ في مسيرٍ، فنزل، ونزل رجلٌ إلىٰ جانبه، فالتفت النبي ﷺ، فقال: « ألا أخبرك بأفضل القرآن؟» قال: بلىٰ، فتلا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٢).

---

(١) الترمذي(٥/ ١٥٥)، وقال: حسن صحيح، ورواه أحمد(٢/ ٤١٢).

(٢) النسائي(٧/ ٢٥٥)، وابن حبان(٣/ ٥١)، والحاكم(١/ ٥٦٠)، وقال: "صحيح علىٰ شرط مسلم".

الأنموذج الثاني: أسرار وراء البيان.. لماذا كانت الفاتحة (أمَّ القرآن)؟

وهنا تتساءل أيضًا: لماذا كانت الفاتحة (أم القرآن)؟ لماذا كانت دون سواها فاتحة (الكتاب)؟ لماذا كان لها هذه المكانة المركزية؟

تعال لننظر في شيء من الإجابة على ذلك:

أما أولًا: فـ(الفاتحة) مُقدِّمةُ القرآن، والقرآن يُمَثِّل أساسَ المعرفةِ الكونيةِ.. أليس هو البيان الإلهي الأخير؟ فهو إذن الدستور الحقيقي لإدارة العالم، ففاتحةُ القرآن بذلك تُمَثِّل:

الخطة القرآنية المركزية لبناء الحياة العلمية والعملية التي يحتاجها الفرد.. إنها أساس الخطط التي تقوم بتشكيل الحضارة الراشدة في المجتمعات.. إنها السورة التي يجب إعادة تشكيل العقل المسلم في ضوء مقاصدها، ورسم خريطة الآفاق الفكرية على نورٍ من بصائرها..

إنها فاتحة الفرقان فهي بذلك فاتحة الكون.. وفاتحة المجتمعات.. وفاتحة صلاح النفوس.. هي غيث القلوبِ والأرضِ اليبوس.. هي فاتحةُ زوال الهموم والكروب.. وفاتحةُ السعادةِ والقرب من علام الغيوب..

سترى أن الفاتحة ترسم المعالم الإسلامية الأساسية، وتلون خريطة الحياة بصبغة الله، وتنير النفس بالآفاق الحقيقية للنجاة، وتُعَرِّفُ العالَم بالخالق -جلَّ في علاه-.. إنها تشرق بنورها على الإنسان لتُعَلِّمَه كيف يتعامل مع الحياة والكون والأحداث المتجددة وَفق عقليةٍ واعيةٍ، ونفسية مُوحِّدةٍ نقيةٍ صافيةٍ.

هذه السورة المباركة هي (فاتحة) الراحة، والاطمئنان، والكمال في الحياة الأولى، وهي (فاتحةُ) العَظَمة، والمجد في الحياة الأخرى..يقرؤها الإنسان صادقًا فيصل بها إلى أعلى مرتقى، وتأخذ بناصية القانت إلى أجمل حياةٍ في كَنَفِ ربه العلي الأعلى.

وأما ثانيًا: فهي السورةُ الوحيدةُ التي نزلت كاملةً في وقتٍ مبكِّرٍ لتُقَدِّمَ - بصورةٍ متميزةٍ بين سور القرآن- للعالَم التعريفَ الـمُكَثَّفَ الواضحَ للإسلام، وهو تعريفٌ يفهمه كلُّ أهل الأرض في كلماتٍ معدودات.. كأن الله يخاطب العالم من خلالها، فيقول:

أتريد أن تعرف الإسلام؟ إليك الإسلام في سبع آيات ذات كلمات معدودات.. وسترىٰ من خلالها كيف يتم تشكيل البناء الإسلامي العظيم.. ستحبه، وستنجذب إليه للمنطق المدهش الذي يتسم به.

ولذا جاء ترتيب كلماتها علىٰ أفضلِ نَـمَطٍ وأجمل نسقٍ.. يجذب العقول ويملأ الحياة بالمعرفة الـمُبصِرة والجمال والجلال والألَق والعَبَق.

الأنموذج الثالث: (الفاتحة) تمثل اللسان الصادق للبشرية المؤمنة في الصلة برب العالمين والمناجاة المتلذذة:

تندهش عندما تجد أن (للفاتحة) المباركة مزيةٌ لا نظير لها في القرآن المجيد، فهي «السورة الوحيدة التي وُضِعَتْ أولَ الأمر لا علىٰ الصدور عن كلام الرُّبوبية العليا؛ ولكنْ علىٰ لسان البشريَّة المؤمنة، تعبيرًا عن حركةٍ نفسيةٍ جماعيةٍ متطلِّعةٍ إلىٰ السَّماء، بينما سائرُ السُّوَر تعبِّر عن الحركةِ المقابلة: حركةِ الرحمة المرسلة من السَّماء إلىٰ الأرض، وهكذا حين ننظر إلىٰ القرآن في جملته نراه يتمثل أمامنا في صورةِ مناجاة ثُنائية، الفاتحةُ أحدُ طرفَيْها، وسائر القرآن طرفها الآخر، الفاتحةُ سؤالٌ، وباقي القرآن جوابٌ، الفاتحة هي طلبُ الهدىٰ، والباقي هو الهدىٰ المطلوب»[(١)].

---

(١) من كلام يكتب بماء الذهب لفضيلة الدكتور محمد عبد الله دراز نقله عنه رجب عبد المنصف في مقال له في ترجمته نشر في أكثر من موقع.

إنها (الفاتحة) تُـمَثِّل البيِّنةَ الواضحةَ.. تأمَّلْ في عطورها الفائحة.. لترىٰ جمالَـها، وجلالَـها، وعَظَمتَها، وكمالَـها، وترىٰ معالجتَها الفذةَ العظيمةَ لموضوعاتِ الحياة مع جمالٍ في تنوير الفكر والبصائر، وعَظَمَةٍ في تنمية العقول والمشاعر، ورَوعةٍ في إعادة تشكيل العقل الإنساني الحائر. فكيف تَضِلُّ أمةٌ عندها مثل هذه السورة !!

يا عجبًا !! سورةٌ تُرَدِّدُها الأمةُ الإسلامية في يومها وليلتها سبع عشرة مرةً علىٰ الأقل، فلمَ لا تجعلها الـمُحَرِّكَ الأساسي لبرامجها وسواعدها ونواصيها؟ لـمَ لا تجعلها اليَنبوعَ الذي تستقي منه كيفيةَ بناء الجوانب الحيوية؟ لـمَ لا تنطلق منها في إدارة ملفاتها الخارجية والداخلية؟ لـمَ لا تكون أهم الأسس التي تعينها علىٰ مواجهة المشكلات، والتعامل مع النوازل والنكبات؟

لم لا تجعلها طوق النجاة للخروج من الضلال المبين ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٦٨].

لهذا لا بد من العودة إلىٰ الفهم والتدبر، فتَدَبُّرُ (الفاتحة) المباركة يعطيك نموذجًا مشرقًا لماهية الإعجاز القرآني في المعاني والمباني، ومن خلال التأمل، والتَّدبر ستُرسَمُ معالمُ الحياة المسددة الرشيدة، وتَظْهَرُ (بصائرُ القرآن) التي تُؤسس أجمل حياةٍ سعيدة. تدبر بصائر القرآن.. لتجد نور الله يحيط بنفسك، ويعمر حياتك.. لتجد نور القرآن يسمو بك إلىٰ الرفيق الأعلىٰ الأسعد.. وهنا دعنا نسافرْ في لآلئ كلماتها.. ولنستنرْ بأنوار معانيها وفيض بركاتها. نعم! دعنا نبحث في الدورب عن إشراقات (الفاتحة) التي أنارت الأفكار والقلوب..

دَعْنَا نُسَافِرِ فِي دُرُوبِ إِبَائِنَا ... وَلَنَا مِن الهِمَمِ العَظِيمةِ زَادُ

بين مركزية الفاتحة في النسق القرآني وبين بقية السور في (المصدر الأول للمعرفة)

هل هذه المركزية العظيمة لـ(أمِّ الكتاب، وأمِّ القرآن) تعني أن بقيةَ السور القرآنية مستغنىً عنها؟

لا! ولا يمكن فهم ذلك؛ فإن القرآن كلَّه -وليس الفاتحة فقط- هو الذي تتحقق به الكفاية للاحتياجات البشرية في إقامة الحجة، وفي فهم الحياة، وفي التشريع التنظيمي للواقع؛ فالله -عزَّ جارُه- يقول: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت:٥١].

فالقرآن يمنحك البصائر المجيدة التي تحدد لك الرؤية الصادقة الحقيقية للحياة السعيدة، والمنهجية القوية القويمة الرشيدة ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٣]، ولكن هذه المركزية العظيمة للفاتحة تعني:

أنَّها (فاتحة) الانطلاق لفهم الخطة المعرفية القرآنية التفصيلية في بناء الحياة؛ فقد حوت الخلاصة الأولية للكلمات الإلهية، فضمت أهم المحكماتِ القرآنيةَ، والمقاصدَ الكليةَ القطعيةَ الإسلامية، والقواعدَ الدستوريةَ الجامعةَ.

فلو قلنا للمعاني المبثوثة في معظم الكلمات القرآنية اذهبي إلىٰ حيث شئت لرجعت إلىٰ (الفاتحة) المباركة، وبذا تنطلق منها الأمة لتتبوأ مكان القيادة والريادة الخيِّرة العالمية ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

فهي المنارة التي تحتاج المحافل الدولية إلىٰ الاسترشاد بنورها، وتَعَلُّمِ معانيها، وهي مقدمة الميثاق الأممي الصادق الذي تفتقر المؤسسات العالمية إلىٰ استلهام مقاصدِه ومراميه.

و(الفاتحة) فاتحة للسور، وليست هي السور! فلا تغني عنها؛ إذ بقية السور القرآنية تحتوي علىٰ معالـمَ (تفصيلية) و(تأكيدية) لما في (الفاتحة)، كما أنها تنشئ (قواعدَ جديدةً) في المعرفة القرآنية، وتحتوي في الوقت ذاته علىٰ كمٍّ معرفيٍّ عظيمٍ يشكل مبادئ قرآنيةً (تأسيسيةً) تتألف منها الخطةُ القرآنيةُ للبناءِ الحياتي مما لـم يرد في (الفاتحة)، وقد وصف الله الخريطة القرآنية كُلَّها فجعلها بجميع السور محتويةً علىٰ أربعة معالم أساسية، فقال: ﴿تَصۡدِيقَ ٱلَّذِى بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١].

فالفاتحة المباركة وإن كانت (أمَّ القرآن) إلا أنها لا تغني عن بقية القرآن؛ إذ القرآن بمجموع سوره يشكل مصدر المعرفة الأول الذي يمد العالم بمعلوماتٍ ليس في وسعهم أن يجدوها من تلقاء أنفسهم كما قرر الله ذلك قائلًا: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة : ١٥١]، ومن يستمع بفهمٍ واعٍ ومحبةٍ صادقةٍ إلىٰ القرآن المجيد سيجده أساس الانبعاث للعقل الإنساني، فأكمل العقول هي التي تصدر عن المعرفة القرآنية.

إن الخطة الحيوية التي ترسمها الفاتحة ستدهشك، وتأخذ أنفاسك إعجابًا عندما تتعمق في تدبرك لتفاصيلها.. وتذكر أن ذلك لا يتأتىٰ إلا بتدبر الأذن الواعية الملقية للسمع مع شهادة القلوب الحاضرة، وخذ نموذجًا لهذا الإدهاش في البصائر الإستراتيجية التي توفرها آيتا (الصراط)..

سترىٰ أنها تضع لنا -في تركيزٍ مذهلٍ- حلولًا للوقائع التي جعلت مراكز صنع القرار في الدول الإسلامية حائرةً في كيفية التعامل مع الواقع المتشابك للفتن السياسية والاجتماعية المتلاطمة الأمواج.. عندها سترىٰ حقًّا المجد الذي تبنيه المفاهيم الحضارية القرآنية في بناء حياة المسلمين ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:١٠].

نماذج لجهود العلماء في تحديد النسق القرآني

هلمَّ بنا لارتشاف الضياء الحقيقي من خلال التدبر المشرق (للفاتحة) المباركة لنجد أنها ترسل لمحةً مضيئة، وتبرق سراجًا لامعًا للعالَـم يدله علىٰ حقيقة الإسلام وأهدافه، وهي المقاصد التي تحتاج البشرية إلىٰ معرفتها لإدراك سر الحياة، فإذا أراد إنسانٌ معرفةَ حقيقةِ الحياةِ، وفلسفةِ الوجود، فسيجدها بسهولة عندما يدرك الأهدافَ العليا للإسلام، وسيراها بكل وضوحٍ عندما يتعرف إلىٰ المقاصد الكلية التي تدور حولها المعارف القرآنية، وأيسر طريقٍ إلىٰ ذلك أن يتأمل (الفاتحة) ويتدبرها، لماذا؟

لأنها (القرآن العظيم)، وهذا اللقب الفخم نجده في القرآن الكريم، ونجد أن النبي ﷺ لقبها به؛ فقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧]، وفسَّر ذلك النبي ﷺ بما يشبه النص في قوله: «أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ: السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ»[(١)].. فقل لي -أعزك الله- ماذا يعني أن تكون الفاتحة هي (القرآن العظيمَ)؟ إن ذلك يعني بسهولة أنها خلاصةُ القرآن المجيد وسِرُّه، ويعني أنها استوعبت المقاصد الكلية للتنزيل القرآني.

ولأن (الفاتحة) أُترِعت بالمقاصد القرآنية الكلية فقد حاول أهلُ العلم أن يُحَدِّدُوا مقاصدَ الفاتحة القرآنية، واختلفت عباراتهم في ذلك مع اتفاقهم في المضمون غالبًا، فبعضهم جعلها ثلاثةَ مقاصد، وبعضهم عَدَّها أربعةً، وبعضهم زاد علىٰ ذلك، وممن تعرض لذلك بإسهابٍ ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- حيث فَصَّل نظراتِه الثاقبة، ونتائجَ

---

(١) البخاري (٦/ ١٠٢).

تَدَبُّره الفذ الآسِر في كتابه (مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين)، والعيش في كَنَف النتائج التي توصل إليها يأخذ العقل إلىٰ أفنانٍ ندية، وحدائق ذات بهجة، إلا أننا سنذكر ههنا نماذجَ أخرىٰ للجهود الرائعة من أولي الأبصار السابقين يستبين لنا من خلالها كيف اكتنزت (الفاتحةُ) مقاصدَ التنزيل القرآني المبين؛ لتختصرَ للعالَم معالِمَ الإسلامِ العظام التي بها يَعرفون هويتهم الوجودية، وحقيقتهم الحيوية:

۞ **فأما الأنموذج الأول: فللفخر الرازي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٦٠٦هـ) حيث ذكر أن مقاصد القرآن أربعةٌ هي: **الإلهيَّات، والمعاد، والنُّبوَّات، وإثبات القضاء والقدر لِلَّه تعالىٰ**، وكلها اجتمعت في الفاتحة:

فَقَوْلُهُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ **يدلُّ على الإلَهيَّات.**

وَقَوْلُهُ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ **يدلُّ علىٰ المعاد.**

وَقَوْلُهُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ إلىٰ آخرها يدلُّ علىٰ **تفاصيل عقيدة القضاء والقدر** عند المسلمين التي تتلخص في نفي الجبر وإثبات الاختيار من جهة، وفي عدم خروج ذلك عن الإرادة الإلهية من جهةٍ أخرىٰ، حيث يقول الأبرار: (نعبد- نستعين)، مع الخضوع لمشيئة الواحد القهار التي نستمد منها المنة والنعمة، ولذا قال الله عن دعاء الصالحين: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، وتدل هذه الكلمات أيضًا علىٰ النُّبوَّات، وما يترتب عليها من مواقف المتبعين والصادِّين المجرمين[١].

---

(١) تفسير الرازي (١/ ١٥٦)، وقريبٌ من هذا نجد مقاصد القرآن عند محمد رشيد رضا -رحمه الله تعالىٰ- حيث ذكر أنها خمسة مقاصد كلية، وهي: التَّوْحِيدُ، والوعد والوعيد، والْعِبَادَةُ، وبَيَانُ سَبِيلِ السَّعَادَةِ وَكَيْفِيَّةِ السَّيْرِ فِيهِ، وقَصَصُ السعداء والأشقياء وصفاتهم. انظر تفسير المنار (١/ ٣٠).

۞ **وأما الأنموذج الثاني: فهو ابن جزي الكلبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٧٤١هـ)، وكأنه استفاد من الرازي، وطوَّرَ رأيه، فرأىٰ أن سورة الفاتحة جمعت معاني القرآن العظيم كلِّه، لتُكوِّنَ نسخةً مختصرةً منه، وهذه المعاني الكلية عنده ستةٌ هي:

الألوهيةُ في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ .

والدارُ الآخرةُ في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ .

والعباداتُ كلها من الاعتقادات والأحكام التي تقتضيها الأوامر والنواهي في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ ... ۝٥﴾ .

والشريعةُ كلها في قوله: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ... ۝٦﴾ والأنبياءُ وغيرهم في قوله: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ... ۝٧﴾ .

وذِكْرُ طوائف الكفار في قوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾[(١)].

ولك أن تناقش هذا العلَم الجَهْبَذ، فتتساءل عن تفصيل الفرق بين العبادات والشريعة فيما ذكره رحمه الله تعالىٰ؛ إذ يمكن دمجهما معًا.

۞ **وأما الأنموذج الثالث: فأنموذج الطاهر بن عاشور** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت١٣٩٣هـ)، حيث قرر أن مقاصدَ القرآن الكلية ثلاثة مقاصد، وغيرها تكملاتٌ لها، **والمقاصد الثلاثة** هي: **الثَّناء علىٰ اللَّه، والأوامر والنَّواهي، والوعد والوعيد**، وأشار بعقليته المقاصدية إلىٰ أن سبب حصر المقاصد القرآنية فيها:

أنَّ الأهدافَ الغائيةَ الكبرىٰ ترجِعُ إلىٰ صلاح الدَّارين، وذلك يحصل بالأوامر والنَّواهي، واستفدنا ذلك من قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾، وهذا هو المقصد الثاني، ولَمَّا توقَّفتْ الأوامرُ والنَّواهي علىٰ معرفة الآمر،

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (ص: ٣).

وأنَّه اللَّه الواجب الوجود خالق الخلق لزم تحقيق معنىٰ الصِّفات، وهذا هو المقصد الأول، واستفدنا ذلك من قوله تعالىٰ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، ولَمَّا توقَّف تمام الامتثال علىٰ الرَّجاء في الثَّواب، والخوف من العقاب لزم تحقُّقُ الوعد والوعيد، وهذا هو المقصد الثالث، ونجد هذا المقصد واضحًا في قوله تعالىٰ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

وقد يُؤيَّد هذا الوجه بما ورد في الصَّحيح في: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[الإخلاص:١] أنَّها تعدل ثلث القرآن؛ لأنَّها تُمَثِّل المقصد الأول من هذه المقاصد(١).

ولكن الطاهر -رحمه الله تعالىٰ- توسع فذكر في مقدمته أن مقاصدَ القرآن محصورةٌ في ثمانية أمورٍ(٢):

الأوَّل: إصلاح الاعتقاد، **الثَّاني**: تهذيب الأخلاق، **الثَّالث**: التَّشريع، **الرَّابع**: سياسة الأمَّة، **الخامس**: القصص وأخبار الأمم السَّالفة، **السَّادس**: التعليم، **السَّابع**: المواعظ والإنذار والتَّحذير والتَّبشير، الثَّامن: الإعجاز.

فإن قَلَّبْتَ تفسيره النافع الماتع المُتْرَعَ بالفوائد الجاذبة الآسِرة فستجده لخص مقاصد القرآن في موضعٍ آخرَ في مقصدين اثنين هما: الموعظة والتَّشريع(٣)، وليس الأمر عنده علىٰ الاختلاف المضطرب بل علىٰ التنويع في العبارة، والتفصيل حسب مقتضىٰ المقام، والتوسع في معنىٰ المقاصد.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٣٣).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤٠).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٤٠).

تَحْرِيرُ الْمَقَاصِدِ الْكُلِّيَّةِ (لِلْفَاتِحَةِ)

المَقَاصِدُ التي تُعَرِّف العَالَم بالإِسْلام

هلمَّ -أيدك الله تعالىٰ بالتوفيق- لنتتبع أثَرَ هؤلاءِ الأعلام في محاولة تحديد مقاصد التنزيل القرآني التي أجملتها (الفاتحة)، علىٰ أن ألفاظها وتراكيبها -ويا لَلإعجاز البياني- فَصَّلتها في إجمالٍ علىٰ نحوٍ رائعٍ فريدٍ، وبلاغةٍ مدهشةٍ.. ولنفتح العقلية المقاصدية القرآنية في تدبرنا (للفاتحة) من خلال البيان النبويِّ الدالِّ علىٰ تحديد هذه المقاصد بصورةٍ مستقصيةٍ تجذب التدبر، وتحرِّك نشاط التفكر، حيث قال النبي ﷺ: «**قال اللّٰه تعالىٰ: قسمت الصَّلاة بيني وبين عبدي نصفين، [فنصفها لي ونصفها لعبدي]، ولعبدي ما سأل**:

فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ قال اللّٰه تعالىٰ: حمدني عبدي.

وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، قال اللّٰه تعالىٰ: أثنىٰ عليَّ عبدي.

وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، قال: مجَّدني عبدي، وقال مرَّةً: فوَّض إليَّ عبدي.

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل.

فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ

عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾. قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»[١].

لا أظنك -أيدك الله- تحتاج إلىٰ كبير عناء بعد هذا البيان النبوي لترىٰ أنه يمكننا أن نجد مرتبتين تنبعث منهما المقاصد الكلية (للفاتحة) المباركة من الناحية الإجمالية والتفصيلية:

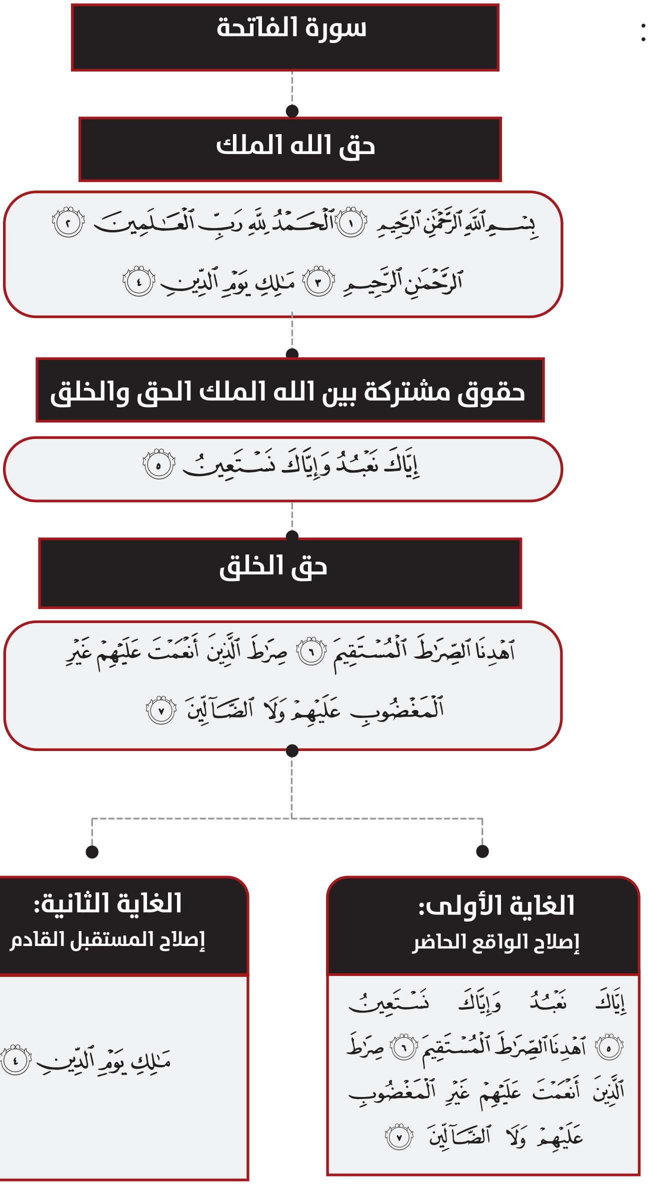

(١) مسلم (٢/ ٩).

فأما المرتبة الأولى فهي مرتبة التقسيم الإجمالي العام لمقاصد (الفاتحة) المباركة:

فأنت ترىٰ أن أَوَّلَ من حدَّد البعدَ المقاصدي للفاتحة المباركة هو النبيُّ ﷺ؛ حيث ذكر أن الله -تعالىٰ ذكره- قَسَمَ الفاتحةَ قسمين، ونلمح الثالث بينهما، وهذه الأقسام الثلاثةُ جاءت مرتبةً ترتيبًا منطقيًّا أضفىٰ الجمال البياني والواقعي بصورةٍ مدهشةٍ:

فأما القسم الأول: فلبيان صفات الحقِّ -تعالىٰ ذكره- ويترتب عليها معرفة حقوقه: وهي تتلخص في الثناء علىٰ الله الذي يرجع إليه التوحيد والتمجيد، والتربية، والرحمة، والعدل، والفضل، وهذا معنىٰ (معرفة الحق لتقديسه وتعظيمه)، ونجد ذلك في الآيات الأربع الأُوَل من السورة، ولذا يجيب الله علىٰ من يقرؤها: (حمدني عبدي، أثنىٰ عليَّ عبدي، مجَّدني عبدي، أو فوَّض إليَّ عبدي).

وأما القسم الثاني: فلبيان حقوق الخلق:

وكلُّها ترجع إلىٰ الحقوق الإنسانية المكتسبة بالـمِنَحِ الإلهية حيث يجدون التربية الإلهية، ويطلبون الهداية إلىٰ صراط السعادة الأبدية، ويدل علىٰ هذا القسم الآيتان الأخيرتان ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾، وفي ضوء الشمول التام للمجالات الحيوية التي ذكرها القرآن زمانًا ومكانًا وأسلوبًا تتفرع هذه الحقوق إلىٰ غايتين:

الغاية الأولىٰ: إصلاح الواقع الحاضر، أي إصلاح الأوضاع الحيوية التي فيها معاش الخلق بالعمران الفردي والجماعي، وهذا الإصلاح يقيمه منهاج العبادة التوحيدي بما تضمنه من نُظُمٍ تشريعيةٍ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾،

فهو يوضح البناء العملي القائم علىٰ الأساس الفكري الصادق للحياة، ويُستكملُ من خلال معرفة أحوال السعداء والأشقياء وقصصهم.

الغاية الثانية: إصلاح المستقبل القادم، وهو المعاد (يوم الدين) الذي يكتمل فيه الاستقرار الحياتي النهائي للمخلوقين، وتُحقق فيه العدالة الكاملة غير المنقوصة حيث ﴿تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١].

هنا يأتي القسم الثالث الذي يبين الحقوق المشتركة بين الحقِّ -جلَّ مجده- وبين الخلق، ويُعَبِّرُ عنها قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾، فالإصلاح للواقعين (الحاضر والمستقبل) يتم بالعبادة التي تعني التطهير للنفوس الإنسانية من السيئات، والتنمية لها بالأعمال الصالحات العلمية والعملية من خلال (معرفة الخير للعمل به)، وهي وظيفة ذاتية يقوم بها الإنسان لنفسه يرسم تفاصيلها القرآن المجيد، وهي وظيفة التزكية التي إحدىٰ الوظائف النبوية الثلاث.

فتوسطت هذه الآية الدستورية سورةَ (الفاتحةِ) لتكشف إعجاز الترتيب البياني القرآني، فهي بين الله وبين عبده، لذا قال الله: «هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل»، فمن العبد العبادة، ومن الله الإعانة، فتكون هذه الآية ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ميزانًا للحقوق العامة في الكون: حقوق الخالق، وحقوق الخلق[1].

---

(١) قولنا: (حقوق الخلق) تسامحٌ في العبارة سوغه تعليم الله تعالىٰ لنا أن نستخدم هذه الكلمة حيث ذكرها فيما أحقه علىٰ نفسه، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقول نبيه ﷺ لمعاذ رضي الله عنه -فيما رواه البخاري(٤/ ٣٥)، مسلم(١/ ٤٣)-: «**يا معاذ، أتدري ما حق الله علىٰ عباده؟**»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا. أتدري ما حق العباد علىٰ الله إذا فعلوا ذلك؟**» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**حقهم عليه أن لا يعذبهم**» ، وفي شرح الطحاوية ص٢٣٦: "فهذا حق وجب بكلماته التامة ووعده الصادق، لا أن العبد نفسه مستحق علىٰ الله شيئا كما يكون للمخلوق علىٰ المخلوق، فإن الله هو المنعم علىٰ العباد"، كما قيل:

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا، ولا سعي لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله، أو نعموا ... فبفضله، وهو الكريم السامع

ولعل استشعار ضخامة المعاني في هذه الآية حمل سفيان الثوري علىٰ البكاء عندها، فعن مُزَاحِم بْن زُفَرَ، قَالَ: صَلَّىٰ بِنَا سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ الْمَغْرِبَ، فَقَرَأَ حَتَّىٰ بَلَغَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بَكَىٰ حَتَّىٰ انْقَطَعَتْ قِرَاءَتُهُ، ثُمَّ عَادَ فَقَرَأَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[1].

إنَّ استشعار تلك المعاني الثرية للفاتحة حرَّك المشاعر الصادقة، فأحرق همُّها وهِمَمُها أوقاتها فيما يرفعهم في درجات الفردوس، ويمنحهم مراتب القرب كما قيل:

مَنَعَ القرآن بوعده ووَعِيده ... مَقل العيون بليلها أن تهجعا
فهموا عن الملك الجليل كلامه ... فرقابهم ذلت إليه تخضعا

ظهر بذلك أن الفاتحة دائرة بين حقوق الخالق -تعالىٰ جَدُّه-، وحقوق الخلق؛ فالخطاب القرآني:

له مصدرٌ هو الله تبارك وتعالىٰ، فذلك طرفه الأول، وطرفه الثاني هو الإنسان الموجَّه له هذا الخطاب، وميدانُ تنفيذ هذا الخطاب الكوني والشرعي هو الكون المخلوق، والكون المخلوق جزءٌ منه معمورٌ يُختبرُ الإنسان في عدم إفساده، وجزءٌ منه غير معمورٍ، يُختبَر الإنسان في عمرانه.

فصارت الأهداف: الثاني والثالث والرابع هي التزكية والعمران الحاضر والمستقبلي، ومعرفة ما يترتب عليهما.

وهذا التقسيم لطرفي الخطاب القرآني هو الذي أشار إليه النبي ﷺ في حديث أبي شريح الخزاعي قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «**أبشروا وأبشروا، أليس**

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ١٧).

تشهدون أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؟!» قالوا: بلىٰ. قال: «**فإن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله وطرفه الآخر بأيديكم فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبدا**»(١).

وبهذا التقسيم الحقوقي النبوي للفاتحة المباركة يُشرِقُ لقلبك أنها منحةٌ إلهيةٌ تُظْهِرُ عَظَمَةَ الربوبية، وفي الوقت ذاته يكشف هذا التقسيم أن القرآن المجيد نزل لرعاية البشرية، وبيان حقوقها، وتوضيح واجباتها، فالتوحيد، والأحكام العبادية الشاملة لأركان الإسلام، والأخلاق الشرعية، والمعاملات الإسلامية، والتشريعات الجنائية، والأحكام الاجتماعية والاقتصادية كُلُّها حقوقٌ إلهيةٌ إلا أن حقيقتها أنها تمثل الأنظمة الوحيدة الكفيلة بتحقيق المصالح الإنسانية، وهذا مَا جلَّاه الله مرارًا، فقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء:٧]..

ترىٰ ماذا يكون الرأي فيمن يحاول الحيلولة بين الإنسانية، وبين حقوقهم الحقيقية بالتزييف والترغيب والترهيب والتعنيف؟ فلماذا عن مصالحهم الحقيقية يفرون؟ ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير:٢٧،٢٦].

وبذا نرىٰ أن الصياغةَ القرآنيةَ في (الفاتحة) المباركة لا يمكن أن تُقارَن بها كلُّ الصياغاتِ الدستورية الأرضية؛ إذ أبانت التقنينَ الحقوقي في قالب الابتهال، وأوضحت طبيعةَ الوجود العالمي في هيئة كلامٍ متلوٍّ يملأ النفس بالجمال والجلال، فلله! كم درَّت هذه الآيات من معاني الأشواق، وبث في النفوس من الإشراق، وملأت بالطمأنينة الآفاق، وأدرجت في طياتها من المواد القانونية والأخلاقية التي تُنَظِّمُ الحياة الأرضية، وتحيط الحياة البشرية بالأنوار الإلهية.

---

(١) الرواية بـ(بلىٰ) في معجم الطبراني(١٦/ ٦١)، وهو عند ابن حبان(١/ ٣٢٩) بـ(نعم)، وقال شعيب الأرناؤوط: "إسناده حسن علىٰ شرط مسلم". "و(نعم) كلمة تصديقٍ وموافقةٍ علىٰ ما قبلها بالنفي أو الإثبات، بخلاف (بلىٰ) فإنها للإثبات خاصة". انظر: التسهيل لابن جزي(١/ ٤٣).

وأما المرتبة الثانية فهي مرتبة المقاصد التعريفيّة بالإسلام في (الفاتحة) المباركة

سنستهدي بما سبق في المرتبة الأولىٰ لتحديد المقاصد التعريفيّة بالإسلام في (الفاتحة) المباركة، فـ(الفاتحة) تُقَدِّم للعالَم تعريفًا واضحًا للإسلام، ويتميز هذا التعريف بأنه تعريفٌ موجزٌ ومكثفٌ، ويختزل مقاصد (الفاتحة) العامة، فماذا تظن -أسبغ الله عليك نوره- في سورةٍ وُضِعت في مقدمة أعظم الكتب السماوية وخاتَم الكتب الإلهية؟ ماذا تظن في سورةٍ سُمِّيتْ أمَّ القرآن، وأمَّ الكتاب، و(القرآنَ العظيم)!! أليست أولىٰ أن تعرض أجمل تعريفٍ، وأبهىٰ تقديمٍ يبين حقيقة الإسلام، ويَدُلُّ العالم عليه ليستهدي به!!.

ولعل أول ما تتميز به مقاصدُ (الفاتحةِ) التعريفيّةُ بالإسلام أنها جمعت ثلاثةَ أمورٍ:

تعريفًا واضحًا بالحقائق الإسلامية الكبرىٰ..

وخريطةً حياتيةً شاملةً لحقائق الوجود الإنساني يتم بها تشكيل عقل المسلم، وبناء آفاقه وتفكيره وأولوياته،

وملخصًا لمقاصد التنزيل القرآني ومحاوره.

فمن أدرك هذه المقاصد اتضحت له الخطة القرآنية لبناء الحياة، وتعرف من خلال ذلك علىٰ الإسلام:

وتـُمَثِّل هذه المقاصدُ القواعدَ الدستوريةَ الـمُحْكَمةَ التي بها ينظر المؤمن الصادق الهُمام إلىٰ البناء الإسلامي الفذِّ العظيم، ويتيقن من خلالها أن النظام الإسلامي يحقق السعادة القلبية والعقلية علىٰ المستويات الفردية والجماعية والعالمية، وتنبثق عن هذه المقاصد الكلية بصائرُ فرعيةٌ تُظْهِرُ عَظَمَةَ (فاتحة الكتاب)، وقوةَ كلماتها، وهذه المقاصد التعريفيّة هي:

المقصد الأول: التعريف باسم الإله الحق الأول والآخر -جلَّ مجدُه- الذي انبثق عنه الكون، والتعريف بأساس صفاته، ونجد هذا المقصد بينًا واضحًا في الآية الأولىٰ في قوله -جلَّ جلاله- ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١﴾، فاسمه: الله، وأساس صفاته: الرحمة.. ألا ترىٰ أن ذلك أعظم دليل علىٰ جمال الإسلام؛ إذ كانت أهم صفات الإله الذي يعبد في الإسلام: الرحمة؟

وبعد التعرف إلىٰ اسم خالق الكون، والتعرف إلىٰ أساس صفاته لا بد من التعرف إلىٰ حقيقة وجود الكون، وعلاقته بخالقه، وهنا يأتي المقصد الثاني:

المقصد الثاني: التعريف بالعالم (الوجود الكوني)، وأنه دليلٌ علىٰ أن الله هو الإله الحق ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢﴾، فكل ذرة في الكون تشهد علىٰ أن الله هو الإله الحق، فهو رب العالمين، والعالمون ينبغي أن يقابلوا ذلك بالحمد ومقتضياته.

وبعد التعرف إلىٰ طبيعة الكون، والتعرف إلىٰ أنه يسير وفق النظام الإلهي الذي به تتم تربيته، فتنظم قوانينه ونظمه الدقيقة المحكمة ربما تم التساؤل عن مراد الله من خلقه للكون، وتربيته له وفق مشيئته.. لأي شيء يفعل ذلك، فيأتي الجواب في الآية الآتية:

المقصد الثالث: التعريف بأهم أهداف خلق العالمين: الرحمة بهم، وهو أهم أهداف الرسالة الإسلامية ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾.

وبعد المقاصد الثلاثة السابقة نكون: قد عرفنا إله العالم، وعرفنا أنه أوجد هذا العالم تربية، وعرفنا الهدف من وجود العالم، وهنا يأتي السؤال عن مصير هذا الوجود، وحدود الحياة فيه، وهنا تظهر الرحمة الإلهية الكاملة بالخلق، فتختصر الآية الرابعة الجواب عن كل ذلك، ويعبر عن ذلك المقصد الرابع:

المقصد الرابع: التعريف بقصة نهاية العالم في الحياة الدنيا، وتطبيق العدل الإلهي الكامل ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

ونلاحظ أن المقصد الثالث جاء بعد المقصد الثاني حيث الكلام عن (العالمين) الذين يمثلون الوجود الكوني المخلوق، وقبل الكلام عن المقصد الرابع -وهو قصة النهاية، وبداية اليوم الآخر- ليبين الله أن رحمته تعم الدنيا والآخرة.

وبعد أن اتضحت الخريطة الكاملة للوجود المخلوق زمانًا ومكانًا، وظهر لنا - في الآيات الأربع السابقة - علاقة هذا الوجود بربه - جل مجده - الذي رباه ابتداء، وسيوافيه بالجزاء اللائق به يوم الدين انتهاء.. يأتي السؤال عن المطلوب من أجل تحقيق السعادة والفوز بالجزاء الحسن في الحياة الأولىٰ المؤقتة، والحياة الأخرىٰ الدائمة يوم الدين:

المقصد الخامس: التعريف بوظيفة العالمين، وهي الالتزام بأنظمة العبادة الموحدة لله ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ وذلك لتحقيق السعادة في الحياتين، فهذا مقصدٌ تعريفيٌّ بوظيفة الوجود، وبيان حقوقه، ونستنبط ذلك من قوله تعالىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، فهي تدل علىٰ أن منهاجَ العبادة يقوم علىٰ التوحيد، ويتكون من نُظُمٍ متعددةٍ تشمل مجالات الحياة المختلفة، وينتمي إلىٰ هذا المنهاج كل ما يتعلق بإعمار الحياة الدنيا، والحياة الآخرة، فصارت (العبادة القائمة علىٰ التوحيد، والشفاء من أمراض الشرك والرياء، والتطهر من الأرجاس الثقافية والفكرية والسياسية) أحدَ أهم الحقوق العالمية التي تحتاجها الإنسانية لبناء السعادة الحيوية.

وهذا المقصد مرتبطٌ بما سبقه، فقد عرفنا الجواب عن السؤالين الوجوديين الكبيرين: (من أين جئنا؟)، و(إلىٰ أين نذهب؟).

ويبقىٰ الجواب علىٰ السؤال الثالث: (لماذا؟)

لنجد أن الله فرض برنامجًا يبين وظيفة الحياة الوجودية، ويؤدي إلىٰ إصلاح النفوس الإنسانية، واستقامة الحركة الحيوية، وانسجامها مع بقية مخلوقات الكون وأنظمتها، ويتلخص هذا البرنامج في (المنهاج العبادي القائم علىٰ توحيد الألوهية)، وسوف يكون الجزاء والمحاسبة ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ بناء علىٰ القيام بهذا البرنامج والالتزام بتفاصيله، فمن عرف (توحيد الربوبية) في آية ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ لا بد أن يقرر (توحيد الألوهية)، فيقول -إن كان يعقل-: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾.

ونحتاج في نظام العبادة إلىٰ معينٍ عليه، ومبينٍ لطريقه بوضوح، وتبين ذلك المقاصد القادمة:

المقصد السادس: الاستعانة بالله نظامٌ تعبدي يُظهِر الافتقار لقوة القادر القهار ليعين علىٰ بناء الحياة وتحقيق النجاح وفق أنظمة العبادة ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

فهذا مقصدٌ تعريفيٌّ بوسيلة إقامة الوظيفة الوجودية، ونستنبط ذلك من قوله تعالىٰ ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾؛ فالافتقار الدائم سمةٌ لازمة للإنسانية في الأكل والشرب والنفَسِ والحركة وكل متطلبات الحياة، وهذا الافتقار يحول بين الإنسان وبين القيام بكثيرٍ من طموحاته لتحقيق متطلبات الوظيفة العبادية التي ينتمي إليها إعمار الحياتين: الأولىٰ والأخرىٰ، فأراه ربه وسيلةَ الإعانة للقيام بالوظيفة الحيوية، فما هذه الوسيلة؟

إنها نظام تعبديٌّ خاصٌّ هو (الاستعانة)، وهو نظامٌ فريد لأن معناه أن تطلب العون علىٰ بقية أنواع العبادة وتؤجر علىٰ الأمرين معًا، فالاستعانة بالله وحده وسيلةُ الإعانة للنفوس التي افتقرت إليه واستغنت به، وبذا يبني نظامُ (الاستعانة) التزكيةَ الذاتية في

المخلوقين، ويعينهم علىٰ الشفاء من أمراض العجب والغرور والكبرياء[(١)].

والمقصدان الخامس والسادس يبينان لنا الامتزاج في فهم قاعدة: (الحقوق الكلية: حق الله الإله الحق، وحق الخلق)، فمنهاج العبادة، ونظام الاستعانة حقٌّ للخلق، وواجب عليهم بالنسبة لله سبحانه، ولا تستنكرنَّ -وفقك الله- قولَنا: حقٌّ للخلق، وواجبٌ عليهم؛ إذ العبادة حقٌّ لهم؛ لأنها تدخل ضمن منظومة (الرحمة بهم، وهي السابقة الغالبة في صفات الله -جلَّ مجده-، فبها يسعدون، ويقيمون نظم حياتهم علىٰ أكمل الوجوه وأحسنها، وهي واجبةٌ عليهم؛ لأن ذلك هو الذي يجب عليهم تقديمه لمولاهم وملكهم ومالكهم -تعالىٰ سلطانه-.

المقصد السابع: (الصراط المستقيم) هو الطريق الوحيد لاتخاذ القرارات الصائبة في التعامل مع الحياة وإقامة النظام العبادي ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾.

فهذا مقصدٌ تعريفيٌّ بالطريق الصحيح لإقامة نظام العبادة في الإسلام، واستنبطنا هذا المقصد من قوله تعالىٰ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، فبناء النُّظُم العبادية الحيوية ينبغي أن يكون محكومًا بالتحقق من السير في الصراط المستقيم، والتخلق بصفات أصحابه، وهذا المقصد يبين لنا قاعدة (حق العباد في معرفة أخصر طرق السعادة)، فجعل الله للعبادة طريقا واحد هو الطريق المستقيم المؤدي إليه دون تعرجات أو مرور علىٰ غيره، وقوله ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ يعني وفقنا لاتخاذ القرارات الصائبة في كل أمور الحياة لتكون عبادتنا لك موافقة لما تريده منا.

---

(١) فصارت الاستعانة الـمُوَحِّدة لله وسيلةُ النفوس المفتقِرَةِ لجلب التأييد الإلهي لتقوم بالوظيفة الوجودية أي لتؤدي العبادة المطلوبة منها لتحقيق طموحاتها في الحصول علىٰ السعادة.

المقاصد المحددة للصراط المستقيم:

والآن تعال بنا بعد تلك المقاصد الأولىٰ لنرىٰ التحديد الدقيق العجيب في بيان صبغة الله التي يريد من البشرية أن يصبغوا أنفسهم بها؛ إذ ستفجؤك الآية السابعة المباركة ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾، فهي آيةٌ فريدةٌ في موضعها وألفاظها؛ فهي الآية العاصمة لسير العابدين علىٰ صراط الاهتداء المستقيم؛ وستجد فيها مقصدين عاصمين:

مقصدٌ يتعلق بالإثبات والتحديد لماهية الصراط المستقيم، وهو المقصد الثامن حيث يبين الله فيه أن (الصراط المستقيم) الحقيقي هو الذي سار عليه الـمُنعَم عليهم من السابقين ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، فهذا المقصد يبين صلة السابقين باللاحقين في الحفاظ علىٰ حقيقة الصراط المستقيم وعدم تغييره، فيُعَرِّفَ الناس بحدود الصراط المستقيم، ونستنبط هذا المقصد من قوله تعالىٰ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ .

ومقصدٌ يتعلق بالنفي للطرق الزائغة المجرمة التي يحاول دعاتها خلطها بالصراط المستقيم، وهو المقصد التاسع، وفيه ترىٰ بتحديدٍ مبهرٍ وجوب حماية الصراط المستقيم من العدوين الاستراتيجيين:

المغضوب عليهم، والضالين سواء أكانوا أفرادًا أم فرقًا، ونستنبط ذلك من قوله تعالىٰ: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فأن تمشي علىٰ الصراط المستقيم لا يعني أنك لن تواجهك العقبات والعراقيل.. فجاء هذا المقصد التعريفيّ العاصم للصراط المستقيم من هذين العدوين (الإستراتيجيين):

أما العدو الأول: فهم (المغضوب عليهم)، وهم مجموعةٌ من البشر عرفوا الحق.. عرفوا ملامح الصراط المستقيم لكنهم أبوا أن يتبعوه.. لكأنك ترىٰ (الصراط

المستقيم)، وترىٰ المغضوب عليهم عن يمينه وعن يساره يحاولون إزاغة أصحابه بإسقاطهم في الأعمال التي تغضب الله رب العالمين.. وبعضهم يقوم بأفعال المغضوب عليهم بصورةٍ فردية، وبعضهم يصر علىٰ الإجرام الجماعي.

وأما العدو الثاني: فهم (الضالون)، وهم عدوٌ يريدون القيادة الفردية والعالمية، وتوجيه المجتمعات عبر عقليةٍ جاهلةٍ ضالةٍ عمياءَ بعيدةٍ عن التحقيق العلمي، والله يقول عنهم ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد:١٩]، والفرق الضالة فئاتٌ تاهت عن العلم الحق بسبب الجهل البسيط والمركب، إلا أن بعضها يُصِرُّ علىٰ قيادة العالم علىٰ طريقتهم الضالة بعيدًا عن الصراط المستقيم، وربما حسبوا أنهم يحسنون صنعًا.. وأكثرهم أيدٍ يحركها الفريق الأول فريق المغضوب عليهم.. ليجلبوا لهم أنصارًا يساندونهم علىٰ ضلالاتهم.

فذكر الله في هذا المقصد العاصمِ فرقًا وأفرادًا يستنزلون الغضب الإلهي، وذلك بالعمل علىٰ الإضلال البشري.. وترىٰ المغضوب عليهم والضالين يسعون بإصرارٍ لتنفيذ الخطط الآثمة لتزييف الصراط المستقيم، وإدخال العالَـم في الكفر والفسوق والعصيان.. فيحاولون إشاعة التكفير العالمي (إدخال الناس في الكفر)، والتفسيق العام، وإحداث العصيان والبدع الفاحشة التي لم يعهدها السابقون من الـمُنعَم عليهم، وانتهاج سبيل الغي، ونبذ النهج الرشد، بل محاربته، وتصل هذه الفرق إلىٰ ذلك غالبًا عبر أمرين:

الأمر الأول: التلبيس العلمي بتكوين ثقافةٍ يتم فيها لبس الحق بالباطل، أو التلبيس العملي بتعطيل العلم الحق من العمل.

الأمر الثاني: السيطرة علىٰ وسائل تكوين الأفكار، واللعب بمحركات التأثير علىٰ الرأي العام، وصنع القيادات المجتمعية التي تُسْهِمُ في تحقيق أهدافِها الكلية

أو الجزئية، وصناعةِ الوعي الذي يجلب الغضب الإلهي بالإفساد في الأرض وسفك الدماء، بدلًا من السلام الكوني الذي يحدث بالاستسلام للمنهاج العبادي التوحيدي كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران:٨٣].

وهذان المقصدان (الثامن والتاسع) يشكلان الحدود الحقيقية التي تحمي مفاهيم الصراط المستقيم، وتوضحه أعظم توضيحٍ، وتحدده بأقوىٰ تصريحٍ؛ حتىٰ توفر لأصحابه الفلاح الفردي والجماعي، وتعصمَهم من الزلل والخلل في فهم طبيعة الصراط المستقيم، وفي الوقت ذاته يوفر هذان المقصدان الحماية والحصانة للصراط المستقيم من العبث واللعب والتحريف والتزييف، ويحفظان الكيانَ الإسلامي الذي يُمَثِّلُه في الحياة، ويحميانه من اختراق القوىٰ الإجرامية المحرفة أو المزورة أو المعتدية، حتىٰ لا يحصل الانحراف والانصراف عنه، أو الغلو والانجراف فيه.

ثم يأتي المقصد العاشر مشكلًا عامل النصر الحاسم لنشر رسالة الرحمة العالمية، فيبين أن مبدأ (الأمة الواحدة) هو الوسيلة الوحيدة لأصحاب الصراط المستقيم ليقوموا بتحقيق النصر الجماعي، والحماية لأفراد الأمة، ونستنبط هذا من التعبير المميز في قوله ﴿نَعْبُدُ﴾،﴿نَسْتَعِينُ﴾،﴿ ٱهْدِنَا﴾ .

فهذا مقصدٌ تعريفيّ بوسيلة فوز أصحاب الصراط المستقيم، ونستنبط هذا المقصد من التعبير بالصيغة الجماعية في أفعال العباد في قوله تعالىٰ:﴿نَعْبُدُ﴾،﴿نَسْتَعِينُ﴾،﴿ ٱهْدِنَا﴾، ومن التقسيم الثلاثي للعالم إلىٰ مُنعَمٍ عليهم، ومغضوبٍ عليهم، وضالين.

تلك عشرة مقاصد كاملة[١] تتدبر (الفاتحة) لتجدها ترسمها لك مبينة الرؤية القرآنية للخريطة الحيوية لهذا الوجود، وتوضح لك خلالها كيفية الانتصار الحقيقي للفرد والأمة التي أخرجها الله بالحق للتعريف به، وبالخير لنشره في العالم.. فلتبدأ سفينة النجاة باستكشاف بحر البصائر المدهشة المتعلقة بهذه المقاصد ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [هود:٤١].

---

(١) مرَّت صياغة هذه المقاصد بمراحل، وكانت المراحل الأولىٰ لصياغتها قد اتخذت طابعًا وعظيًّا، وكانت سبعة، هي الآتية:

المقصد الأول: (الفاتحةُ) هي البناء للنفس الإنسانية، والشفاء من الأمراض والأدواء بالثناء علىٰ أرحم الرحماء، ونجد ذلك في [الفاتحة ١-٤].

المقصد الثاني: (الفاتحةُ) هي البناء لتوحيد رب الأرض والسماء، والشفاء من الشرك والرياء، ونستنبط هذا المقصد من قوله تعالىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾.

المقصد الثالث: (الفاتحةُ) هي البناء للتزكية بالاستعانة القوية بربِّ البَرِيَّة، والشفاء من العجب والكبرياء ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

المقصد الرابع: (الفاتحةُ) هي البناء والشفاء بسلوك الصراط الحياتي القويم صراط السعداء ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾.

المقصد الخامس: (الفاتحةُ) هي التطبيق العملي المباشر لصراط الاهتداء، ويتم بالاقتداء بالسابقين المُنعَم عليهم من السعداء ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾.

المقصد السادس: (الفاتحةُ) هي البناء والشفاء بترك طريق أهل الغضب والاعتداء ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

المقصد السابع: (الفاتحةُ) هي البناء والشفاء بترك طريق أهل الجهل والضلالة العمياء ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

ولا تتعجبن -رفع الله ذكرك- من الجمع بين كلمتي (البناء) و(الشفاء)؛ فإن المراد أن الفاتحة بناء للواقع الصحيح ابتداءً، وشفاء للواقع القائم المعتل السقيم لتعيده إلىٰ هيئته الصحيحة، إن كان قد قام علىٰ خللٍ وعِللٍ.

المقاصد الكلية لسورة الفـ

المقصد الأول

المقصد التعريفي باسم الإله الحق الأول والآخر – جلَّ مجدُه – وأساس صفاته بالنسبة إلى المخلوقين ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ (الفاتحة: ١)

المقصد الثاني

التعريف بالعالم (الوجود الكوني)، وأنه دليلٌ على أن الله هو الإله الحق ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الفاتحة: ٢)

المقصد الثالث

التعريف بأهم أهداف خلق العالمين: الرحمة بهم، وهو أهم أهداف الرسالة الإسلامية ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ (الفاتحة: ٣)

المقصد الرابع

التعريف بقصة نهاية العالم في الحياة الدنيا، وتطبيق العدل الإلهي الكامل ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ (الفاتحة: ٤)

المقصد الخامس

التعريف بوظيفة العالمين لتحقيق السعادة في الحياتين: الالتزام بأنظمة العبادة الموحدة لله ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، ونحتاج في نظام العبادة إلى معين عليه، ومبين لطريقه وتبين ذلك المقاصد القادمة

المقصد السادس

الاستعانة باللَّه نظامٌ تعبدي يُظهِر الافتقار لقوة القادر القهار ليعين على بناء الحياة وتحقيق النجاح وفق أنظمة العبادة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

المقصد السابع

(الصراط المستقيم) هو الطريق الوحيد لاتخاذ القرارات الصائبة في التعامل مع الحياة وإقامة النظام العبادي ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

المقصد الثامن

(الصراط المستقيم) الحقيقي هو الذي سار عليه المُنعَم عليهم من السابقين ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فهذا المقصد يبين طبيعة الصراط المستقيم، ويحميه من الاختراق الداخلي والخارجي؛ ويصل السابقين من المهاجرين والأنصار باللاحقين في عدم تغيير حقيقة الصراط

المقصد التاسع

حراسة الصراط المستقيم من الخطرين الاستراتيجيين على جانبي الصراط: خطر الوقوع في الغضب الإلهي، وخطر الضلالة المهلكة ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ لحماية الصراط عن اليمين والشمال من الاختراق الخارجي، والداخلي

المقصد العاشر

مبدأ الأمة الواحدة هو وسيلة أصحاب الصراط المستقيم لتحقيق النصر الجماعي، والحماية لأفراد الأمة، ونستنبط هذا من التعبير الجماعي المميز في قوله ﴿نَعْبُدُ، نَسْتَعِينُ، اهْدِنَا﴾، ومن الوصف الجماعي للمنعم عليهم والضالين

المقصد الأول

التعريف باسم الإله الحق الأول والآخر (اللّٰه)
والتعريف بأساس صفاته (الرحمة)

بسم الله الرحمن الرحيم

فآية البسملة تنير طريق البشرية بالبصائر الآتية:

المقصد الأول: (التعريف باسم الإله الحق الأول والآخر (الله) -جلَّ مجدُه-، والتعريف بأساس صفاته (الرحمة) ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ (الفاتحة: ١)

البصيرة الأولى

البسملة تُعَرِّفُ العالم باسم إلههم الحق الأول والآخر الذي ليس قبله شيء

البصيرة الثانية

البسملة مرسوم تقديمي يوضح أن الرحمة أساس الصفة الإلهية في التصور الإسلامي

البصيرة الثالثة

البسملة مقدمة لحقيقة التوحيد التي هي أعظم الحقائق الكونية

البصيرة الرابعة

البسملة أساس يكَمِّلُ الاستعاذة، ويثمر الحماية والرعاية في البدايات

البصيرة الخامسة

قوة التوحيد والتعبد الصادق من العبيد، (فإذا كانت الاستعانة بالاسم تحقق المطلوب، فكيف إذا كان الإنسان في كنف صاحب الاسم علام الغيوب؟)

البَصِيرَةُ الأُولَىٰ

البسملة تُعَرِّفُ العالم باسم إلِهِهم الحق الأوّل والآخر

أول خطوة تنير العقل الإنساني لفهم هذا الوجود أن يتعرف إلىٰ هذا الوجود.. ما حقيقته؟ ومن صنعه؟ وبذا يكون أول العلم الحقيقي التعرف إلىٰ الخالق الذي انبثق هذا الوجود عنه، ولذا قيل:

◉ **أول واجبٍ علىٰ الإنسان معرفة الإله باستيقان**[1]

هنا ترىٰ (الفاتحة) تبدأ بصورةٍ معجزة بتعريف العالَم بـ (خالقهم ومربيهم) -جلَّ مجدُه-، فاسمه ﴿ٱللَّهُ﴾.

فالمقصد الأول يُبين أن لك إلها له اسمٌ يختلف عن أسماء كل الآلهة التي تُعبد من دونه، فاسمه هو ﴿ٱللَّهُ﴾، وباسمه كانت (البداية العالمية الكونية)، فانبثق الكون، ووُجِدتِ الكائنات، وأُنزلت الآيات، وباسمه وُجِدتَ أنتَ..

تعالَ نتعرف علىٰ مكامن الجلال والجمال والكمال في هذا الاسم الأعظم الأجلِّ الأكرم المبارك؛ إذ تجده ورد في الآية الأولىٰ والثانية من (الفاتحة)، وتَكَرَّرَ في القرآن الكريم في (٢٧٠٧) موضعًا، منها ٩٨٠ مرةً في حالة الرفع، و٥٩٢ مرةً في حالة النصب، و١١٣٥ مرةً في حالة الجر.

ومما يبهرك في الاسم المبارك ﴿ٱللَّهُ﴾ أنه -عند بعض أهل العلم- يشير إلىٰ الدليل الحق علىٰ ألوهية الله ووحدانيته، وهذا بحدِّ ذاته أمرٌ مذهلٌ؛ وإن سألت: كيف ذلك؟

---

(١) كما يقول ابن رسلان في أول (زُبَدِه).

فالجواب: إن بحثنا عن اشتقاق كلمة ﴿ٱللَّهُ﴾ سنجد بعض العلماء يجعلها كلمةً مشتقةً من (إله) بمعنىٰ معبود، ثم دخلت عليه (الْ)، فصارت (الإله)، ثمَّ حُذِفتْ همزته لكثرة استعمال هذا اللَّفظ عند الدَّلالة عليه -تعالىٰ ذكره- كما حذفوا همزة الأناس فقالوا النَّاس، ويدلك علىٰ ذلك أنهم أظهروها في بعض الكلام، فقال البعيث بن حريث[1]:

معاذَ الإلَهِ أَنْ تَكونَ كظَبيةٍ ... ولا دُميةٍ، ولا عقيلةِ رَبْربِ
وَلكنهَا زَادَت علىٰ الْحسن كُله ... كمالًا، وَمن طيبٍ علىٰ كل طيب

وَبعد حذف الهمزة أُدْغِمَ اللامَانِ فصارت الكلمة ﴿ٱللَّهُ﴾، فلو جعلنا هذه الكلمة المعظمة مشتقة فهي دالةٌ علىٰ المعبود سبحانه، ولذا كان تعريف هذا الاسم الأعظم بعد أن صار علمًا يشير إلىٰ عَظَمة صاحبه سبحانه وتعالىٰ.

إنه كلامٌ حسنٌ كما ترىٰ.. ائذن لي أن أطلب منك أن تكرر النظر في جماله وحسنه؛ فهو ينطلق من أن كلمة ﴿ٱللَّهُ﴾ تعود إلىٰ كلمة (الإله) أي الإله الحق الذي لا يستحق أن يسمىٰ غيره بهذا الاسم، إلا أنني أدعوك لترىٰ رأيًا لعله يكون الأقوىٰ والأقوم هو رأي الإمام المسدَّد، والمصلح العالمي المجتهد الإمامِ محمد بن إدريس الشافعي (ت٢٠٤هـ).. ورأيه أن هذه الكلمة المعظمة ﴿ٱللَّهُ﴾ ليست إلا اسمَ عَلَمٍ لا اشتقاق له، يُنادَىٰ به الله سبحانه وتعالىٰ، (فالله) هو عَلَمُ الأعلام، وينطق باللاّم المفخَّمة ما لم تسبقه الكسرة أو الياء، ويذكر عادةً مقرونًا بألفاظ تدلّ علىٰ الإجلال مثل (سبحانه، تعالىٰ مجدُه، تعالىٰ ذكره..)، وهنا انبرىٰ عالم الدنيا في النحو سيبويه ليقرر أن هذه الكلمة المباركة تُشير إلىٰ أعرف المعارف كما قال الله -تعالىٰ ذكره-

---

(١) التحرير والتنوير(١/ ١٦٣)، والدمية: الصنم والصورة من العاج ونحوه المنقوشة بالجواهر، وعقيلة كل شيء: أكرمه، والربرب: القطيع من بقر الوحش: شبه محبوبته بالظبية، وبالدمية، وبالعقيلة في نفسه، ثم وجدها أحسن منها فرجع عن ذلك والتجأ إلىٰ اللّه أن يغفر له أن يشبهها بذلك كأنه أثم، أو المعنىٰ لا أشبهها بذلك وإن وقع من الشعراء.

﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥].. سبحانه لا سمي له، ولا مثيل، ولا نِدَّ، ولا نظير.. فهو الأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء..

ألا يجب علينا عند ذلك أن نستعيذ به في كل شيء، ونلجأ إليه في كل شيء؟.. عندما تتصور ذلك تشعر بتلذذنا ونحن نردد في عقولنا وقلوبنا وبألسنتنا قولَ النبي ﷺ في مناجاة الله –جلَّ في علاه–: «**اللَّهمَّ ربَّ السَّموات وربَّ الأرض وربَّ العرش العظيم، ربَّنا وربَّ كلِّ شيءٍ، فالق الحب والنَّوىٰ، ومنزل التَّوراة والإنجيل والفرقان أعوذ بك من شرِّ كلِّ شيءٍ أنت آخذٌ بناصيته. اللَّهمَّ أنت الأوَّل فليس قبلك شَيءٌ، وأنت الآخر فليس بعدك شيءٌ، وأنت الظَّاهر فليس فوقك شيءٌ، وأنت الباطن فليس دونك شيءٌ اقض عنَّا الدَّين وأغننا من الفقر**»(١).

ويترتب علىٰ ذلك الحقائق الآتية:

الحقيقة الأولىٰ: لا يجوز أن يتسمَّىٰ بهذا الاسم العظيم ﴿ٱللَّهُ﴾ أحدٌ، ولم يجرؤ أحدٌ علىٰ فعل ذلك بحمد الله، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ عَلَمٌ يوصف ولا يوصف به، وأسماء الله الحسنىٰ الأخرىٰ أسماءٌ تتضمن صفاتٍ تجري علىٰ هذا الاسم العظيم كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف:١٨٠].

الحقيقة الثانية: تُسْنَد إِلَىٰ هذا الاسم العظيم ﴿ٱللَّهُ﴾ أفعال بقية الأسماء، فيقال فيما يشتق من اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ مثلًا: رحم الله فلانًا، ويرحمه الله، واللهمَّ ارحم فلانًا، وتضاف إلىٰ هذا الاسم العظيم ﴿ٱللَّهُ﴾ مصادر الأسماء الأخرىٰ، فيقال: رحمة الله وربوبيَّته ومغفرته ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦].

(١) مسلم(٨/ ٧٨) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنهُ.

الحقيقة الثالثة: هذه الأسماء المشتقَّة (كالرحمن والغفار..) كلٌّ منها يدلُّ علىٰ ذات الله تعالىٰ، وعلىٰ الصِّفة الَّتي اشتقَّ منها معًا بالمطابقة، وعلىٰ الفعل الصادر عنها بالتضمن، فمثلًا: الرحمن يدل علىٰ ذات الله، وعلىٰ رحمته بالمطابقة لهذا الاسم العظيم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، ولكلٍّ منها لوازم يدلُّ عليها بالالتزام، كدلالة الرَّحمن علىٰ الإحسان والإنعام، ودلالة الحكيم علىٰ الإتقان والنِّظام(١).

◉ أثر ترديد الاسم الأعظم ﴿ٱللَّهُ﴾ علىٰ النفس:

إن مجرد نطقك بهذا الاسم الممجد ﴿ٱللَّهُ﴾ يجعل قلبك يمتلئ حبًّا وإجلالًا وتعظيمًا وارتياحًا، واطمئنانًا وأُنسًا وانشراحًا، ولذا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو عِنْدَ الْكَرْبِ: «لا إله إلَّا اللَّه العظيم الحليم، لا إلَهَ إلَّا اللَّه رَبُّ العرش العظيم، لا إلَه إلَّا اللَّه رَبُّ السَّموات وربُّ الأرض وربُّ العرش الكريم»(٢)، وكان ﷺ يعلم الرجال والنساء من أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كيف يتلذذون بذكر اسمه العظيم، فها هو يقول لأَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: « **أَلاَ أُعَلِّمُكِ كَلِمَاتٍ تَقُولِينَهُنَّ عِنْدَ الْكَرْبِ أَوْ فِي الْكَرْبِ اللَّهُ اللَّهُ رَبِّى لاَ أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»(٣).

دعك الآن -عمر اللهُ أيامك بالعبادة، وغمر قلبك بالسعادة- من أعباء الحياة حولك، وتأمل الأثر الذي يُحدثه ترطيب الأفواه وتحريك الشفاه بذكر اسم ﴿ٱللَّهُ﴾ علىٰ الهيئة التي علمها رسول الله ﷺ.. كم يُثير علىٰ القلوب من راحةٍ وفرحةٍ، وكم يزيل من غصةٍ وقُرحةٍ، ولَكَم تورق أغصان الفؤاد، وتُزهر أفنانه طربًا بقول ناصر الزهراني -بلَّغه مولاه الأماني-:

---

(١) تفسير المنار (١/ ٣٨).

(٢) البخاري (٨/ ٩٣) برقم٦٣٤٦.

(٣) أحمد٦/٣٦٩، برقم ٢٧١٢٧، أبو داود (١ / ٥٦١) برقم ١٥٢٧، وصححه الألباني، وحسنه الأرناؤوط.

﴿ٱللَّهُ﴾ يا أعذبَ الألفاظ في لغتي ... ويا أجلَّ حروفٍ في معانيها
﴿ٱللَّهُ﴾ يا أمتعَ الأسماء كم سعدت ... نفسي، وفاض سروري حين أرويها
﴿ٱللَّهُ﴾ أُنسي وبستاني وقافيتي ... ﴿ٱللَّهُ﴾ يا زينةَ الدنيا وما فيها
﴿ٱللَّهُ﴾ يرتاح قلبي حين أسمعها ... وحين أُبصرها نقشا وأُمليها
﴿ٱللَّهُ﴾ فيها إجاباتي وأسئلتي ... ومن معاني الرِّضا والْحُبِّ صافيها
﴿ٱللَّهُ﴾ فيها بياني، بسمتي، طربي ... مشاعري، حاضر البشرىٰ وماضيها
﴿ٱللَّهُ﴾ روحِي طموحي راحتِي سكنِي ... لا أجتني الأُنس إلَّا من مغانيها
﴿ٱللَّهُ﴾ شَهْدُ الهوىٰ والوُدّ، ليس لها ... في مهجة المتَّقي شيءٌ يساويها

◉ التعريف بالاسم الأجلِّ الأكرم لخالق الكون يكشف تحريفًا مفسدًا في الأرض:

فقد هرب المُحَرِّفة من أهل الكتاب من تسمية ربِّ العالمين بهذا الاسم العظيم ﴿ٱللَّهُ﴾، ولم يوجد له ذكرٌ في الكتب المقدسة عندهم في الطبعات المتأخرة مع أن كلَّ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- عندما دعوا أقوامهم إنما كانت رسالتهم: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ولا يمكن لنا أن نتخيل أن الأنبياء يدعون قومهم إلىٰ عبادة من لا اسم له، ولكنَّ المعتدين حرَّفوا الكلم عن مواضعه، ووضعوا كلامهم وخرافاتهم في مواقعه، وترتب علىٰ ذلك تزييف الوعي، وتغييب الحقائق الكبرىٰ.. هم لم يذكروا اسم ﴿ٱللَّهُ﴾ عَلَمًا علىٰ رب العالمين مع أنه الاسم الأعظم له -جلَّ في علاه-، واكتفىٰ النصارىٰ بالإشارة إليه بأنه (الآب)، واتخذ له اليهود أسماء أخرىٰ مثل: يهوه، وألوهيم، وإيل، والتحقيق أن اسم (ألوهيم) يرجع إلىٰ اسم ﴿ٱللَّهُ﴾ كما نصت علىٰ ذلك الموسوعة اليهودية، بل ورد فيها كلام يدل علىٰ أن الأصل في تسمية الرب في اليهودية هو الاسم بطريقة

التصويت العربية[١]،فدونك هذه الفائدة المهمة أيها الباحث عن الحق في ظلمات التلبيس (**اليهومسيحي**) ليظهر لك مقدار الجريمة التحريفية العلمية، وخلاصة الترجمة أن (ألوهيم): هو الأكثر شيوعًا من أسماء الله، وهو بصيغة الجمع ويعنىٰ به المفرد، وذلك من باب التعظيم، ونجد في الموسوعة اليهودية نفس الاسم في العربية ﴿ٱللَّهُ﴾، وكذلك نجده في الآرامية حيث أشار المصدر أنه ينطق (إله)، وعندي أن النطق الآرامي يحتمل أن يكون ﴿ٱللَّهُ﴾، وهو يوافق ما ذكرناه حول اشتقاق اسم ﴿ٱللَّهُ﴾، ولا أظنُّ إلا أنَّ التحريفَ المتعمَّدَ قد حدث كتمانًا للعلم لتتم عملية الإضلال العالمي في إدراك الوحدة المصدرية للإسلام الذي جاء به كافة الأنبياء.

---

(١) أفادني بهذا النص الباحث الألباني المتعدد المواهب (رزرت بيكا)-وفقه الله- ضمن عدة نصوص لم نرد الإطالة بإيرادها، والنص كما هو:

Elohim :The most common of the originally appellative names of God is Elohim (אלהים), plural in form though commonly construed with a singular verb or adjective. This is, most probably, to be explained as the plural of majesty or excellence, expressing high dignity or greatness… The singular, Eloah (אלוה), is comparatively rare, occurring only in poetry and late prose (in Job, 41 times). The same divine name is found in Arabic (ilah) and in Aramaic (elah)….The root-meaning of the word is unknown. The most probable theory is that it may be connected with the old Arabic verb "alih" (to be perplexed, afraid; to seek refuge because of fear). Eloah, Elohim, would, therefore, be "He who is the object of fear or reverence," or "He with whom one who is afraid takes refuge" (comp. the name "fear of Isaac" in Gen. xxxi. 42, 53; see also Isa. viii. 13; Ps. lxxvi. 12). The predominance of this name in the later writings, as compared with the more distinctively Hebrew national name Yhwh, may have been due to the broadening idea of God as the transcendent and universal Lord. J.D. Einsenstein "Names of God" in The Jewish Encyclopedia (New York: Funk and Wagnalls Company) 1909, p. 161

والمُحرِّفون لا يستخدمون اسم ﴿ٱللَّهُ﴾ إلا تزلفًا إلىٰ عامة المسلمين بغيةَ إضلالِـهم. وقد استخدموا في الإعلام لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ مع عدم وروده بهذا الاسم في كتابهم المقدس المتعارف عليه بطبعاته الحديثة.. لَكم حرموا أنفسهم من الخير العظيم.. ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤].

ومما يزيد هذه الآية المباركة (آية البسملة) إيضاحًا وجمالاً، ويُجَلِّي آلاءَها البصائرُ الآتية:

البصيرة الثانية

(البسملة) مرسوم تقديمي يوضح أن الرحمة أساس الصفات الإلهية في التصور الإسلامي

تأمَّل في البسملة لتجدها تتكرر في حياة المسلمين تكررًا فريدًا.. ألا ترىٰ أن البسملة تشبه الإعلان المتكرر علىٰ ألسنة المسلمين في حياتهم؟ بل هي مرسومٌ تقديمي بل إنها تُـمَثِّلُ رسالةً كونية للعالمين يتضح من خلالها أن جميعَ أفعال الله ترجع إلىٰ الرحمة؛ إذ تكررت البسملة في مقدمة كل سورةٍ من السور المائة والأربع عشرة، ما عدا سورة التوبة، وتعال لنتأمل ذلك في هذه الجملة:

فإذا نطق العبد كلمة ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ ربما تساءل القارئ والسامع باسم مَنْ؟ فيأتي عند ذلك التعريف به سبحانه..إنه﴿ٱللَّهُ﴾ ذو الجلال والإكرام، وهذا هو اسمه المبارك الأعظم -تعالىٰ ذكره-

فلما عَرَّفَنا نَفْسَه باسمه الأعظم ﴿ٱللَّهُ﴾ **ربما تتساءل بمنطقية: إذا كان ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ ربما تساءل القارئ بسم من؟**

هنا تأتي الإجابة في الآية نفسها بالتعريف بأساس صفاتِه -تعالىٰ عزه- وهي صفةُ الرحمة الشاملة لمقاصد الأمور ووسائلها، ومبادئها ونهاياتها، وأوائلها وأواخرها، وأحكامِها ونُظُمها، وهذا ما ظهر من آية الثناء الأولىٰ في الفاتحة المباركة ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، والصفات الإلهية العليا الأخرىٰ ترجع إلىٰ الصفات الأربع المذكورة في الفاتحة، وهي (الرحمة والربوبية والـمُلك والمالِكية).. ولكن أعظم صفاته وأساسها صفة الرحمة المتكررة في بدايات سور القرآن المجيد، ومما يبين جمال التَصَوُّر الإسلامي للرحمةَ أنها قرينةُ التوحيدِ، وأساسُ الخَلْقِ الكوني، وهدفُ وجوده؛ فالتوحيد يقترن بالرحمة لا بالانتقام والغضب.. يتكرر هذا المعنىٰ في مثاني الكتاب

المبارك، فيقول الله -تعالىٰ مجده-: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]، ومن الجميل الآسِرِ أن ترىٰ في البسملة أن الله -جل في علاه- لم يذكر من أسمائه الحسنىٰ في البسملة إلا اسمين يدلان علىٰ الرحمة هما: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ولم يقل: (بسم الله الملك)، ومع أنه قد ورد أن اسم الله الأعظم يتضمن ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[1] إلا أننا عند البسملة لا نقول (بسم الله الحي القيوم)، ولم يقل -جل في علاه-: بسم الله العزيز ذي الانتقام، مع أنه وصف نفسه بالقوة والإهلاك للظالمين فقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [الكهف:٥٩]، وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس:١٤،١٥].. وكما ترىٰ فعلىٰ الرغم من وصف قوته وإهلاكه لمفسدي العالَم إلا أنه لم يختر من أسمائه في الفاتحة إلا ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.. ومن جهةٍ أخرىٰ: فلماذا لم يَذْكُر الله بقية الأسماء الحسنىٰ الدالة علىٰ بقية الصفات، وذكر اسمين يرجعان إلىٰ معنىً واحدٍ هما ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾؟ ألا يدعو هذا إلىٰ التفكير؟

لا نجد حكمة واضحة في ذلك إلا الإخبار أن الرحمة هي الأصل في الفعل الإلهي لا الغضب، ولا الانتقام، ولا الثأر ولا التدمير، فصفاته سبحانه التي فيها ذِكْرُ الغضب، أو الانتقام، أو الإهلاك كلها ترجع إلىٰ الرحمة، فإذا ما ذُكِرَ الغضب فلأن الرحمة العامة بالكون تقتضي ذلك، أو يقتضيه القيام بالقسط، لا لأن الأصل هو الغضب.

ومن هنا ندرك أن هذين الاسمين العظيمين يدلان علىٰ أساس صفاته التي ترجع إليها بقية الأسماء، وهي صفة الرحمة، وذلك لأصليتها، بل إن الله -جلَّ في علاه- خلق الكون لإظهار رحمته، فلم يخلقه للعبث، ولا للعب، ولا للإيلام.. بل الرحمة

---

(١) ففي الترمذي(٥/ ٥١٧) وقال: "حسن صحيح" عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]، وفاتحة آل عمران: ﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾».

أصل صفاته كما هي أصل أفعاله كما قال تعالىٰ ذكره: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡ ﴾ [هـود:١١٩]، واسمع إلىٰ النص القاطع الذي يقرر ذلك، ولن تجد أقوىٰ النصوص العالمية يقدر علىٰ مضاهاته أو منافسته، حيث يقول الله تعالىٰ: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ ﴾ [الأنعام:١٢]، وهذا نصٌّ عظيم مجيدٌ مدهشٌ عند التأمل فيه، والتدبر لمعناه..

وإذا كانت الشريعة رحمةً كلها، فخذ أنموذجًا تذكيريًا من رحمته بالعالمين في الطبيعة من كلام علماء الطبيعة: الشمس التي هي مصدر كل حياة، تبلغ درجة حرارة مسطحها ١٢٠٠٠ درجة فهرنهايت، وكرتنا الأرضية بعيدة عنها إلىٰ حد يكفي لأن تمدنا هذه (النار الهائلة) بالدفء الكافي لا بأكثر منه. وتلك المسافة ثابتة بشكل عجيب، وكان تغيرها في خلال ملايين السنين من القلة، بحيث أمكن استمرار الحياة كما عرفناها، ولو أن درجة الحرارة علىٰ الكرة الارضية قد زادت بمعدل خمسين درجة في سنة واحدة، فإن كل نبتٍ يموت، ويموت معه الإنسان حرقا أو تجمدًا، والكرة الأرضية تجري مرتبطة بالشمس بمعدل ثمانية عشر ميلا في الثانية، ولو أن معدل دورانها كان مثلًا ستة أميال أو أربعين ميلا في الثانية، فإن بعدنا عن الشمس أو قربنا منها يكون بحيث يمتنع معه نوع حياتنا، والنجوم كما نعلم تختلف في الحجم، وأحدها يبلغ من الضخامة حدًا لو كان شمسنا لكان محور الكرة الأرضية داخلًا في سطحه لمسافة ملايين الأميال، والنجوم كذلك تختلف في طراز إشعاعها، وكثير من أشعتها يميت كل نوع معروف من أنواع الحياة، وتتروح كثافة هذا الإشعاع وحجمه بين ما هو أقل من إشعاع شمسنا وما هو أكثر منه عشرة آلاف مرة، ولو أن شمسنا أعطت نصف إشعاعها الحالي فقط، لكنا تجمدنا، ولو أنها زادتها بمقدار النصف، لأصبحنا رمادًا منذ زمن بعيد، هذا إذا كنا قد ولدنا بوصفنا شرارة بروتوبلازمية PROTOPLASMIC (خلية) للحياة. ومن ذلك نجد أن شمسنا هي الصالحة لحياتنا

من بين ملايين الشموس غير الصالحة لهذه الحياة[١].

انظر لهذه الرحمة الغامرة في جزئيةٍ حياتيةٍ محدودة، فكيف بك لو تحدثت عن الرحمة في العوالم المدهشة في العين والوجه والجهاز الهضمي، والجهاز التنفسي، وعالم القلب، وعالم السمع، والحس لرأيت عندها أن الرحمة تحيط بك علىٰ صورة لا يمكنك حصرها ولا إحصاؤها.. بل ستخلفك لا تستطيع نطقًا من دهشتك.. لعلك علمت بذلك معنىٰ المثل الذي ضربه النبي ﷺ لأمته في حديث عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قَدِمَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحَلَّبَ ثَدْيُهَا تَسْعىٰ، إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: «أترون هذه طارحةً ولدها في النَّار؟» قلنا: لا وهي تقدرُ علىٰ أن لا تطرحهُ. فقال: «اللَّه أَرحم بعباده من هذه بِولدها»[٢].

أفرأيت رحمة الأم برضيعها؟ أيوازيها عندك رحمةٌ لأيٍ كان؟ إنَّ رحمة الله أعظم من هذه الرحمة التي تشكل جُزْءًا من الكيان الأُمومي.. ولنا في قول أهل التوحيد الذين استشعروا أن الله يخاطب عبده الهارب:

تفرد عز وجهي بالبقاء ... فما أعددت لي يوم اللقاءِ
عبيدي أنا مولىٰ الموالي ... أما آن اللجوء إلىٰ حمائي
إلىٰ كم أنت تعرض عن جنابي ... وليس لديك من مولىٰ سوائي
أنا أرحم بالعبد من أخيه ... ومن أبويه أجزل للعطاء
فمن أنشاك من ماءٍ مهين ... وأنت في ظلمة الأحشاء نائي
ومن سواك في شكلٍ بديعٍ ... علىٰ كل الخلائق باستواء

---

(١) العلم يدعو للإيمان (ص: ٢٢).

(٢) البخاري(٨/ ٩).

أتذكر نطفةً أنشئت منها ... بأطوار القذارة والقذاء؟
فقلت لها علىٰ التخصيص كوني ... فكانت طوع أمري بالنداء
أتذكر حين كنت ببطن أمٍ؟ ... أما غذَّاك رزقي في الحشاء؟
وهل أحسست من حرجٍ وضيقٍ ... كما أحسست في سعة الفضاء؟
ومن هيا لجسمك من مضيقٍ ... ومن للأم يلطف في القضاء؟
ومن أجرىٰ اللِّبان بها غذاءً؟ ... ومن أولاك أنواع الغذاء؟

هل أحسست عظمة التصور الإسلامي للرحمة الإلهية؟

هنا تعلم أصالة الرحمة في صفات الله تعالىٰ وأفعاله.. انظر حواليك لترىٰ رحمة الله المبثوثة سواءً أكان ذلك في خَلْق الله تعالىٰ للطبيعة، أم فيما وضعه من تكاليف الشريعة، ففي التعرف إلىٰ صفات الله نجد أن صفاته ترجع إلىٰ (الرحمة والربوبية والملك والمالكية)، وكلها وردت في (الفاتحة) المباركة، إلا أنَّ الذي تكرر هو الرحمة، وها هو النبي ﷺ يُجَلِّي المسألة، فيذكر أن رحمة الله سبقت غضبه وغلبته؛ فالرحمة قبل الغضب في الوجود، وإذا غضب الله لأمرٍ يستدعي الغضب فإن صفة الرحمة تغلب صفة الغضب بعد الوجود، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إنَّ اللَّه لَمَّا قضىٰ الخلق كَتَبَ عندهُ فوق عرشه: إنَّ رحمتي سبقت غضبي»[1]، وفي رواية: «إنَّ رحمتي غلبت غضبِي»[2].

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٩]؟ ما لهم من ربهم يهربون، وإياه يحاربون؟.

(١) البخاري(٩/ ١٥٣).

(٢) البخاري(٤/ ١٢٩).

البَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ

البسملة مقدمة لحقيقة التوحيد التي هي أعظم الحقائق الكونية

بعد أن استبان لك أن البسملة تعرفنا إلىٰ اسم إله الكون ﴿ٱللَّهُ﴾، ودليل إلهيته الكامن في اسمه، سنرتقىٰ مرتقىٰ أعلىٰ لنجد أنها أيضًا تُقَدِّم لحقيقة أحديته، فإن قلت: فأين ذلك؟ فاقرأ معي ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، فكلتا الآيتين تشير إلىٰ التوحيد تعريفًا وبيانًا حيث بدأ باسم الله، وبيَّن ربوبيته للكون، ولكن التصريح التام بالواحدانية في الألوهية تجده في قولِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، فكانت البسملة تقدمةً بين يدي ذلك.

لقد اجتثت هذه الآيات جذورَ الشركِ والوثنيةِ التي تجتاح الأمم قديمًا وحديثًا، حيث بدأ تعالىٰ باسمه المبارك العظيم.. إنه يُعَلِّم العالم أنه صاحب السلطان الأعلىٰ.. ويرد بذلك علىٰ من يتخذون أولياء من دون الله، يعتقدون أنَّ لهم القوة والتصرف المطلق، ويخضعون لهم ظنًا منهم أن لهم شيئًا من السُّلطة الغيبيَّة المهيمنة علىٰ أحداث الكون، ويفصل الله ذلك بصورة عجيبة فيقول: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ [سبأ: ٢٢].

إنه -تبارك اسمه- يشفي القلوب المريضة، والعقول السقيمة التي تظن أن لأحدٍ من البشر تأثيرًا وتغييرًا في الأحداث الكونية، فيدعونهم مِنْ دون الله، ويستعان بهم في قضاء الحوائج، ودفع الجوائح..

ها هي (الفاتحة) ابتداءً من البسملة تبين بطلان ذلك، حيث تتوجه إليه -وحده لا

سواه- نفوسُ ذوي الحاجات طالبةً الحماية والهداية في هذه الحياة.

أبْحِرْ في البسملة لتجدها تغرس من المعاني التوحيدية المعنيين الآتيين عند النظر في فائدة الباء وكلمة اسم في قولك ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾:

المعنىٰ الأول: الإذن في القراءة مما يفيد الحِلِّية (إباحة القراءة):

فمعنىٰ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ أي: أقرأ آياته بعلمه، وإذنه، وتفويضه. فمن أنت أيها المخلوق لتتلو كلام المَلِكِ العظيم لولا أنه أَذِن لك بذلك، كقولهم: (أكلمك باسم الملك) أي بعلمه وإذنه وتفويضه، فباسمه تعالىٰ نبدأ تلاوة كلامه -جل في علاه- لا باسم غيره، فمعنىٰ أبتدئ عملي ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: أعمله بإذنه، ولا أعمله باسمي مستقلًّا به علىٰ أنَّني فلانٌ.

و(بسم الله) تفيد أن ما بعدها حلالٌ بحسبه، كالتسمية علىٰ النسك تُحِلُّ أكله ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنعام:١١٨]، ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ [الأنعام:١١٩] فمعنىٰ البسملة: أقرأُ باسم الله تعالىٰ طالبًا ملابسة بركة هذا الاسم المبارك.

المعنىٰ الثاني: استمداد القوة والبركة والرعاية والحماية:

فحين تبدأ من كلمة ﴿بِسۡمِ﴾ ترىٰ فيها قصة البداية للأفعال والتحركات، بل انطلاق الحياة الكونية للمخلوقات، فتفهم منها أن الحياة وجدت ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾، وانطلاق بناء الكون المنظور كقراءة الكتاب المسطور باسمه-تعالىٰ عِزُّه-، فكيف يكون هو الموجد للحياة ويعبد بعض الأحياء غيرَه؟

وبعد مقام بداية الحياة يأتي مقام الاستعانة به، ونفهمه من الباء في كلمة ﴿بِسۡمِ﴾ حيث تدل أيضًا علىٰ الاستعانة باسم الملك القدير علىٰ كل شيءٍ من القراءة إلىٰ

الحركة وسائر شؤون الحياة. ومن ذلك الاستعانة علىٰ معرفة هذا الكون الغامض من حولنا، فإذا كانت الحياة قد انطلقت باسمه مستعينةً به وجب أن يكون له الإخلاص في القول والعمل، فَإذا قلت ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ فكأنّك تقول: إنَّ هذا العمل لِلَّه، وبالله[١]، وإن كان نفعه عائدًا لي.

فمن منحك القدرة الَّتِي بسملتَ بها، وقرأت بها، ومنعها غيرك؟ إنه الله تَعَالَىٰ، فلولا أن الله منحك القدرة علىٰ الطعام أو علىٰ الكلام لما استطعت شيئًا، وقد بين النبي ﷺ ذلك لبعض أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فعن أبي تميمة الهجيمي عمن كان رديف النبي ﷺ قال: كنت رديفه علىٰ حمار فعثر الحمار فقلت: تعس الشيطان. فقال لي النبي ﷺ: «لا تقل تعس الشيطان؛ فإنك إذا قلت: تعس الشيطان تعاظم الشيطان في نفسه، وقال: صرعته بقوتي، فإذا قلت: بسم الله تصاغرت إليه نفسه حتىٰ يكونَ أصغرَ من ذباب»[٢]، فلا تنشغل بسب عدوك، وإنما انشغل باستمداد العون من إلهك.

وفوق ذلك تظهر البركة من خلال هذه الأسماء الثلاثة (الله الرحمن الرحيم)، والبركة هي الخير الكثير، والعطاء الجزيل العظيم الكبير لارتباط تلاوتنا باسمه -تعالىٰ مجده-.

وبعد القدرة التي أنشأت بها الفعل تبقىٰ رعاية هذا الفعل وحمايته ليستمر إلىٰ نهايته ويستكمل أهدافه، فإن بدأت بالكلام أو بالطعام فمن ذا يكفل لك الاستمرار؟ ومن ذا -يا أخاه- يضمن لك بدلًا من الفصاحة ألا تهذي في الكلام؟ من ذا يعطيك العهد ألا تختنق بالطعام؟ إنه الله الملك العلام السلام، ولذا تبسمل طلبًا للرعاية

---

(١) انظر: تفسير المنار(١/ ٣٦).

(٢) أحمد(٥/ ٥٩)، والحاكم(٤/ ٣٢٤)، وصححه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١٠/ ١٨٦): "رواه أحمد بأسانيد ورجالها كلها رجال الصحيح".

والحماية والبركة والعناية كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود:٤١]. فاطلب بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الرعاية في اليقظة والمنام، وفي الصمت والكلام، فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ في دعاء النوم: «باسمك ربِّي وضعت جنبِي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصَّالحين»(١).

وبذا تظهر قوة البسملة وعَظَمتُها في المعاني المغيِّرة للحياة، ومن خلال البسملة يكون الردُّ علىٰ المشركين والـمُثَلِّثة الذين قَالُوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣]، فجمع الله في البسملة بين اسمه العظيم ﴿ٱللَّهُ﴾ وبين وصفه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ووصفه ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ للرد علىٰ الضالين من النَّصارىٰ الذين كانوا يبتدئون أدعيتهم ونحوها باسم الأب، والابن، والرُّوح القدس، إشارةً إلىٰ الأقانيم الثَّلاثة عندهم، فجاءت فاتحة كتاب الإسلام بالردِّ عليهم تنبههم بأنَّ الإله الواحد -وإن تعدَّدت أسماؤه- فإنَّما ذلك تعدُّد الأوصاف دون تعدُّد المسمَّيات(٢).

---

(١) البخاري (٨/ ٨٧) و مسلم (٨/ ٧٩).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٥١).

البَصِيرَةُ الرَّابِعَةُ

(البسملة) أساسٌ يكَمِّلُ الاستعاذة، ويثمر الحماية والرعاية في البدايات

الآن تأمل في هاتين الجملتين البديعتين: الاستعاذة والبسملة لتكتشف لذة تتابعهما، فالعلاقة بينهما تكامليةٌ رائعةٌ تُبَيِّنُ لذة العبودية، وجمالَ اللجوءِ إلىٰ الله تعالىٰ، والأُنْسَ في حمىٰ الربوبية؛ فجعل الله البسملة تتميمًا للاستعاذة نُرَدِّدُها في كل أمرٍ نستقبله:

فإن كانت الاستعاذة اعتذارًا أمام الله -سبحانه وتعالىٰ- بأنك ضعيف القوة، لا تستطيع أن تنجو من الشيطان الرجيم إلا إذا استعذت بالرحمن الرحيم، فإن البسملةَ مَدْحٌ لطلب التودد إلىٰ الرحمن، فهي ترديدٌ للصفات الشريفة العُلَىٰ لبيان صدق الحب، وطلب القرب، واستعانةٌ به سبحانه ليُمِدَّكَ بالقوةِ والسلاحِ الذي تواجه به عدو البشرية، وهذا يعني أن الاستعاذة تدل علىٰ أجمل الفِرار، وعلىٰ التخلي عن الشوائب والسيئات والأضرار والأوضار[(١)]، حيث ترىٰ جملة (أَعُوذُ بِاللَّهِ) تشير إلىٰ نفي السيء من العقائد والأعمال مما أحرق به الشيطان البشرية، أما البسملة فهي اعتزازٌ بالواحد القهار، فهي إثباتٌ للعقائد والأعمال الصحيحة السوية، فالاستعاذة تخلية، والبسملة تحلية، كما الاستغفار والتسبيح، فإذا كانت الاستعاذةُ تتم بها الحماية والتحصن والأمن من الأعداء، فإن البسملةَ تتم بها الرعاية والعناية والنماء، والتمتع بالسراء، وتأمل لترىٰ أن ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ذِكْرٌ يتكون من أربع كلماتٍ، وتسعة عشر حرفًا:

---

(١) الأوضار: الأوساخ كوسخ الدَّسَم.

وهذا يعدل مائةً وتسعين حسنةً، كما يساوي عدد زبانية النار سواء أكان العدد عدد نقباء الملائكة أم صفوفهم القائمة علىٰ جهنم، فعسىٰ الله -تعالىٰ ذكره- أن يقي من بأسهم بهذه الحروف التِّسعة عشر.

وكلمة (بسمل) (نحتٌ) من قولهم ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، كما قال عمر بن أبي ربيعة:

لقد بسملت ليلىٰ غداة لقيتُها   فيا حبذا ذاك الحبيبُ المبسملُ

كما أُخذ الفعل (حَوقَل) من (لا حول ولا قوة إلا بالله)، و(سَبْحَلَ) من ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾.

والبسملة علامةٌ علىٰ بدايات السُّوَر، وبدايات الأعمال:

فقد ذكر ذلك -ترجمان القرآن، وحَبْرُ الزمان- عبد الله ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فقال: كان النبي ﷺ لا يعرف فصل السورة حتىٰ تنزل عليه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[1]، وكونها علامةً علىٰ بدايات السور إلا سورة التوبة أمرٌ مُتَّفَقٌ عليه، ومن ذلك أخذ بعض المحققين مشروعية الاقتداء بالقرآن في افتتاح معظم الأعمال بالبسملة، فالقرآن إمامنا وقدوتنا، وافتتاحه بهذه الكلمة إرشادٌ لنا بأن نفتتح أعمالنا بها[2]، وهي جزءٌ من آيةٍ من القرآن الكريم في سورة النمل في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠]، فقد بدأ سليمان عليه السلام حديثه بها، أفلا نبدأ أفعالنا وأحاديثنا بها؟.

---

(١) أبو داود(١/ ٢٦٩)، وصححه المناوي في التيسير في شرح الجامع الصغير.

(٢) تفسير المنار(١/ ٣٤)، وقد أخذ النووي في شرحه علىٰ مسلم(١٢/ ١٠٧) من تصدير كتاب النبي ﷺ إلىٰ هرقل بالبسملة: "استحباب تصدير الكتاب ببسم الله الرحمن الرحيم، وإن كان المبعوث إليه كافرا"، وترىٰ أنني احترزت بقولي (معظم الأعمال) إشارة إلىٰ بعض الأعمال التي يبتدأ فيها بغير البسملة مثل خطبة الجمعة التي يبدأ فيها بالحمدلة.

واختلف أهل العلم في كونها من القرآن أو لا عند البدء بالسور، علىٰ أننا نختار أنها من الفاتحة تبعًا للمصحف المكي والمصحف الكوفي، ولما جاء عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّه ﷺ قال: «إذا قرأتم فاتحة الكتاب فاقرءوا: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ فإنَّها أمُّ القرآن والسبع المثاني، و﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إحدىٰ آياتها»[(١)]، وقد اتفقت أهل العلم علىٰ صحة الصلاة بها، واختلفوا في بطلانها بتركها.

ويحضرني هنا نظمٌ جامعٌ تلقيته من شيخنا أحمد البيلي المالكي[(٢)] -متع الله به- نظمه يُعاتب إمامًا مالكيًا تعجل في قراءته في المغرب بصورة لم يأت فيها بالبسملة سرًّا ولا جهرًا:

أمن قام يتلو في الصلاة مبسملاً يعاتب! لا يا صاح يؤجر في قولي
ولكن بعضًا لا يرىٰ الأمر هكذا ويزعم أن الترك خير من الفعل
وحسبي من القرآن نقل ومنطقٌ هما حُجَّتي في كل معترك عقلي
ألا إن بسم الله بعضٌ لآيةٍ وذلك نصٌّ جاء في سورة النمل
فما أنت مسطيع جحود نزولها أتحذف في التنزيل نصًا؟ أجب سؤلي
بها صدر الرحمن وحيًا كتابه فصدر بها أم الكتاب بلا عذل

ونقل ابن حجر عن الطيبي تقريره لمشروعية البسملة عند كل قراءة فقال: «وقوله:

(١) رواه الدارقطني(٢/ ٨٦)، والبيهقي(٢/ ٤٣٦)، وصححه ابن الملقن في (البدر المنير)(١/ ١١٩)، وذكر ابن حجر في (التلخيص الحبير)(١/ ٥٧٢) أنه موقوف في حكم المرفوع، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم٧٢٩، وله كلام طويل في تخريج الحديث والحكم عليه في أصل صفة صلاة النبي ﷺ ص٢٨٦، إلا أن جعل حكم الرفع شاملًا للبسملة مما نظَّر عليه فضيلة الشيخ المحقق المتقن عبد الله يوسف الجديع مع اطمئنانه إلىٰ أن البسملة من الفاتحة.. وقد ذكر لي ذلك في رسائله الصوتية القيمة التي ذكر فيها ملحوظاته حول هذا الكتاب قبل طبعه.

(٢) هو رئيس علماء السودان، وقد نظمها في ٢١ذو الحجة١٣٨٩هـ- ٢٩يناير١٩٧٠م، وأخذتها منه مشافهة في حديقة داره العامرة بالعلم.

﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [العلق:١] أمرٌ بإيجاد القراءة مطلقًا، وقوله ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق:١] حالٌ، أي اقرأ مفتتحًا باسم ربك، وأصحُّ تقاديره قل ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ ثم اقرأ، فيؤخذ منه أن البسملة مأمورٌ بها في ابتداء كل قراءة»(١).

والبسملة -ذلك الذكر العذب- تصحب أنفاسك في القراءة حتىٰ لو لم تقرأ من أول السورة؛ والتقدير (بسم الله أقرأ أو أتحرك)، ولكن الله -جلَّ مجده- قدَّم الفعل علىٰ الباء ومجرورها في قوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق:١] لكون الأمر بالقراءة أهم بالنسبة لأمة أمية تنشد تعليم الأمم سبل البناء الحضاري العادل الراقي من أوجهه الصحيحة كما قرر السيوطي ذلك في قوله:

وَقد يُفيدُ فِي الجمِيعِ الِاهْتِمَامْ ... بِهِ ومن ثَمَّ الصَّوابُ فِي المقَامْ
تقْديمُهُ فِي سُورةِ اقْرا، فَهُنَا ... كَان القِراءةُ الأَهَمَّ الـمُعتَنىٰ
مُؤَخَّرًا، فَإِن يَرِدْ بسَبَبِهْ ... تَقْدِيرُ مَا عُلِّقَ بِاسْمِ اللهِ بِهْ

---

(١) فتح الباري لابن حجر(٨/ ٧١٩).

البَصِيرَةُ الخَامِسَةُ

قوة التوحيد والتعبد الصادق من العبيد

(فإذا كانت الاستعانة بالاسم تحقق المطلوب، فكيف إذا كان الإنسان في كنف صاحب الاسم علامِ الغيوب)

هذه البصيرة مبنيةٌ علىٰ أساس الفرق بين ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ و﴿ٱللَّهُ﴾[١]:

فـ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ مقام تيمنٍ، وانتسابٍ في العبودية إلىٰ الله، واعتزازٍ به، واستعانةٍ، وطلبٍ للبركة التي هي الخير المتكاثر، بينما ﴿بِٱللَّهِ﴾ مقام استعانةٍ، أو قَسَمٍ فقط، فعندما نقول: ﴿بِٱللَّهِ﴾ ربما التبس ذلك بـ (أُقسم بالله)، أما قائل البسملة فيستعين باسمه -تعالىٰ- علىٰ قضاء مطلوبة أيًّا كان هذا المطلوب، سواء أكان مطلوبة عند قوله ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ قراءةً أم حركةً أم أكلًا أم انتصارًا أم غير ذلك، فإذا كانت الاستعانة بالاسم لها هذا التأثير فكيف بقدرة صاحب الاسم القوي القدير؟!.. وأنت ترىٰ أن كلمة ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ تعني بكل اسمٍ لله؛ لأن إضافة المفرد إلىٰ المعرفة تثمر العموم، فكأنك سميت بكل اسمٍ لله لطلب قضاء حاجتك.

ومن الإعانة العظيمة إعانتُنا -ونحن البشر الضعفاء- علىٰ قراءة كتاب رب الأرض والسماء.. فتأمل الآن معي قول النبي ﷺ معترفًا بعجزه عما لم يتعلمه: «ما أنا بقارئ»، وعند ذاك علَّم الله تعالىٰ نبيه ﷺ التلاوة فقال له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق:١] أي: اقرأ مع أنك الأمي مستعينًا باسم ربك العظيم؛ حيث سيُلهمُك القراءة، ويُوفقُك

(١) الكلام في هذه البصيرة أخذ منحىً بعيدًا عن الناحية الفلسفية التي يذكرها أهل العلم -رحمهم الله تعالىٰ- في العلاقة بين الاسم والمسمىٰ، فالمقصود أن البسملة تعلقت بالاسم لا بصاحبه -جل في علاه- لفظًا، ولا بد أن يكون لذلك مدلولٌ ما، علىٰ أنه معلوم أن ذكر الاسم يعني اللجوء إلىٰ صاحبه قطعًا.

لها، ويعينُك عليها، وكذلك القارئ الذي يستشعر الخوفَ من عدم إحسان القراءة، والتباس الفهم، ويقلق من خذلان التوفيق، وعندها يستعين باسم الله تعالىٰ من خلال ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

فالبدء بـ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ منطلق المسلم في الأحداث العامة والخاصة، ويعكس مدىٰ تمجيده لله، كما يدل علىٰ توحيده الذي فيه سكينته ورِيَّاه، وقد علَّمَ النبي ﷺ أمته أن تكون استعاذتهم واستعانتهم باسم الله كثيرًا، فعن أبان بن عثمان قال: سمعت عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم. ثلاثَ مرات لم يُضَرَّ بشيء»، فكان أبان قد أصابه الفالج، فجعل الرجل ينظر إليه، فقال له أبان: ما تنظر؟ أما إن الحديث كما حدثتك، ولكني لم أقله يومئذ ليُمْضيَ اللهَ عليَّ قدَره»(١).

فاللهم إنا نسألك باسمك وبكلماتك التامة من خير ما تُسألُ، ومن خير ما تُعطي، ومن خير ما تُبدي، ومن خير ما تُخفي.

ونعوذ باسمك وبكلماتك التامة من شرِّ ما تجلىٰ به النهار، ومن شرِّ ما دجىٰ به الليل.

ويطربني في هذا المقام، أبياتٌ تحدونا إلىٰ دار السلام، للشاعرعبد الرحمن العديني -كان الله له-:

كيف أشقىٰ؟! وقد أنرتَ سبيلي وشرحتَ الفؤاد بالتنزيلِ
كيف أشقىٰ؟! وأنت مني قريبٌ تتجلىٰ بِبِرِّكَ الموصولِ

---

(١) الترمذي (٥ / ٤٦٥)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح غريب"، وروىٰ أصله أحمد(١/ ٦٢)، والفالج: شلل يصيب طرفًا من الإنسان.

كيف أشقىٰ؟! وأنت مالكُ أمري أنت حسبي وراحمي ووكيلي
كيف أشقىٰ؟! وقد رحمتَ لجوئي ورميتَ العدو بالتخذيلِ
كيف أشقىٰ؟! ومهجتي في هناءٍ أنت يا رب مؤنسي وخليلي

المقصد الثاني

التعريف بالعالم (الوجود الكوني)، وأنه دليلٌ على أن الله هو الإله الحق ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

تكونت هذه الآية المباركة من قسمين:

الأول ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ، والثاني: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وبدأت الآية بالنتيجة وانتقلت إلىٰ السبب: فالسبب في حمد العباد أنه الله رب العالمين، فهو خالقهم ومربيهم، وهو بذا يستحق الحمد، فالحمد نتيجة لكونه رب العالمين.. وإنما بدأت الآية بالنتيجة وهي ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ لأنها الأمر النافع للعباد المطلوب منهم لأجل مصلحتهم؛ فإن نفع (الحمدلة) يرجع عليهم نفسياً ومادياً، ولأمر آخر هو أن الحمدلة في موقعها المنطقي بين وصف الله بأنه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في الآية الأولىٰ، فتحمد الله علىٰ كماله الذاتي، وبين وصف بأنه ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في الآية الثانية فتقدم الحمدلة لتحصل علىٰ الإحسان المتعدي.. إلا أنك خبيرٌ بأن تربيته لك لم تتوقف علىٰ أن تحمده، فالله يربيك قبل أن تحمده -جلَّ في علاه-.

وبذا أطلب أن تسمح لي أن أبدأ بالسبب لأصل إلىٰ النتيجة بخلاف ترتيب الآية اتباعاً للترتيب العقلي الإيضاحي.. وإلا فالترتيب من حيث الأهمية للمصلحة البشرية هو ما جاء في ترتيب الآية.

وينبثق عن هذين القسمين (النتيجة: الحمد لله، والسبب: رب العالمين) معرفتنا بحقوق الله الملك الحقِّ المبين -جلَّ مجده- وبحقوق الخلق.

فنستنبط من هذه الآية المباركة بصائر قرآنية كلية متعددة، وفي ضوئها، وعلىٰ أنوار هديها نفهم الآيات القرآنية الواردة في السور الأخرىٰ.

فمن البصائر الكُلِّية المستنبطةِ من هذه الآية:

المقصد الثاني: التعريف بالعالم (الوجود الكوني)، وأنه دليلٌ على أن الله هو الإله الحق ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]

البصيرة الأولى

﴿رَبّ الْعَالَمِينَ﴾ اسم يبين حق الربوبية لله، وبراهين هذا الحق.

البصيرة الثانية

﴿رَبّ الْعَالَمِينَ﴾ اسم يبين حقوق الخلق، وتتخلص في الإنعام المقترن بالتربية.

البصيرة الثالثة

﴿رَبّ الْعَالَمِينَ﴾ دليلٌ أن الله ليس كمثل شيئ فهو ربُّ الخلق أجمعين.

البصيرة الرابعة

﴿رَبّ الْعَالَمِينَ﴾ يُرَبِّي تربية كاملة تضعف عندها تربية نظم البشرية الآفلة.

البصيرة الخامسة

﴿رَبّ الْعَالَمِينَ﴾ معراج الوصول إلى الله، ومرقاة السعادة والسكينة.

البصيرة السادسة

﴿رَبّ الْعَالَمِينَ﴾ أجمل ما تتزين به الأفواه، ويردده القانت الأواه.

البصيرة الأولى

﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ اسم يبين حق الربوبية لله، وبراهين هذا الحق

المناسبة والاتصال:

هذه الآية تصف لك الدليل الواضح الواسع علىٰ استحقاق الله لأن يكون الإله الحق.. أرأيت كيف عرَّف الله بنفسه -تعالىٰ ذكره- في البسملة؟ ألم تجد في البسملة تعريفَه بأعظم صفاته؟، وهنا ربما تساءلت عن الدليل علىٰ استحقاق الله لأن يكون الإله الحق الأول والآخر.. لأنه ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ولذا استحق الحمد ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.. وهذه الآية تصف لك ملك الله الدنيوي، وواقع الخلق الكوني بأخصر الألفاظ.. وترىٰ جمال الانتقال المنطقي من تعريف الله بنفسه والتعريف بأساس صفاته في (البسملة) إلىٰ تعريف العالَم بأنفسهم وكونهم، فكانت هذه الآية المباركة، فالوجود الكوني قائمٌ علىٰ التربية الإلهية المقترنة بالرحمة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ .

وثَمَّ ملمحٌ آخر في الصلة بين هذه الآية وما قبلها، فبعد أن عرفتَ في البسملة أن أعظم حقائق الكون هي حقيقة التعرف إلىٰ الله الذي أعظم صفاته صفة الرحمة، فجاءت في هذه الآية أعظم تجليات تلك الرحمة:

خلق (العالَم)، وإصلاحه شيئًا فشيئًا، وهذا معنىٰ أنه رب العالمين..

أفلا ترىٰ أنه بذلك يكون أهلًا لأن يُشْكَر -جلَّ مجده-.. عندها ربما تساءلتَ: فكيف يمكن أن نشكرَهُ؟ هنا يأتيك الجواب بلا تأخر ولا اضطراب ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾إنها جملة تعبر عن شكره -جلَّ ثناؤه-، وكيف لا يحمدونه والكون كله يقوم علىٰ التربية الإلهية المقترنة بالرحمة؟

فالله (رب العالمين)، وكلمة (رب) تبني المعنىٰ المجيد لتوحيد (الربوبية) حيث خلق الكون، ثم تعاهده بتربيته، وصبغه بأحسن صبغة في الأمور الطبيعية، والتكاليف الشرعية، التي تُـمَثِّل أفضل القوانين التدبيرية(١) له لتنسجم أجزاؤه، وتتناسق مخلوقاته، فقد جعل أنظمة الشريعة متناغمةً منسجمةً مع مخلوقات الطبيعة. وهذا يعني أن قيادة (الطبيعة) في الكون بغير الأنظمة الشرعية يؤدي إلىٰ الظلم العالمي المجرم الذي نشاهده في الواقع، وبذلك نعرف جواب سؤال: (من أين جئنا)، ويعرف العباد ربهم، ويدركون أدلةَ توحيده وكيفية تمجيده.

كما تظهر المناسبة الرائعة والاتصال المحكم الحكيم بين قسمي الآية ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ و﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، إذا قال العبد الذي تعرف إلىٰ الله واقتنع بعظمته دون النظر إلىٰ دليلٍ يدله عليه سواه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فعند ذلك ربما سأله سائل من الذين لم يقع في قلوبهم حُبُّ الله أو معرفتُه جهلًا أو عنادًا:

لماذا نحمده؟ ألمُجَرِّد أنه (الله)؟ فما دليل ألوهيته ووحدانيته؟ ما الذي ميزه عن الآلهة المدعاة (كاللات والعزىٰ وفرعون والمادة)، فكما أن له اسمًا فلغيره من الآلهة المدعاة أسماء؟ فلماذا هو وحده يستحق الحمد؟ وقد يقال: نحمده لأنه الرحمن الرحيم، فيراجعه الآخر، ويقول: الرحمن الرحيم صفتان ذاتيتان، فأين فعله في واقع الحياة حتىٰ يظهر ضلال من يشرك مع الله تلك الآلهة الـمزيفة؟.

فيأتيه الجواب: أحمده لأنه رَبّ الْعَالَمِينَ الذي باسمه انطلقت الحياة، فتضمَّن هذا الاسم (رب العالمين) أساس البراهين علىٰ صدق الربوبية، وخرافة الشرك والإلحاد، فأعظم أدلةِ ألوهيته ووحدانيته واستحقاقه الحمد أنه ربُّ العالمين أي

(١) هنا يمكن أن نشير للمفسدين في الأرض من أتباع الحركة التدبيرية التي تزعم أن إلهها أو ملكها المنتظر لا بد أن يُدبر له أمر رجوعه إلىٰ الأرض من خلال شعبه المقدس!!!.. يراجع كتاب: النبوة والسياسة لجريس هالسيل.

مُرَبي الكون، وكل ما ذُكِر من أدلة ربوبيته في القرآن الكريم فهو تفصيلٌ لهذا الدليل، كالأدلة التي ساقها إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- علىٰ النمرود.

كلمة (العالمين) تضرب الإلحاد في الصميم: إنها تُمَثِّل العدد الهائل المدهش الذي يشكل كل جزء فيه دليلًا مبهرًا علىٰ الوجود الإلهي:

انظر -بعين التفكير العقلي، والنظر التأملي غير المتعصب- إلىٰ هذا الإشراق الغامر:

هذا الاسم المبارك (رب العالمين) يُعرِّفك بالله من خلال مخلوقاته، بعد أن عرَّفك الله نفسه باسمه وبأعظم صفاته في البسملة والحمدلة، فمخلوقاته هم (العالَمون)، وهم عبارةٌ عن كلِّ موجودٍ سوىٰ اللَّه تَعَالَىٰ، والله -جل مجده- ربهم، فالألف واللام لاستغراق الأجناس.. و﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ جمع عالَم، والعالَم: جمعٌ لا واحدَ له من لفظه، وهو اسمٌ لأصناف الأمم، وكل صنفٍ منها عالَمٌ، وأهل كلِّ قَرْنٍ من كل صنف منها عالم ذلك القرن وذلك الزمان، فالإنس عالَم، وكل أهل زمان منهم عالمُ ذلك الزمان، والجنُّ عالم، وكذلك سائر أجناس الخلق، كلّ جنسٍ منها عالَمُ زمانه، وهذه بعض العوالم المنظورة أو المعروفة، فكم يوجد من عوالمَ إذن؟ فإذا أضفت إليها غير المعروفة فكم تصبح؟

وهنا تدرك عمق الإقناع الذي أوتيه موسىٰ -عليه وعلىٰ نبينا أفضل الصلاة والسلام- عندما بيَّن من رب العالمين، فقد فصَّل بعض كبار المخلوقات التي تدخل في العالمين مما حكاه الله في قوله -تعالىٰ مجده-: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣ - ٢٨].

والمعنىٰ المباشر لذلك أن كل فردٍ في العالمين دليلٌ علىٰ ربوبيته وإلهيته،

فالعالمون -كما يقول التفتازانيّ فِي «حاشية الْكَشَّافِ»-: اسمٌ «لِكلِّ جنسٍ يُعلَمُ به الخالقُ»(١)، فالعالم علامة علىٰ الخالق -جلَّ في علاه-.

فاعجب من قوة هذا المعنىٰ! إن كلَّ ذرةٍ مخلوقةٍ في الكون دليلٌ قائم بذاته علىٰ الله تعالىٰ.. وليظهر لك ذلك تعال معي في رحلةٍ قصيرة في هذه القصة المثيرة:

إنها قصة عالَم كاملٍ مذهلٍ يختبئ في جزء غير منظورٍ في جسم الإنسان.. إنها قصة عالَم الشريط النووي الوراثي (DNA).. ولتتخيل ذلك خذ المعلومات الأولية الآتية:

يتكوّن جسم الإنسان من ١٠٠ تريليون خلية حية تقريبًا، والتريليون يساوي مليون مليون.. كل منها تحتوي علىٰ نواة تتحكم بالخلية، ومركز تحكم النواة عبارة عن٤٦ كرموسوم، يتكون كلّ منها من شريطين مَجْدُولَين من المركبات الكيميائيّة.. يسميان «الحمض النووي الوراثي» DNA.

تأمل المفاجأة المدهشة لو تمّ فرد هذه الشرائط للخلية الواحدة لبلغت مترين.. لو تمَّ فرد شرائط DNA الموجودة في كلّ خلية من خلايا إنسان واحد فقط وتوصيلها معا، لصارت كافية للتوصيل بين الأرض والشمس ١٣٣ مرة، علما بأن المسافة بينهما تساوي ١٤٧,٦ مليون كيلومتر تقريبًا!

هذا التصميم الذي يأخذ الأنفاس أخذ أنفاس أحد أشهر الملحدين المعاصرين هو «أنتوني فلو» بروفيسور الفلسفة البريطاني الذي كان من أشهر المدافعين عن الإلحاد أكثر من نصفِ قرنٍ تقريبًا، إذ بدأ يكتب مؤصلًا للإلحاد مُنذ عام ١٩٥٠م، ففكر وقدَّر ثم قرر أمرًا يحارب فيه الفطرة الضرورية الموجودة في كل إنسان بوجود

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٦٨.

الإله.. لقد قرر أنَّ الإلحاد يجب أن يكون هو الموقف الافتراضي للإنسان، وليس الإيمان! وأنَّ الذي يدَّعي وجود إله عليه أن يأتي بالبيِّنة!

المدهش أن بحثه الصادق قاده إلىٰ الحقيقة التي لا ينكرها إلا المعاند.. لقد قادته أبحاثه إلىٰ الإيمان بوجود إلهٍ في عام ٢٠٠٤م، حيث بلغ عمره ٨١ عامًا، وفي عام ٢٠٠٧م كتب كتابه المحطم للإلحاد وسط دهشة الملحدين: هناك إله (كيف غير أشهر ملحدٍ رأيه).

There is a God (How the World's Most Notorious Atheist Changed His Mind)

وكان من أهم عوامل هذا التغير مبدأ (العالمين) الذي يشير دون تردد إلىٰ ضرورة وجود ربٍّ لهم، فقد راعه هذا التصميم الذكري المدهش لجزء صغير غير مرئي في كل فردٍ من العالمين هو الشريط النووي الوراثي المسمىٰ (DNA)، ومن أقواله: «لقد أثبتت أبحاث علماء الأحياء في مجال الحمض النووي الوراثي: ومع التعقيدات شبه المستحيلة المتعلقة بالترتيبات اللازمة لإيجاد (الحياة): أثبتت أنه لابد حتمًا من وجود قوةٍ خارقةٍ وراءها»، كما تعجب (أنتوني فلو) صدق حقائق ما قاله ليد أدلمان (من جامعة ساوث كاليفورنيا في لوس انجلوس): «بأن جرامًا واحدًا من الحمض النووي: يُمكن أن يُخزن من ورائه قدرًا من المعلومات يكفي لـ: تريليون من الديسكات المضغوطة التي نعرفها»[(١)].

انظر للعدد الهائل الذين يُكَوِّنون (العالمين) الموجودين فقط في (نواة) لخلية ضمن ١٠٠ مليون مليون خلية تكون جسم الإنسان فمن أبدعها؟ ومن سواها؟ ومن

(١) صحيح أن الرجل آمن بالإله الإرسطاطاليسي كما يفهم من كلامه، وصحيح أن موقفه من الإسلام كان قريبًا من موقفه من المسيحية لكن محل الاستشهاد هو بحثه عن حقيقة الوجود وعن ضرورة وجود إله، وكفره بهراء الإلحاد.

برمجها؟ إنهم جميعًا أدلة محسوسة علىٰ ﴿رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ﴾.. إن هذا الشريط النووي الوراثي المسمىٰ (DNA) يحمل توقيعًا مؤكدًا علىٰ أن له مصممًا عالمًا قادرًا خبيرًا سميعًا بصيرًا هو رب العالمين.. وهذا الاستنتاج ليس من عندنا مع اعتزازنا به بل هو ثمرة كتاب (توقيع في الخلية) للدكتور ستيفن ماير[١].

قصة وزير مسلم مع ياباني يتساءل عن دليل الربوبية، ومفتاح الجواب ﴿رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ﴾:

ذكر لي أحد الوزراء مرة أنه كان مشاركًا في مؤتمر، وعلىٰ هامش المؤتمر قابل أحد أعضاء الوفد الياباني، فأخبره أنهم يعبدون في اليابان ثمانية آلاف إله، فأجابه الوزير المسلم: لكننا نعبد إلهًا واحدًا.. فسأله الياباني سؤالًا حاسمًا: ما دليل الوحدانية؟.. قال لي الوزير: فبهتُّ لأنني ينبغي أن أقدم له دليلًا واضحًا قاطعًا.. واستعرضت دراستي الشرقية، ودراستي في الولايات المتحدة لأقدم إجابةً سريعة تقطع قول كل خطيب، فارتبكت..

قلت له: يظهر لي أن سورة الفاتحة تقدم لنا إجابة حاسمة: ﴿رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ﴾ إنها الكلمة التي تختصر لك كل البراهين والدلائل.. وتقطع كلام كل متطاول.. إنها تحسم القضية مع كل متفاخر بالإلحاد الخرافي.. فمهما قال من يعبد عما يعبده.. تقول له: أنا أعبد رب من تعبده أنت.

فإن سأل سائل: لماذا لا يكون الإله الحق فرعون كما ادعىٰ حين قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]؟

---

(١) انظر: توقيع في الخلية (الدنا وأدلة التصميم الذكي) للدكتور ستيفن ماير، ترجمة د.آلاء حسكي وآخرون، نشر مركز براهين ط١، ٢٠١٧م.

فأجبهم: لأن الإله الحق ليس فرعون بل رب العالمين.. إنه رب فرعون.

لماذا لا يكون الإله الحق (هُبَل) معبود الجاهلية العربية الأولىٰ؟

فأجبهم: لأن الإله الحق رب هبل الذي خلق الحجارة التي تكون منها هبل.

لماذا لا يكون الإله الحق (الشمس) المعبود الأممي للجاهليات العالمية القديمة؟

لماذا لا نعبد البقر والشجر والحجر والشمس والقمر وغيرها من معبودات الخلق؟

فأجبهم: لأننا نعبد ربها جميعًا.. إنه (رب العالمين) الذي سخرها لنا ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧].

وهنا تعلم جمال ذكر هذا الاسم المبارك (رب العالمين) في سورة الأعراف حيث يقول الله ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]

قل للتائهين من البشر الذين يعبدون غير الله: إنه رب كل فردٍ في العالمين ممن تعبدونهم، وهنا تعلم لماذا تكون أول بينات نوحٍ عليه السلام قوله: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦١]، وأول بينات هودٍ عليه السلام قوله: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٧]، وأول بينات موسىٰ عليه السلام قوله: ﴿يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٤].

إن الله يبين لك الدليل الذي لا يمكن النزاع حوله لاستحقاقه أن يكون الإله الحق، وسواه لا يمكن أن يكون ذلك لأنه «رَبُّ الْعَالَمِين».

ولذا قال علماؤنا عن الله: هو (واجب الوجود)، وهذه عبارة محكمة منهم، وهي تعني:

بأنه عَلَمٌ علىٰ واجب الوجود الجامع لصفات الألوهيّة، وقولهم: **(واجبُ الوجود)** أي أنه لا يمكن تَصَوُّرُ الكون المخلوق من دونه، فكلمة ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ تردُّ علىٰ الملحدين، فما لكم يا مَن يعيش في هذا العالم ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح:١٣،١٤]؟.. وماذا يريد الملحدون.. ماذا يريدون دليلًا علىٰ وجود الله ووحدانيته -جلَّ في علاه- أعظم مما يشاهدون أو يعرفون؟

إن كلَّ ذرةٍ من الوجود تشهد بذلك، كما قال ابن عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كيف يُعرف بالمعارف من به عُرِفَتْ المعارف!! أم كيف يُعْرف بشيءٍ من سبق وجودُه وجودَ كلِّ شيء!!».

فقوموا لله مثنىٰ وفرادىٰ ثم تفكَّروا: هل يمكن تَصَوُّرُ الكونِ من دونه -عزَّ جاره-؟ إن تَصَوُّرَ الوجود دون خالقٍ يدل علىٰ سفهٍ في التفكير، وخللٍ في العقل، واستكبارٍ وتعاظمٍ بغيضٍ، وقد قال الله عن أصحاب هذا المرض العقلي النفسي الخُلُقي: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]..

ماذا يريدون من دليلٍ علىٰ إلهية الله -جل في علاه-؟ ألا يكفي أنه لا يمكن لعاقلٍ أن يَتَصَوَّر وجود الكون دون الخالق العظيم؟ ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ [الانشقاق:٢٠،٢١].

إن العقلاء لا يتصورون الكون دون وجود الخالق الذي عنه انبثقت الحياة فهو

الأول والآخر، ووجوده ذاتي لا يتصور الخلق بدونه، وأنت ترىٰ كثرة عدد المخلوقات وتنوعها، وكلها مفتقرة إلىٰ خالق قطعًا، كافتقار المصنوعات إلىٰ صانع، ولهذه الكثرة الهائلة في العدد قال الله: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [يونس:١٠١]، والملحد المنكر لرب العالمين نافٍ لوجود الإله ويزعم بناء علىٰ ذلك أنه لا يحتاج إلىٰ دليل علىٰ نفيه.. تعال بنا لنقلب الطاولة علىٰ تفكيره لنقف أمام الحقيقة الصارخة التي يصر علىٰ الإعراض عنها، فنقول له -علىٰ أسلوب الآية الكريمة-:

انظر هذه الكثرة التي تأخذ الأنفاس للمخلوقات في السموات والأرض، ثم انظر ثانية إلىٰ كثرة العوالم الموجودة فيها التي تشكل أنواعها، ثم انظر كرة ثالثة إلىٰ الكثرة المدهشة في جزئيات كل مخلوق فإنها تدل علىٰ الحكمة والخبرة البديعة علىٰ صورة تشعر العالم المدقق المتخصص فيها بأنه ضائع صغير عاجز أمام إعجازها، ثم انظر رابعة إلىٰ التوازن الذي يشكله خلق كل نوع مع الأنواع الأخرىٰ من عوالم المخلوقات.. وهذه الكثرة المدهشة للأدلة تدل علىٰ احتياج المخلوقات الضروري إلىٰ وجود خالق حكيم مدبر لطيف خبير، فكل ذرة في الكون، وكل تركيب لهذه الذرات تدل علىٰ ضرورة وجود خالق واحد مدبر.. هنا نستطيع أن نقول للملحد: تظن نفسك لا تحتاج إلىٰ دليل علىٰ إلحادك.. فكيف تصنع أمام هذه الأدلة الجارفة.. إنك بحاجة لإظهار صدق نفيك إلىٰ جواب صادقٍ غير مراوغٍ عن هذا السيل الجرار من الأدلة المدهشة، وهنا تدرك لماذا ختم الله تلك الآية في سورة يونس -عليه السلام- بقوله: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١]

أتريد مثالًا ماديًا مشاهدًا محسوسًا من (العالمين) يدل علىٰ ربهم، فاسمع: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر:٦٤].

وبعد أن ترىٰ أن أدلة وحدانية الله وإلهيته بالقدر الذي لا يُحصىٰ.. كيف يمكنك أن تتصوَّر أنَّ عاقلًا يجعل أحدًا من العالمين -سواءً أكان بشرًا أم حجرًا- نِدًّا لله أو شريكًا معه -سبحانه وتعالىٰ عما يشركون-؟ إنه اللهُ رَبّي... لَا أُرِيْدُ سِوَاهُ، هَلْ فِي الوُجُوْدِ مهيمنٌ إلَّاهُ!!

إِنَّه اللَّه رب العالمين:

الشَّمْسُ وَالْبَدْرُ مِنْ آيَاتِ قُدْرَتِه وَالْبَرُّ وَالْبَحْرُ فَيْضٌ مِنْ عَطَايَاهُ
الطَّيْرُ سَبَّحَهُ، وَالْوَحْشُ مَجَّدَهُ وَالْموْجُ كَبَّرَهُ، وَالْحُوتُ نَاجَاهُ
وَالنَّمْلُ تَحْتَ الصُّخُورِ الصُّمِّ قَدَّسَهُ وَالنَّحْلُ يَهْتِفُ حَمْدًا فِي خَلايَاهُ
وَالنَّاسُ يَعْصُونَهُ جَهْرًا؛ فَيَسْتُرُهُم وَالْعَبْدُ يَنْسَىٰ وَرَبِّي لَيْسَ يَنْسَاهُ

ولما أراد النبي ﷺ أن يعرِّف البشرَ بربهم..

لما أراد ﷺ أن يبلغ الكونَ البلاغَ العالمي معرِّفًا لهم ربَّه سبحانه وتعالىٰ قام -كما قال أبو موسىٰ الأشعري- فخطب العالم بخمس كلماتٍ، فقال: «**إِنَّ اللَّهَ -عزَّ وجلَّ- لاَ يَنَام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفعُ إليه عمل اللَّيل قبلَ عملِ النَّهار، وعملُ النَّهار قبل عمل اللَّيل، حجابه النُّور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه**»(١).. إنه الله الذي لا يتصور الوجود بدونه.. فاسمع إلىٰ فضيلة الشيخ الجهبذ محمد سالم ولد عدود رحمه الله ينظم ذلك بقوله:

اللهُ حـــقٌّ أَوّلٌ كـانَ ولــمْ يكنْ سواهُ، ثم من بعد العدمْ
أنشأَ خلقَه اختيارًا بقدر لحكمٍ لا عبثًا ،كما ذكــر
بقـوله كُنْ فيكُون ما طَلَبْ بلا علاجٍ أو لُغُوبٍ أو نَصبْ
قُلْ صدق اللهُ، فما في الله شك مَالكُ كلّ مالكٍ وما ملك

---

(١) مسلم (١/ ١١١).

خالقُ كلّ فاعلٍ وما فَعَــلْ مُسبِّبُ الأسبابِ واضعُ العِلَلْ

وتأمل حسرة المجرمين المشركين يوم القيامة وهم يتذكرون كيف سَوَّوا بالله بعضَ خلقه متحسرين متعجبين من ضلالهم وخَبَلِهم العقلي حيث يقولون ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:٩٧،٩٨]، وأما العقلاء فإنهم بمجرد تَصَوُّر المخلوقين في العالمين يذعنون لرب العالمين فيقولون: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام:٧١].

ولأهمية ذلك يمكننا أن نقرر البصيرة القانونية المنطقية المباشرة في دلالة العالمين علىٰ وحدانيته وألوهيته سبحانه:

معرفة ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ وهم المخلوقات تؤدي إلىٰ معرفة أفعال الخالق، ومعرفة أفعال الخالق تؤدي إلىٰ معرفة صفاته، ومعرفة صفاته تؤدي إلىٰ معرفة ذاته أي معرفته سبحانه وتعالىٰ:

فهو سبحانه وتَعَالَىٰ يتحدث عن نفسه إلىٰ عُقُولِ الْخَلْقِ علىٰ أربع مَرَاتِب:

المرتبة الأولىٰ: يَتَجَلَّىٰ سبحانه وتعالىٰ للخلق بآيَاتِهِ، ومن آياتِه العالمون من مخلوقاتِه، ويدخل في ذلك تفصيلًا مثل قوله -عزَّ مجده ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴾ [الشورىٰ:٣٢]، ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [آل عمران:١٩٠].. هل يمكن لهذه المخلوقات أن تقوم وحدها؟ هل يمكن أن تستغني عن ربٍّ يوجدها ويقوم عليها حفظًا ورعاية؟ حاول جوليان هكسلي أن يثبت ذلك فألف كتابه (الإنسان يقوم وحده) Man Stands Alone أي أن الإنسان لا يحتاج إلىٰ رب، فيمكنه أن يقوم وحده، فرد عليه كريسي موريسون الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك، ورئيس المعهد الأمريكي لمدينة نيويورك، وعضو المجلس التنفيذي لمجلس البحوث القومي بالولايات المتحدة

بكتابه: (الإنسان لا يقوم وحده Man Does Not Stand Alone يثبت فيه أن الإنسان لا يمكن أن يقوم وحده بل يعتمد في وجوده علىٰ رب العالمين.. فالله يتجلىٰ للخلق من خلال العالمين (المخلوقات) التي لا يمكنها الوجود والاستمرار إلا من خلال تربية ربها جل في علاه، وهنا تدرك عظمة الحوار المنطقي المدهش الذي اكتنزته آيتا سورة الطور لبيان افتقار العالمين إلىٰ ربهم ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

المرتبة الثانية: آياته تؤدي إلىٰ معرفة أفعاله، فإنه لا يمكن لأحدٍ عنده عقلٌ أن يقول: إن السيارة أوجدت نفسها، أو إنَّ الهاتف اجتمعت أجزاؤه دون وجود فاعلٍ صنعه في أجمل تصنيعٍ، وأكمل تجميع، وكذلك العالمون دليلٌ علىٰ فعلٍ لفاعلٍ خلقهم وأوجدهم في أحسن تقويم ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران:١٩١].

أرأيت عاقلًا يزعم أن الأعداد عبارة عن تراكم أصفار؟ والصفر لا ينتج شيئًا.!! أرأيت عاقلًا يزعم أن كل شيء بُنِيَ من لا شيء؟ إن كل شيء مفتقرٌ إلىٰ مُنشِئِه، والله الأول بلا ابتداء هو الذي أنشأ كل شيء.. ولذا قال بعض العارفين: كيف يستدل عليك من هو في وجوده مفتقرٌ إليك..

إنها العلاقة الاحتياجية بين الكون المحتاج للإنشاء والتربية وبين الله القوي المقتدر...

واجه الحقيقة! ألست تجد آيات الله الشاهدة علىٰ الربوبية والتوحيد والتمجيد مشرقةً واضحةً كإشراق أنوار الفاتحة في كل ذرة من هذا الكون.

وهذه الآيات الهادية إلىٰ معرفة أفعاله -جلَّ في علاه- تذكر بأبي نواس الحسن بن هانئ؛ إذ رؤي في المنام بعد موته فسئل عن حاله؟ فقال: غفر لي

بأبيات قلتها في النرجس:

تفكر في نبات الأرض وانظر إلىٰ آثار ما صنع المليكُ
عيون من لُجينٍ شاخصاتٍ بأحداقٍ هي الذهبُ السبيكُ
علىٰ قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريكُ(١)

سبحان من سبحت المخلوقات بحمده فملأ الأكوان تحميده..

سبحان من أفصحت الكائنات بالشهادة بوحدانيته فوضح توحيده..

سبحان من يسبحه النبات جمعُه وفريدُه..

سبحان من يسبحه الشجر عتيقه وجديده..

سبحان من يمجده رهبان الطيور في صوامع الأشجار فيُطرب السامع تمجيده..

سبحان مَن كلما دَرَسَ الهَزارُ دَرْسَ شكره، فالبلبل بالحمد معيدُه،

سبحان من كلما أقام خطيب الحمام النوح علىٰ الدوح هَيَّجَ المستهامَ نوحُه وتغريدُه.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ [العنكبوت:١٩](٢).

المرتبة الثالثة: آياته وأفعاله تؤدي إلىٰ معرفة صفاته التي اتصف بها.. فهو الذي أتقن كل شيء لأن له القدرة المطلقة والخبرة والعلم ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل:٨٨]

وهنا سنذكر المثل الذي ذكره كريسي موريسون في مقدمة كتابه: الإنسان لا يقوم

(١) (النرجس): زهر معروف، و(اللجين): الفضة، و(قضب): أغصان، و(الزبرجد): الذهب، و(الأحداق): جمع حدقة، وهي الأجفان.

(٢) بتصرف من (لطائف المعارف) لابن رجب (ص: ٣١٦)، والهزار: اسم طائر.

وحده.. لننظر كيف تدل المخلوقات علىٰ صفات الخالق -جل مجده-:

فقد حكىٰ أن رجلًا يقال له بالىٰ PALEY ضرب مثلا من تأثره من وجود ساعة يد في طريقه، وقال: إن جهازها الدقيق أقل سببًا للعجب بمراحل، من دلائل عديدة علىٰ دقة التصميم في الطبيعة، ودعاه ذلك إلىٰ أن استرعىٰ الأنظار إلىٰ أن مثل هذه الأداة تثبت لأكثر الناس شكًّا، بأن هناك عملية ذهنية طبقت علىٰ الميكانيكا، ثم قال: إننا لو فرضنا أن هذه الساعة قد منحت القدرة علىٰ إيجاد ساعات أخرىٰ، فإن ذلك لا يكون معجزة تفوق معجزة توالد الإنسان والحيوان!

وبلغ من مدىٰ هذا التعليل والاقتناع به أن أفرد مبلغ ٤٨٫٠٠٠ دولار للجمعية الملكية البريطانية لتقوم ببحوث في مختلف ميادين العلم، لتثبت بها بشكل قاطع، وجود الله. وكانت النتيجة نحو اثني عشر مجلدا كتبها أعضاء تلك الجمعية وآخرون غيرهم. وقد بينت هذه الدراسات، بشكل حازم في الظاهر، وجود تصميم في الخلق، ودلت فلاسفة ذلك العهد علىٰ وجود رب العالمين(١).

كما قيل:

سَـلِ الوَاحَةَ الخَضْراءَ وَالمَاءَ جَارِيَا ... سَلِ الرَّوْضَ مُزْدَانًا. سَلِ الزَّهْرَ، وَالنَّدَىٰ
وَسَلْ هَذِهِ الأَنْسَامَ، وَالأَرْضَ، وَالسَّمَا ... فلَو جنَّ هذا الليلُ وامتدَّ سرمدًا
ولَو غاصَ هذا الماءُ في الأرضِ هل لكم ... وَهَذِي الصَّحَارَىٰ وَالجِبَالَ الرَّوَاسِيَا
سَلِ اللَّيْلَ، وَالإِصْبَاحَ، وَالطَّيْرَ شَادِيَا ... وَسَلْ كُلَّ شَيءٍ تَسْمَعِ الحَمْدَ سَارِيَا
فمنْ غيرُ ربي يرجعُ الصبحَ ثانيا ... سوىٰ الله يجريه كما شاءَ جاريا

المرتبة الرابعة: صفاته تدل علىٰ ذاته -جل في علاه-.. وهكذا كان النبي ﷺ يُعلِّم العالم أدلة وحدانية الله وأحديته وإلهيته بسهولةٍ ووضوحٍ مستعملًا الأدلة المنطقية

(١) العلم يدعو للإيمان (ص: ١٦).

المباشرة في العالمين للدلالة على ربهم ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٩،١٠]،

ألا ترى أنه من الطبيعي -بعد ذلك- أن يخاطب الله العقول البشرية فيقول: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت:٣٧].

ومن أبلغ البيان على المراتب الأربعة ما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم:٥٠]، فآثار رحمة الله هي آياته الكونية من حياة الأرض، وغيث الناس، والمخلوقات كالأرض والناس هم من العالمين، وهم نتاج الأفعال ﴿يُحْيِي الْأَرْضَ﴾ [الروم:٥٠] ، وهذه الآيات وتلك الأفعال عرَّفت بالرحمة والقدرة على كل شيء، والرحمة عرَّفت بالذات وهو (الله) سبحانه وتعالى.

يا لَبراعة الأدلة والبراهين، وعظمتها.. يا لجمال القرآن ونوره.. هاتان كلمتان فقط هما ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يختصران كل الأدلة المطلوبة لإثبات وجود الخالق، وحياته وقيوميته -جل في علاه-.. إذ إنَّ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تدل على أنَّ كلَّ ما سِواهُ مُفتقِرٌ إليه في إنشائه.. محتاجٌ في وُجُوده إلى إيجاده وبنائه.. محتاجٌ في بقائِه إلى تعاهده وإبقَائِه.. محتاجٌ في نموه إلى تربيته وإنمائه، وكل مخلوقٍ مهما صغر فهو برهانٌ باهرٌ، ودليلٌ قويمٌ ظاهرٌ لكل مترددٍ شاكٍّ حائرٍ في وجود الإله الحكيم القادر، ولذا قال الله تعالى في بيانٍ رائعٍ لآفاق هذه الكلمة (رب العالمين): ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ

﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [الرعد:١٦].

سُوَرُ (الـمُحَمِّدات) تُفَصِّلُ في افتتاحياتها معنىٰ ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وتُبَيِّنُ ربوبيته للكون:

الآن تحول معي من الآيات الكونية إلىٰ الآيات القرآنية لترىٰ هذا الانسجام الرائع، والإحكام العظيم في القرآن المجيد؛ فقد افْتَتَحَ الله -تعالىٰ ذكره- خمس سُوَرٍ بالحمد **أولاهن (الفاتحة)**، والأربع الباقيات تُفَصِّل معنىٰ ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فهي تُفَصِّلُ افتتاحيةَ (الفاتحة):

السورة الأولىٰ: سُورَةُ الْأَنْعَامِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأَنْعَامِ: ١]:

فذكر الله تعالىٰ من أقسام العالمين في افتتاحية هذه السورة: خَلْقَ السموات والأرض، وجَعْلَ الظلمات والنور، والخلقُ والجعلُ قِسمٌ من أقسام التربية المستفادة من لفظ (رب) فإنها تشمل: الخلق ابتداءً، والتربية تعاهدًا، ومن التربية للكون تعاهده ببقائه في عَظَمَته ونظامه، وعدم فساده أو العبث به أو تغييره.

السورة الثانية: سُورَةُ الْكَهْفِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الكهف:١]:

فذكر في الأنعام الكون المنظور، وذكر في الكهف الكتاب الذي هو الدستور المسطور لهذا الكون، وذلك لأن الكون يحتاج إلىٰ الميثاق الدائم والمنهاج العظيم الملازم لبناء الشخصية المسلمة ورعايتها، مما يؤدي إلىٰ تشييد المجتمع بالصالحات، والأفعالِ الخيِّرات، ومراقبته بالهيمنة علىٰ أنظمته حتىٰ لا ينحرف أو ينجرف أو يزيغ، وهذا جزءٌ من معنىٰ التربية الواردة في كلمة ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

السورة الثالثة: سُورَةُ سَبَأٍ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ:١]:

خذ هذا الإشراق القرآني المدهش! إن ذكر الحمدلة في أول سورة سبأ لفتٌ للأنظار علىٰ هيئةٍ فريدة، فسورة (الأنعام) ذكرتِ الخلق للمخلوقات العظمىٰ وهي السموات والأرض، وسورة (الكهف) ذكرت سياسةَ هذه المخلوقات بالكتاب، وسورة (سبأ) بينت عزة الألوهية والمالِكية مما يقتضي أن تذعن الحضارات لنظامه، وتسير وَفق مراده وكلامه، فذكر الله الحضارة الربانية الشامخة التي أقامها داود وسليمان -عليهما السلام-، وفي المقابل ذكر الله في (سبأ) حضارةً إنسانية هي حضارة (سبأ) تمردت علىٰ النظام الإلهي، وظنَّت أن لها الحق في التحكم بحياتها وَفق نظامٍ عبثيٍّ اخترعته، وأظهرت التبختر الثقافي حتىٰ طالب قوم (سبأ) بما يدل علىٰ الغرور الحضاري، فقالوا بطرين أشرين: ﴿رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩]، فناسب أن يبدأها الله بذكر أن له ما في السموات وما في الأرض يسخرها لمن يشاء، ويمنع منها أصحاب الآراء العبثية التي تتلاعب بها الأمزجة والأهواء، وهذا جزء من معاني التربية في ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

السورة الرابعة: سورة فاطر ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:١]:

أما هذه السورة فتعريفٌ متجدد بعظمة الخالق بأسلوبٍ آخر، فقد فطر الله السموات والأرض فأوجد الذرات والخلايا المشار إليها بخلق السموات والأرض في سورة (الأنعام)، وذكر في فاطر أنه فَطَرَها لتُكوِّنَ المخلوقاتِ الحية وغيرها، حتىٰ أوجد منها أعاظم المخلوقات كالملائكة أولي الأجنحة ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر:١]، وقد روىٰ جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من أمثلة هذا الفَطْرِ للذرات والخلايا لتُكوِّن مخلوقاتٍ عظيمة شيئًا مذهلًا، حيث قال النبي ﷺ: «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش: إن ما بين شحمة أذنه إلىٰ

عاتقه مسيرة سبعمائة عام»[(١)]، وبين هذا الخلق العظيم للملائكة، وبين فَطْرِ الذرات والخلايا لتكوين هذه المخلوقات العظيمة تتضح لنا صورةٌ من صور التربية للأجساد مما ورد في قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

ومن العلاقات الواردة بين المحمدات الأربع المفصلة للحمدلة في الفاتحة ما أشار إليه النورسي من أن كل واحدة منها ناظرة إلىٰ نعمةٍ من النعم الأساسية التي هي:

النشأة الأولىٰ في (الأنعام) حيث قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وما بعدها.

وطبيعة البقاء في هذه النشأة في (الكهف) حيث قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف:٧] والقصص المذكورة فيها.

والنشأة الأُخرىٰ في (سبأ) حيث قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ:٣].

وطبيعة البقاء بعدها في (فاطر) حيث ذكر للمؤمنين دار المقامة، وقال عن الكافرين: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦].

لا تقطع عجبك وتسبيحك في تأملاتك القرآنية! فهاهنا أمرٌ متممٌ لما سبق، فكما افتتح خمس سورٍ بالحمد **فقد اختتم خمس سورٍ بالحمد:**

السورة الأولىٰ: سورة الإسراء، حيث قال الله -عزَّ وجلّ-: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى

(١) أبو داود (٢ / ٦٤٥)، وإسناده جيد، كما قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٣٩، وصححه الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٨/ ٦٦٥، ونحو ذلك ما رواه أحمد بن حنبل (١ / ٤٦٠)، قال رسول الله ﷺ: «**رأيت جبريل ﷺ وله ستمائة جناح ينتثر من ريشه التهاويل الدر والياقوت**»، قال ابن كثير في تفسيره – ط. طيبة – ٧/ ٤٥١: «وهذا إسناد جيد قوي».

لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [الإسراء:١١١].

السورة الثانية: سورة النمل، حيث قال -جلّ مجده-: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل:٩٣].

السورة الثالثة: سورة الصافات، حيث قال -تعالىٰ ذكره-: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢].

السورة الرابعة: سورة الزمر، حيث قال -تقدس في علاه-: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥].

السورة الخامسة: سورة النصر، حيث قال -تعالىٰ جدُّه-: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر:١-٣].

ألا ترىٰ أن آخر سورة مسبحةٍ بالحمد هي سورة النصر؟ اللهم اقسم لنا منه أوفر الحظ والنصيب.. يا قريب يا مجيب.

البصيرة الثانية

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ اسم يُبين حقوق الخلق، وتتلخص في الإنعام المقترن بالتربية

في هذه الآية المباركة تجد أن القسم الأول منها ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يبين حقوق الخالق؟ فانظر إلىٰ الجمال، وإلىٰ رحمة الكريم المتعال؛ إذ يأتي القسم الثاني: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ليُبيِّن حقوق الخلق التي تتلخص في أن ينعم الله عليهم إنعامًا يقترن بالتربية التي تقتضي الرحمة والحزم والرفق، ومن خلال ذلك نعرف (قصة وجود هذه الحياة).

وهنا ستتساءل: كيف فهمنا قصة الحياة، وحقوق الخلق من خلال هذا الاسم العظيم﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟

وللجواب علىٰ ذلك هلمَّ بنا إلىٰ التأمل الماتع، والأفياء المستلذة التي تنبعث من خلال هذا الاسم المبارك، فـ(الربُّ) مصدرٌ أو صفةٌ مشبَّهةٌ علىٰ وزن (فَعْل)، وهي كلمةٌ تدل علىٰ ثلاث معانٍ، وباعتبار إضافتها إلىٰ (العالمين) تستلزم معنىً رابعًا:

أما المعنىٰ الأول فالرب هو السيد المطاع، كما قال تعالىٰ: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف:٢٣] أي سيدي في أحد التفسيرين، وكما قال لَبيد بن ربيعة:

وأَهْلكنَ يومًا ربَّ كِندَةَ وابنَه ... ورَبَّ معدٍّ، بين خَبْتٍ وعَرعَرِ

يعني: سيِّد كندة، وسيد معدٍّ.

وأما المعنىٰ الثاني فالرب هو المربي المصلح للشيء، أي المربي للخلق حالًا فحالًا؛ فإنه يُدعىٰ ربًّا، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ [النساء:٢٣]، فالربائب جمع ربيبة، وهي بنت الزوجة التي يربيها المرء في حِجْره، فكلمة (رب) مأخوذة من رَبَّهَ يَرُبُّهُ بمعنىٰ رَبَّاهُ، وهو ربٌّ بمعنىٰ مربٍّ وسائسٍ، والله

-جلَّ في علاه- يسوس عباده بأفضل ما يرفعهم وينفعهم ويُمْتِعُهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [يونس:٦٠].

وأما المعنىٰ الثالث فالرب هو المالك للشيء، فقد قال تعالىٰ: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ﴾ [يوسف:٥٠]، وقد قال صفوان بن أمية مبينًا أن الرب يأتي بمعنىٰ المالك: لأن يَرُبَّني رجلٌ من قريش أحب إلي من أن يَرُبَّني رجلٌ من هوازن(١)، أي لأن يملكني.

فتأمل -أعزك الله تعالىٰ بطاعته- تجد أن هذه المعاني اللغوية الثلاث (السيد، والمصلح، والمالك) قد اجتمعت في صورتها المطلقة في هذا الاسم المبارك (رب العالمين)، ولكنك تضيف لها معنىٰ رابعًا لا يتصف به إلا (رب العالمين)، إذ كونه مربي العالم يقتضي أن يكون هو خالقهم، وإلا فمن أين أتوا؟

فربُّنا -جلّ ثناؤه- هو الخالق السيد المطاع الذي لا شِبْه لهُ، ولا مِثل له في سُؤدده، وهو المصلح أمرَ خلقه بما ينفعهم ويرفعهم إعطاءً ومنعًا، وبسطًا وقبضًا، وإنعامًا وابتلاءً، وحِكَمًا وأحكامًا، وهو -سبحانه- مالكهم الذي له الخلق والأمر، يسوسهم بما ينفعهم، فما يشاؤون إلا أن يشاء الله (رب العالمين).

ومن خلال هذا الاجتماع للمعاني الأربع لكلمة (رب) تستبين لنا نشأة العالم، وطبيعةُ الحياة الكونية القائمة، ونعرف بذلك أمهاتِ النعم الكبرىٰ التي يربي الله سبحانه وتعالىٰ عباده بها ، وهي النعم التي لا يمكن أن يدعيها أحد، وهي:

النعمة الكبرىٰ الأولىٰ: نعمة الإيجاد، فهو الذي أنشأهم من العدم بالخلق والإيجاد، فاسمع ذلك من الله -تعالىٰ جدُّه- إذ يقول: ﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم:٩]، والناس كانوا عدمًا، والمعدوم كالميت، فجعل الله فيه الحياة:

---

(١) أبو يعلىٰ (٣/ ٣٨٨)، وذكر المحقق أن إسناده حسن.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة:٢٨].

النعمة الكبرىٰ الثانية: نعمة الإعداد، حيث جعل الله هذا الخلق في أحسن الهيئات، وأعطاه أجمل المواهب والملكات: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤]، فربَّاهم سبحانه بعد الإيجاد بالإعداد بالحواس اللازمة ليتعلموا، وبذا انتقل العبد من العجز إلىٰ القدرة، ومن الجهل إلىٰ العلم من خلال أدوات التعلم الأساسية العظمىٰ وهي السمع والبصر والفؤاد، واسمع إلىٰ وصف ذلك مباشرة من المصدر المعرفي الأعظم حيث يقول -تقدست أسماؤه-: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾، فهذا هو الإيجاد، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ وهذا هو الإعداد.. وكلاهما يوجبان الشكر ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨].

وهاهنا سأتحفك بملحوظةٍ مدهشةٍ في البيان القرآني، فإن الله إذا أراد من عباده (تكوين المعرفة) يُقَدِّمُ السمع والبصر علىٰ الفؤاد؛ لأنهما بوابتا الفؤاد اللتان يحلل من خلالهما الأمر إلىٰ أجزائه الحقيقية، وأما إذا ذكر (سلب المعرفة) وعدم الاستفادة من أدوات التعلم (السمع والأبصار) فإنه يقدم ذكر القلب أو الفؤاد المصاب بمرض الغفلة القاتل للتميز الإنساني، وتأمل ذلك ببصيرةٍ نافذةٍ، ونظرٍ دقيقٍ في قول ذي الملكوت والجبروت: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

النعمة الكبرىٰ الثالثة: نعمة الإمداد، فتربيته للعالمين بعد الإيجاد والإعداد بالإمداد؛ فكيف يكون الإمداد؟.

لقد سخر الله لهم البيئة والمواد الكونية، لعلهم يُعمِلون العقول المفكرة في تحويل التسخير في حياتهم إلىٰ التطوير والتعمير ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية:١٣]، ومن هذه المواد الكونية ترى النعم التي يتغذى بها العالمون، وعليها يعيشون وينامون ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢٢]، ومن هذه النعم ما ذكره ذو المجد والكرم، وهو يُذِّكر البشرية عناصر الإمداد في قوله تعالى: ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [نوح:١٢].. إنه الله الذي ربى الإنسان بالإيجاد من العدم، وبالحماية من الخللِ والظُلَمِ والألم، وحماه بالعدل، وغذَّاه بالنعم، وأعده بالعقل ليميز الحق من الباطل، والشكر من الكفر ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ [الإنسان:٣- ٥]، وأمده بالفضل والكرم ليبني بالتفكير والتعقل والتدبير ما يجتاز به الاختبار الدنيوي نحو النعيم الأخروي. وإذا كان الله قد جعل أساس وجود الإنسان بلا اختيارٍ من الإنسان، فقد جعل له الاختيار في سلوك الطريق بعد أن يعلم أن الكون لا يمكن أن يَسعد إلا إذا جرى وَفق البرنامج الذي فطره الله عليه.

النعمة الكبرى الرابعة: نعمة الإيفاد، أي إيفاد الرسل إلى الخلق بالهداية للتفريق بين الغي والرشاد، والترغيب في الاستعداد لدار المعاد ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥]، والرسل جاءوا بالتكاليف الشرعية ليعرف العالمون كيف يديرون حياتهم وفق أمثل البرامج، فكل أمرٍ شرعيٍ نزل فهو لنفع العباد رحمةً بهم، ورعايةً لمصالحهم، وقد بين الله ذلك تفصيلًا في آياتٍ كثيرة، ويجمع تلك الآيات المتعددة المعاني هذه الآية الكلية المجيدة ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

والآنَ هل أدركتَ أن (الربوبية) تدل على قصة بداية الكون واستمراره؟ نعم!

فهذا اللفظ (الربُّ) يرتبط بالتربية، والتربية الإلهية تعني (الخلق والتعاهد) فالله خلق العالَم، ثم تعاهده بتربيته، وصبغه بأحسن صبغةٍ في الأمور الكونية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦،٧]، وكذلك رباه بالتكاليف الشرعية التي هي أفضل القوانين إصلاحًا له لتنسجم أجزاؤه، وتتناسق مخلوقاته، وجعل أنظمةَ الشريعة متناغمةً منسجمةً مع الطبيعة ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة:١٣٨].

وهنا ندرك أن قيادة (الطبيعة) في هذا الكون بغير أنظمة الشريعة إفسادٌ لها، وتدميرٌ يؤدي إلىٰ سفك الدماء.. وذلك أن إدارة العالم بعيدًا عن الإدارة الشرعية التي ارتضاها خالق الكون يؤدي إلىٰ الظلم العالمي الفاحش الذي نشاهده في الواقع، وبذا نكون قد عرفنا الإجابة علىٰ سؤال: (من أين جئنا؟)، كما أنك تجد أن هذه الكلمة تُعرِّف العباد بربهم، ليدركوا أدلةَ توحيده، وكيفية تمجيده.

النعمة الكبرىٰ الخامسة: نعمة الإرشاد أي الإرشاد التوفيقي، فالنعم السابقة نعمٌ عامةٌ تشمل جميع الخلق، وتبقىٰ نعمةٌ خامسة تختص بالمؤمنين، وهي نعمة التوفيق والإلهام للحق والرشاد، حيث وفق المؤمنين، واختصهم فسبقت لهم منه الحسنىٰ، وأكرمهم بسلوك طريق العابدين، وأخرجهم من طُرُقِ الضالين ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [البقرة:١٠٥]، وهذا التوفيق العزيز يرتبط بمدىٰ قبول العبد لذكرىٰ وافد ربه واستعماله للأدوات التي أعدها الله فيه استعمالًا صحيحًا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق:٣٧]، وإقباله علىٰ ذكر مولاه ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢]، ولذا أوصىٰ الله النبي ﷺ أمته أن يقول الواحد منهم: «اللهم قني شر نفسي، واعزم لي علىٰ أرشد أمري»(١).

---

(١) أحمد (٤ / ٤٤٤)، برقم ٢٠٠٠٦، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين.

وَالْعَبْدُ انْتَقَلَ مِنَ الْعَدَمِ إِلَىٰ الْوُجُودِ، وَمِنَ الْمَوْتِ إِلَىٰ الْحَيَاةِ، وَمِنَ الْعَجْزِ إِلَىٰ الْقُدْرَةِ، وَمِنَ الْجَهْلِ إِلَىٰ الْعِلْمِ، ومن الضلال إلىٰ الهداية، لأَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ هو الأول الذي ليس قبله شيء، فَبِقُدْرَتِهِ، وَعِلْمِهِ خلقه الله وَنَقَلَهُ إلىٰ هذه الأحوال، فأسلم له نفسك وحياتك..

عرف ذلك نخبة البشر، وصفوتهم كإبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١]، وباختيار الهداية تكتمل التربية العظيمة من الله لعباده، فهو الذي ربىٰ نفوس العابدين بالتأييد، وربىٰ قلوب الطالبين بالتسديد، وربىٰ أرواح العارفين بالتوحيد، وكل ما في الكون فهو قائمٌ علىٰ أساس التربية، ولذا ربما رأىٰ الخلق بعضًا منهم نقصت خِلْقَتُهم(١) عن الخِلْقة السوية في أجسادهم أو عقولهم، فنُرجع ذلك إلىٰ التربية أيضًا:

تربية مستقيم الخلقة علىٰ الشكر، ومعرفة أن الكون بيد الله؛ يبسط ما يشاء لمن يشاء.

وتربية ناقص الخلقة علىٰ الصبر؛ إذ لم يُهنه ربه وإنما ابتلاه، وسيعوضه في اليوم الحق عما حدث له إن صبر ولم يجزع، ولم يقل قول من حكىٰ الله عنهم التضجر في قوله: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر:١٦].

فهل عرفت -أعزك الله- قيمة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؟.

إن (الحمدلة) تُبيِّنُ عظمة الرحمة الـمُنْزَلة، والتربية الرائعة الـمُسْبلَة، وتدل علىٰ المقدار الهائل لما يُحيط بالخلق من النعم الـمُسْدلة الـمرْسَلَة.

---

(١) الخَلْق - بفتح الخاء وسكون اللام- وهو هنا صورة البدن الإنساني، ونقصه يكون بالعمىٰ أو البكم أو الصمم أو العرج أو نقص القيام ببعض الوظائف.

البَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ

{رب العالمين} دليلٌ على أن الله ليس كمثله شيء فهو ربُّ الخلق أجمعين

ماذا تعني هذه البصيرة الرائعة المعرِّفة بالله –تعالىٰ في علاه–؟ إنها تدلك علىٰ المقدار الذي يمكنك معرفته من مجد الله؟ فبما أن (العالَمين) اسمٌ يشمل كل شيءٍ سواه –تبارك وعزَّ– فهو –جلَّ وتقدس– لا يشبهه شيء، ويكفي العالمين أن يعرفوا أنه ربهم –تعالىٰ جَدُّه، وعَظُمَ سلطانه–.

ويبين ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا كيفية استنباط هذه البصيرة من ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيقول: قال جبريل لمحمد ﷺ: «يا محمد قل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»، قال ابن عباس: يقول: قل الحمد لله الذي له الخلق كله: السمواتُ كلهن ومن فيهنّ، والأَرَضُون كلُّهنّ ومن فيهنّ، وما بينهن، مما يُعلم ومما لا يُعلم. يقول: اعلم يا محمد أن ربَّك هذا لا يشبهه شيء(١)، وينبني علىٰ إدراك أن الله ليس كمثله شيء بصيرة أخرىٰ، وهي:

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ اسم كافٍ للإعلان العالمي عن عبادته باعتزاز وافتخار..

دعنا نتذوق ذلك من خلال الأسئلة الآتية:

بمن يعتز عَبَدَةُ الحيوانات في عبوديتهم؟ بمن يعتز عَبَدَةُ الملوك والشجر في خضوعهم؟

بمن يعتز عَبَدَةُ الشمس والقمر والحجر والبشر والشيطان والهوىٰ في عبوديتهم؟

أما نحن فنعتز بعبوديتنا لـ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فهو الإله الملك الحق المبين..

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١/ ١٤٣).

يعلن المنتسب إلىٰ دينه بافتخارٍ عن شرف عبادته، وترىٰ صفوة المجتمعات من أصحاب العقول المستنيرة، والأفهام الراجحة، والقلوب الواجفة الخبيرة يفتخرون بالتعريف بالله العظيم -عزَّ وتقدس- من خلال هذا الاسم المبارك، وخذ أنموذجًا لهذا الاعتزاز ينير النفوس بإشراقه.. إنها ماشطة بنت فرعون، فروىٰ ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «لما كانت الليلة التي أُسريَ بي فيها أتت عليَّ رائحةٌ طيبةٌ فقلت: يا جبريل ما هذه الرائحة الطيبة؟ فقال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها. قال قلت: وما شأنها؟ قال: بينا هي تمشط ابنة فرعون ذات يوم إذ سقطت الـمِدْرَىٰ[١] من يديها فقالت: بسم الله. فقالت لها ابنة فرعون: أبي؟ قالت: لا! ولكن ربي ورب أبيك الله. قالت: أخبره بذلك؟ قالت: نعم! فأخبرته، فدعاها، فقال: يا فلانة وإن لك ربًّا غيري؟ قالت: نعم! ربي وربك الله. فأمر ببقرةٍ -أو بنقرة وهي قدر يسخن فيها الماء- من نحاسٍ فأُحميت، ثم أمر بها أن تُلقىٰ هي وأولادها فيها قالت له: إن لي إليك حاجةً. قال: وما حاجتك؟ قالت: أحب أن تجمع عظامي وعظام وُلْدي في ثوبٍ واحد وتدفننا. قال: ذلك لك علينا من الحق. قال: فأمر بأولادها، فألقوا بين يديها واحدًا واحدًا إلىٰ أن انتهىٰ ذلك إلىٰ صبيٍّ لها مرضَعٍ، وكأنها تقاعست من أجله قال: يا أمه! اقتحمي فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة. فاقتحمت»[٢].

إنه (رب العالمين) اسمٌ يملأ جوانح الإنسان بالسكينة والقوة والاعتزاز والضياء، كما يردع الإنسان عن أي تفكيرٍ باعتداءٍ أو إيذاءٍ كما قال المتقي من ابني آدم -عليه

---

(١) المدرىٰ: عود تدخله المرأة في رأسها لتضم بعض شعرها الىٰ بعض.

(٢) أحمد١/ ٣٠٩، ابن حبان٧/ ١٦٣، وذكر ابن كثير في تفسيره٥/ ٢٩ نحوه بسند البيهقي، ثم قال: "إسناد لا بأس به"، وقد غمز بأن في إسناده من جهة اختلاط عطاء ابن السائب، إلا أن السماع كان قبل الاختلاط.

السلام- ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة:٢٨].

ويظهر أن هذه الآية التي فيها ذكرٌ لرب العالمين يستشعر صاحب الكلام فيها بعظمة تربية الله تعالىٰ له، ولذا كفَّ يديه، وليس فيها دليلٌ علىٰ عدم ردِّ الاعتداء المذكور في آيات أخرىٰ كثيرة.

البصيرة الرابعة

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يُرَبِّي تربية كاملة تضعف عندها تربية النظم البشرية الآفلة

أتريد من المعرفة القرآنية أن تزودك بالوجوه الواضحة التي بها تختلف التربية الإلهية للعالَم عن تربية غيره[(١)]؟:

أما الوجه الأول فهو -تعالىٰ عزُّه- تبدأ تربيته لعباده بإيجادهم من العدم، فمن ذا يقدر علىٰ ذلك؟ وهو أعلم بهم عند جعلهم نطفة منقسمة نامية.. من ذا يحيط بذلك؟ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]

وأما الوجه الثاني فهو -جل وعز- يُرَبِّي عَبِيدَهُ لَا لِنفع نفسه، ولا لاحتياجه بَلْ لمصالحهم الذاتية، وليقضي حاجاتهم الجماعية، وليبني لهم مجدًا وسعادة مع غناه عنهم ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعـراف:١٤٠].. قارن! إنها خيبةٌ عظيمةٌ سترجع بها؛ فإن غَيْرَهُ يُرَبُّونَ لاحتياجهم، ونفع أنفسهم، وأهدافهم الخاصة بهم، وتكثرهم وتكاثرهم.

وأما الوجه الثالث فإن غيره -جلَّ في علاه- إذا ربَّىٰ يظهر النُّقصانُ في خزائنه وفي مَالِهِ بقدر تلك التَّربية، أما الملِك الحق فهو -تَعَالَىٰ- متعالٍ عن النُّقصان والضَّرر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:٢١].

وعن أَبِي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسول اللهِ ﷺ قال: «**يد الله ملأىٰ لا يغيضها نفقةٌ**

---

(١) وانظر: تفسير الرازي (١/ ١٦١).

سحَّاء اللَّيل والنَّهار»، وقال: «**أرأيتم ما أنفق منذ خلق السَّماوات والأرض؟ فَإنَّه لم يغض ما في يده**»، وقال: «**عرشه علىٰ الماء، وبيده الأخرىٰ الميزان يخفض ويرفع**»[(١)].

وأما الوجه الرابع فهو حبه للإعطاء، وحبه للسائلين منه، وحبه للإلحاح في سؤاله حيث يصمد لعباده؛ واضرب لهم مثلًا محتاجًا من البشر تتجدد حاجاته، فينزلها علىٰ أحد المحسنين طالبًا مزيدًا من الإحسان..ثم تتجدد الحاجات، فإلىٰ أي شيءٍ يؤول أمره في آخر المطاف؟

الجواب معلوم من التجارب التي لا تكاد تنتهي في الحياة: إنه الكدر والضجر، أو التهرب من هذا المحسن الذي تكاثرت أمامه الحاجات والاحتياجات، أما الله -جل في علاه- فيحب العبد الملحاح في المسألة، ويكون الـمقبل عليه أشد الناس سعادةً بوافر عطاياه وجزيل نعماه، وانظر مصداق ذلك في حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنه من لم يسأل الله يغضب عليه**»[(٢)]، ولذا قيل:

لا تَسْأَلَنَّ بُنَيَّ آدَمَ حَـاجَـةً ... وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لا تُحْجَبُ
فاللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

وأما الوجه الخامس فإن تربيته لنا قامت علىٰ أسسٍ غير مألوفةٍ عند بقية المربين؛ فاقصص قصص المربين من البشر وهم يربون علىٰ ما هو معتادٌ، وقارن ذلك مع تربية الله عبده حين رباه نطفةً، ثم علقةً، ثم مضغةً، ثم عظامًا، ثم كساه لحمًا فمن يقدر علىٰ ذلك؟، من يقدر علىٰ إيجاد الأعضاء، والأجهزة، والغضاريف، والمفاصل، والرِّباطات، والأوتار، والأوردة، والشَّرايين؟ من يقدر علىٰ أن يصل بعضها ببعض،

---

(١) البخاري(٩ / ١٥٠).

(٢) الترمذي (٥ / ٤٥٦)، أحمد (٢/ ٤٧٧)، وقال ابن كثير في تفسيره – ط. دار طيبة (٧/ ١٥٤): «وهذا إسناد لا بأس به».

ثُمَّ يضع فيها الْقُوَىٰ الخاصة بها، كقوة البصر والرؤية في العين، وقوة السمع والاتزان فِي الأذن، وقوة النطق في اللِّسان؟، فسبحان من أسمع بعظمٍ، وبصَّر بشحمٍ، وأنطق بلحمٍ، وقد أحسن ابن حزم-رحمه الله تعالىٰ- حيث قال:

لك الحمد يا رب والشكر ثم ... لك الحمد ما باح بالشكر فم
لك الحمد في كلِّ ما حالةٍ ... فقد خصني منك فضلٌ وعم
من الماء أنشأتني نطفةً ... ومن بعد ذلك لحمٌ ودم
وأسكنت في جسدي روحَه ... وأجعلتها في طباق الرحم
وأخرجتني بعدُ في عالمي ... وبلغتني درجات الفَهِم
فمنك لي البصر المقتفي ... وسمعٌ وذوقٌ ونطقٌ وشَم
وحِسٌّ صحيحٌ، وتمييز ما ... خلقتَ بأنواعه من أُمم
ومَكَّنتني من فنون العلوم ... ببادي الكلام وخَطِّ القلم

وأما الوجه السادس فإن التربية الإلهية مستمرةٌ غير منقطعةٍ، ولذا يظل الاستمداد التربوي منه -جلَّ في علاه- إلا أن الاستمداد التربوي الجسمي المادي يأتي منه سبحانه دون سؤال غالبًا، فهو الذي يرزق العبد كل نفسٍ يتنفسه، وحركة يتحركها، أما الاستمداد العقلي والقلبي فيأتي عبر الاختيار البشري..لقد اختار الصالحون ربهم، فقال ساداتهم: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:١٤]، ولذا فإنه سبحانه سمَّىٰ نفسه في (الفاتحة) المباركة ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ولم يقل «خالق العالمين»؛ إذ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تدل علىٰ أنه لم يخلق فقط بل خلق وربَّىٰ سبحانه، فتعاهدهم طبيعةً بتربية أجسامهم خلقًا وإنشاءً وتجديدًا، وتعاهدهم شريعةً بتربية أرواحهم وأخلاقهم ومبادئهم وعقولهم ونظمهم..فحاجة الخلائق له مستمرةٌ، وقد أجمع العقلاء عَلَىٰ أَنَّ الْحَوَادِثَ مُفْتَقِرَةٌ إِلَىٰ الْخالق لها حال حدوثها..

وإن تعجب فعجبٌ قول قومٍ زعموا أَنَّه -سبحانه- بعد أن خلق الخلق تركهم يصنعون ما يشاؤون.. فيأتي هذا الاسم المبين ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، لينبههم أَنَّ جَمِيعَ الْعَالَمِينَ يفتقرون إِلَيْهِ، ليس إيجادًا فقط، بل إيجادًا وبقاءً، كما أننا نلمس في هذا الاسم العظيم (رب العالمين) من صفات الرحمة والفضل والكمال ما لا يحويه وصف (الأب)، وقد تباهىٰ النصارىٰ بوصف الإله بالأب حتىٰ طعن بذلك بعضهم علىٰ المسلمين، فادَّعىٰ الطاعن أنَّ المسلمين لم يُعلِّمهم نَبِيُّهم ﷺ من صفات الخالق إِلَّا أنَّه حَاكِمٌ قَاهرٌ وسلطانٌ عظيمٌ، وقال: فأين هذا من تسمِيَة النَّصارىٰ خالقهم بالأب الدَّالِّ علىٰ الرَّأفة والعطف؟.

أيها التالي لقرآنٍ مبينٍ! أجب هذا الطاعن التائه المسكين، وعَلِّمه: أن أول وصفٍ لله في القرآن هو الرحمن الرحيم، وأنه وصف نفسه بعد ذلك بأنه (ربّ العالمين)، وتكررت هذه الأوصاف الثلاثة كثيرًا في القرآن المجيد؛ لتتضمن معاني التَّرْبِيَةِ وَالْعَطْفِ والإصلاح والمحبة وفعل الأصلح والأنفع للحياة الأرضية والكونية بما لا يوجد في اسم الأب الذي يكون طلبه للولد بمقتضىٰ شهوته، لَا بمقتضىٰ محَبَّتِه ونفعه الخالص له، مع ما في شؤون الوَالِدِ من الأمور التي يُنزِّه الله تعالىٰ عن الاتِّصاف بها، ولكن المعاندين الطاعنين لا يفقهون[١].

وأما الوجه السابع فإن غير ربِّ العالمين من المحسنين يختصُّ إِحسانُهُ بقومٍ دون قومٍ، ولا يُمكنه التَّعميم، أَمَّا الْحَقُّ -تَعَالَىٰ- فالملائكة يصفون تربيته للعالم فيقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧]، وانظر كيف يبين الله لنا قسمة عطاياه: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:٢٠]، وقد ذكر الله تعالىٰ هذه الوجوه العظيمة في قوله في الحديث القدسي:

(١) انظر: تفسير المنار (١/ ١٢).

«يا عبادي كلُّكم ضالٌّ إلَّا من هَديته؛ فَاستَهدُوني أَهدكُم. يا عِبادي كُلُّكم جائعٌ إلَّا من أَطْعَمتُهُ؛ فَاسْتَطعمُوني أُطْعمكُم. يا عبَادي كُلُّكُم عَارٍ إلَّا مَن كَسَوتُهُ؛ فَاستكسُوني أَكسُكُم. يا عبادي إِنَّكم تُخطئُون باللَّيل والنَّهار، وأنا أغفر الذُّنوب جميعًا؛ فاستغفِرونِي أغفر لكم. يا عبادي إنَّكم لن تبلُغُوا ضَرِّي فتضرُّوني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك فىٰ ملكي شيئًا. يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا علىٰ أفجر قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما نقص ذلك من مُلكىٰ شيئًا. يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإِنسكم وجِنَّكم قاموا فىٰ صعيدٍ واحِدٍ، فسألونِى فأعطيت كلَّ إِنسانٍ مَسأَلته ما نقص ذلك مِمَّا عندىٰ إلَّا كما يَنقُص المخيط إذا أدخل البحر»[١].

الآن فاستمتع وأنت تردد هذا الاسم المبارك (رب العالمين)، فهو اسمٌ يجعلك تهفو إليه، وترسل مناجاتِك بين يديه، وتقول:

الفكرُ يا إنسان لو أطْلَقْتَهُ ... متأمِّلًا في قدرةِ الرحمنِ
لخضعتَ إجلالًا وتسبيحًا له ... سبحانهُ ربٌّ عظيمُ الشانِ
يعلو ولا يُعلىٰ، وجلَّ عُلُوُّه ... وصفاتُه كمُلت بلا نُقصانِ
سلطانهُ باقٍ ويبقىٰ مُلكهُ ... هذا ويفنىٰ كلُ ذي سلطانِ
في كل شيءٍ قد تكامل صنعهُ ... ذا مُحكمُ التنزيل خيرُ بيانِ
قد عم أرجاءَ الفضاء بآيهِ ... انظر! ترىٰ ما لم يصفْهُ لساني

---

(١) مسلم (٨/ ١٦).

البَصِيرَةُ الخَامِسَةُ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ معراج الوصول إلى الله، ومرقاة السعادة والسكينة

فـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ توضِّحُ علاقة الخلق بالخالق، وهي علاقةٌ قائمةٌ علىٰ تحقيق التوحيد بالاستمتاع بجمال حمد الله رب العبيد، وبناء الحياة الإعلامية والثقافية والتعليمية والشخصية والعامة علىٰ الحمد، والتملق له بالثناء عليه، وذكر صفاته ورحمته، وجعل ذلك مركزيًّا في الإعلام والتربية والثقافة، والإعداد السياسي والعسكري، وبناء الحياة علىٰ الدعاء مع الثناء، واللجوء إلىٰ أرحم الرحماء في السراء والضراء والصغير والكبير من الأمور الفردية والمعاشية.

و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾قولٌ يمثل شعار العابدين، ومحبي التغيير الحسن لإخراج الناس من الظلمات إلىٰ النور، وهي هتافهم أمام النعم المنهمرة، كما هي شعارهم أمام خطواتهم المتعثرة، وأخطائهم المتكررة.. لا ليُصِرُّوا عليها بل ليراجعوها، ويحيلوا ظلمة حياتهم نورًا، وبؤسها سعادةً.. وربما سألت: فما تعريف الحمد؟

الحَمْدُ هو الثناء الكامل علىٰ المحمود -وهو الله جلَّ في علاه- بذكر نعوتِه الجليلة، وأفعالِه الجميلة مع حُبِّه وإجلاله وتعظيمه[١]، فهو المستحق للحمد، ومجمل هذا الاستحقاق يعود إلىٰ أمرين[٢]:

الأمر الأول: حمدٌ له لما يستحقه -جلَّ مجده- من صفات كماله الذاتي، فهو الملك العظيم القدير الحي القيوم.

---

(١) لطائف الإشارات = تفسير القشيري (١/ ٤٥).

(٢) مجموع الفتاوىٰ٦/ ٨٤، في رسالة: تفصيل الإجمال فيما يجب لله تعالىٰ من صفات الكمال.

الأمر الثاني: حمدٌ له سبحانه علىٰ إحسانه المتعدي إلىٰ عباده من:

نفعِه ودفعِه: نفعِه بإغداق الخير، ودفعِه الآفات والشر والضير.

وإزاحتِه وإتاحتِه: إزاحته البؤس والشقاء والمأساة، وإتاحته للاستمتاع بالحياة.

ونوالِه وإفضالِه: نواله أصول النعم، وإفضاله بالمزيد من الكرم؛ إذ يُحَمَدُ الحكيم العليم لما أنزله من النعم، وأعطاه لخلقه من عظيم الكَرَم، ولما اتصف به من جميل الصفات في الأزل والقِدَم،

فهو أهل الشكر والثناء والمجد، بما أنعم علىٰ عباده من النِّعم التي لا يُحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيرُه أحد، فحقُّ الله الإله الملك الحقِّ سبحانه وتعالىٰ أن يحمده خلقه، وأول أنواع الحمد الاعتراف بالتوحيد، والمبادرة إلىٰ الثناء والتمجيد، كما قال بعض الصادقين:

لكَ الحمدُ.. ما أولاكَ بالحمدِ والثنا — علىٰ نعمٍ أتبعتَها نعمًا تترىٰ
لكَ الحمدُ.. حمدًا أنتَ وفقتنا له — وعلمتنا منْ حمدكَ النظمَ والنثرا
لكَ الحمدُ.. حمدًا نبتغيهِ وسيلةً — إليكَ لتجديدِ اللطائفِ والبُشرىٰ
لكَ الحمدُ.. كمْ قلدتنا منْ صنيعةٍ — وأبدلتنا بالعسرِ -يا خالقي- يُسرا
لكَ الحمدُ.. كمْ منْ عثرةٍ قدْ أقلتنا — ومنْ زلةٍ ألبستنا معها سِترا

الآية إخبارٌ وطلب:

وإن تعجب لجمال التعبير القرآني فاعجب لهذه الجملة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾.. فقلِّب الطرف فيها، وأعمل قوانين علم المعاني فيها.. هل المراد منها: الإخبار عن حمد الله لنفسه العلية؟ أم المراد منها الطلب من عباده أن يحمدوه؟ أم أن معناها: وصف حالة العباد الصالحين في شكر رب العالمين؟

كل ذلك مرادٌ من هذه الجملة المباركة.. فهي إخبارٌ من الله عن حمد الكون له -تقدس ذكره-، وهي في الوقت ذاته طلبٌ من عباده، أراد -عزَّ شأنه- أن يُعَلِّم عبادَه كيف يشكرونه، فالمعنىٰ: قولوا الحمد لله رب العالمين، وهذا أسلوبٌ عربيٌّ معروفٌ، ومنه قول الشاعر:

وأَعلمُ أَنَّني سأَكونُ رَمسًا إذا سار النَّواعجُ لا يسِيرُ
فقالَ السّائلون: لِمنْ حَفَرتُمْ؟ فقال المـُخبِرون لهم: وزيرُ

أي: فقال المخبرون لهم: الميت وزير...فبين الطبري أن قول الله تعالىٰ ذكره: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ حُذف منه كلمة (قولوا)، واستدل علىٰ هذا المحذوف بقوله -جلَّ وعزَّ-:﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، فإن هذه الآية تفيد أن ما سبق من الآيات كانت تعليمًا من الله لعباده، ليقولوا: الحمد لله..إياك نعبد[(١)].

وإذا كان الحمد هو الثناء، وهو هيئة الشكر علىٰ ذلك الكمال، والإحسان والعطاء، فقد حاول فقهاء اللغة أن يكيفوا العلاقة بين الحمد والشكر، وذكروا أن بينهما عمومًا وخصوصًا وجهيًا:

فالحمد أعمُّ من الشكر؛

إذ إن الحمد هو الثناء علىٰ الله لأمرين:

لكماله الذاتي، فهو الله الكامل العلم، الكامل الحياة، الكامل القدرة، الكامل الخبرة، الكامل الرحمة...

ولإحسانه المتعدي: فهو الله الذي وهبنا كل هذه النعم، وصرف عنا أسوأ المصائب والنقم.

---

(١) تفسير الطبري١/ ١٤٠، والنواعج الإبل السائرات.

أما الشكر فهو الثناء علىٰ أحد للسبب الثاني فقط: وهو الإحسان كما قال الناظم:

الشكر صرف العبد ما أولاهُ   مولاهُ من نُعماهُ في رضاهُ

والشكر أعم من الحمد من جهة المتعلَّق، فالحمد يكون بالقول غالبًا ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل:٥٩]، أما الشكر فهو فعلٌ يشعر بتعظيم الـمُنْعِمِ بسبب الإنعام والإكرام، وذلك الفعل يكون بالجَنان، وقد يكون باللسان، وقد يكون بالجوارح والأركان:

فبالجنان يكون فعل القلب، وذلك باعتقاد أنه موصوفٌ بصفات الكمال والإجلال.

وباللِّسان بأن يذكر ألفاظًا دالَّةً علىٰ أنه موصوفٌ بصفات الكمال.

وبالأركان -أي: بجوارح الإنسان- بأن يقوم بأفعالٍ تدلُّ علىٰ أن الـمُنْعِمَ موصوفٌ بصفات الكمال والإجلال.

وعَرَّفَ ابنُ القيم الشكر بأنه :«ظهور أثر نعمة الله علىٰ لسان عبده: ثناءً واعترافًا، وعلىٰ قلبه: شهودًا ومحبة، وعلىٰ جوارحه: انقيادًا وطاعة»[1]، ولذا قيل:

أفادتكم النَّعماءُ مني ثلاثةً   يدي ولساني والضميرَ الـمُحَجَّبا

وما كان شكري وافيًا بنوالكم   ولكنني حاولت في الجهد مذهبا

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٢٣٤.

البَصِيرَةُ السَّادِسَةُ

{الحمد لله} أجمل ما تتزين به الأفواه ويردده القانت الأواه

أتريد إعلام الإنسانية بجمال الحمدلة؟ اسمع إلىٰ هذه الوجوه التي تبين آفاقها النورانية:

فأما الوجه الأول: فالحمدلة تعكس الجمال والكمال في المحمود، والسعادة وراحة البال في الحامد؛ فإن ما ينبثق من هذه الكلمة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ من نور العلم لَيَضْمَنُ لك تبديد السحب المخيفة المرعبة من الظلمات، فيا لَقوة هذه الجملة وعظمتها ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾.

أرأيتَ ما تعني كلمة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾؟ إنها تعني أن كلَّ صفة كمالٍ –تستحق الثناء والمدح–تختص بالله تعالىٰ الذي تجلت آياته في الكون. فما نال نائلٌ شيئًا إلا ممن له كلُّ شيء، وبه كل شيء، فمنه الحياة وبه العلم، ومنه القدرة، وبه الإرادة، ومنه الرحمة، ومنه الرأفة.

أرأيتَ المخلوقَ الذي يعلم أنه خُلِقَ بأمر ربه المستحق للحمد هل ينوبه شيءٌ من نوائب اليأس والقنوط والحرمان الموسوس؟ علىٰ عكس من يرىٰ أنه خرج إلىٰ الدنيا من «اللاشيء»، وأنه يعود لا شيئًا بعد ما فارق دنياه.. أرأيت كم تخبئ هذه الجملة الفريدة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾من المعاني النضرة، والفلسفة العميقة؟.

وأنت عندما تقرأ القرآن المجيد وفق ترتيب سوره ستجد أن الحمدلة أولىٰ الباقيات الصالحات ذكرًا في القرآن الكريم، فلماذا قُدِّمتْ عليها جميعًا؟ الجواب: لأنها أصل الأذكار، فالحمد دالٌّ علىٰ الثناء، والثناء يكون:

تارةً بإثبات الكمال المطلق لله، وهذا هو معنىٰ: (الله أكبر)،

وتارةً يكون بالاعتراف بالعجز عن الإدراك والحِراك، وهذا هو معنىٰ: (لا حول ولا قوة إلا بالله).

وتارةً يكون بالتعظيم، ونفي النقص، وهذا هو معنىٰ: (سبحان الله)، فـ(سبحان اللَّهِ) تدلُّ علىٰ كونه تامًّا كاملًا في ذاته، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تدلُّ علىٰ كونه مكمِّلًا متمِّمًا لغيره.

وتارةً يكون بإثبات استحقاقه للعبادة دون سواه، وهذا معنىٰ: (لا إله إلا الله).

والكلمات الأربع (سبحان الله، والله أكبر، ولا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله) كلها ترجع إلىٰ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ**»(١).

والباقيات الصالحات أحد أعظم الكنوز التي قُدمت للبشرية في دنياها، وقد علمها النبي ﷺ أمته، وحثها علىٰ ترديدها، فهي ملجأ المرء وملاذه إذا ضاق أمره، فقد جاء أعرابيٌّ إلىٰ النَّبِيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله، علِّمنِي خيرًا، فأخذ النَّبِيُّ ﷺ بيده فقال: «قل سبحان الله، والحمد للَّه، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر». قال: فعقد الأعرابيُّ علىٰ يده ومضىٰ فتفكَّر ثمَّ رجع، فتبسَّم النَّبِيُّ ﷺ قال: «تفكَّر البائس»، فجاء فقال: يا رسول الله، (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر) هذا للَّه فما لي؟ فقال له النَّبِيُّ ﷺ: «يا أعرابيُّ إذا قلت: سبحان الله، قال الله: صدقت، وإذا قلت: الحمد لله، قال الله: صدقت، وإذا قلت: لا إله إلَّا الله، قال الله: صدقت، وإذا قلت: الله أكبر، قال الله: صدقت، وإذا قلت: اللهمَّ اغفر لي، قال الله: فعلت، وإذا قلت: اللهمَّ ارحمنِي، قال الله: فعلت، وإذا قلت: اللهمَّ ارزقني، قال الله: قد فعلت»،

---

(١) مسلم ١/ ١٤٠.

قال: فعقد الأعرابِيُّ علىٰ سبعٍ في يده ثمَّ ولَّىٰ[١]، وعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «الذين يذكرون من جلال الله من تسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله يتعاطفن حول العرش لهن دوىٰ كدوي النحل يُذَكِّرْن بصاحبهن. ألا يحب أحدكم أن لا يزال له عند الله شيء يذكر به؟»[٢].

وأما الوجه الثاني: فمن جمال ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أنها ثمانية أحرف، وأبواب الجنَّة ثمانيةٌ، فيرجىٰ أن تكون جميعًا مفتوحةً لمن ردَّدَها بصفاء نفسٍ، وصدق عزمٍ، وجمال إقبالٍ، وقوة إخلاصٍ... اللهم فاجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

لكَ الحمدُ يا مستوجبَ الحمدِ دائمًا ... علىٰ كل حالٍ حمدَ فانٍ لـدائمِ
وسبحانكَ اللـهمَّ تـسبيـحَ شاكرٍ ... لـمعروفكَ المعروفِ يا ذا المراحمِ
فكم لكَ منْ سترٍ علىٰ كلِّ خاطئٍ ... وكمْ لكَ منْ بـرٍّ عـلىٰ كلِّ ظالمِ
وجودُكَ موجودٌ، وفضلكَ فـائضٌ ... وأنتَ الذي تُرجىٰ لكشفِ العظائمِ
وبابكَ مفتـوحٌ لكـلِّ مؤمـلٍ ... وبـرُّكَ ممنوحٌ لكـلِّ مصارمِ

إنها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تملؤك بأعظم السكينة، وتمنحك أجمل المشاعر.

إنها الكلمة التي تحبوك بأبهىٰ زينة، وتُمِدُّك بالفضل العظيم الغامر..

إنها الكلمة التي تَفيض بالرضا، وتنقلك لتتصل بمخلوقات الله في السهل والبحر والجبال والغابات والفضا.

---

(١) البيهقي في الشعب٢/ ١٣٣، الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٥/ ١٢) عن أنسٍ رضي الله عنه، وذكره الألباني في الصحيحة برقم٣٣٣٦، وفي صحيح الترغيب والترهيب علىٰ أنه حسن لغيره.

(٢) مسند أحمد بن حنبل(٤ / ٢٦٨)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح غير موسىٰ بن مسلم الطحان فمن رجال أصحاب السنن عدا الترمذي وهو ثقة.

هناك تُحِسُّ بمجد الله فتقول: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، وتشعر بفضل الله فتقول: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، وتتنعم بنعم الله فتقول: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، وتأنس بحكمة الله، ورحمة الله، وعفو الله، وقدرة الله المقترنة بوده وحبه وذكره لمن يذكره، فلا تملك إلا أن تقول: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾.

إليك، عظيــمَ العفو، أشكو مواجعي ... بدمع علىٰ مرأىٰ الخلائق لا يجري
ترحّل إخواني.. فأصبحتُ بعدهم ... غريبًا.. يتيمَ الروح والقلب والفكرِ
لك الحمد.. والأحبابُ في كل سامر ... لك الحمد.. والأحباب في وحشةِ القبرِ

وأما الوجه الثالث: فالحمد لا حصر لعدده، فنحن نقول (الحمد لله).. فكم مقدار هذا الحمد؟

ألا ترىٰ -أيدك الله- أن الآية أطلقت الحمد دون تحديد.. ليتَصَوَّره العبد مديدًا لا ينقضي ولا يبيد، فلا يُحصيه العدد، ولا يحيط بعدده غيرُ الله أحد؛ ولذا تفنن الصالحون في (حَمْدِ الله) في جميع الأحوال، وكانت عبارة سيد البشر في ذلك أبهىٰ من الشمس والقمر، فمن ذلك تعليمه ﷺ جمال المحامد للصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فها هو أبو أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: رآني النَّبِيُّ صلَّىٰ اللَّهُ عليه وآله وسَلَّم وأنا أُحرِّك شفتيَّ، فقال: «ما تقول يا أبا أمامة؟». قلت: أذكر اللَّه، قَالَ: «**أفلا أدلُّك علىٰ ما هو أكثر من ذكرك اللَّه اللَّيل مع النَّهار؟ تقول:**

الحمد لِلَّه عدد ما خلق، والحمد لِلَّه ملءَ ما خلق، والحمد لِلَّه عدد ما في السَّماوات وما في الأرض، [والحمد للَّه ملءَ ما في السَّماوات وما فِي الأرض]، والحمد للَّه عدد ما أحصىٰ كتابه، والحمد لِلَّهِ ملءَ ما أحصىٰ كتابه، والحمد لِلَّه عدد كلِّ شيءٍ، والحمد لِلَّه ملءَ كلِّ شيءٍ» . وتسبِّح اللَّه مثلهنَّ.

ثمَّ قال: «**تعلِّمهنَّ عقبك من بعدك**»[(١)].

وكان النبي ﷺ يقول في تلذذه وتفننه في حمده لربِّه إذا رفع رأسه من الرُّكوع: «رَبَّنَا لك الحمد ملءَ السَّموات والأرض، وملءَ ما شئت من شيءٍ بعد، أهل الثَّناء والمجد، أحقُّ ما قال العبد، وَكُلُّنا لك عَبدٌ. اللَّهمَّ لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدُّ»[(٢)].

وأقر النبي الخاتم ﷺ أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ علىٰ التفنن في الحمد، فعن رفاعة بن رافعٍ الزُّرقيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنَّا يومًا نصلِّي وراء النَّبِيِّ ﷺ، فلمَّا رفع رأسه من الرَّكعة، قال: سمع اللَّه لمن حمده، قال رجلٌ وراءه: رَبَّنَا ولك الحمد، حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه [كما يحب ربنا ويرضىٰ]، فلمَّا انصرف، قال: «من المُتكلِّم؟» قال: أنا، قال: «رَأيتُ بِضعةً وثلاثين مَلَكًا يبتدرونها، أيُّهم يكتبها أوَّلًا»[(٣)]، وهذا الاتفاق في الصيغة بين حمد الصحابي، وحمد النبي ﷺ من التوفيق العزيز الذي يختص الله به من يشاء.

وأما الوجه الرابع: فقد علمنا الله أن نقول ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهي أبلغ من (أَحْمَدُ الله)؛ لأن الله حَمِد بذلك نفسه قبل حمد الحامدين له، فلو قال: (أَحْمَدُ اللَّهَ) أفاد كون ذلك القائل قادرًا علىٰ حمده، أمّا لَمَّا أتىٰ بالجملة الاسمية ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الدالة علىٰ الدَّوام والثَّبات، أفاد ذلك أنَّه كان محمودًا قبل حمد الحامدين، وقبل شكر

---

(١) ابن خزيمة١/ ٣٧١، وحسنه الأعظمي، ابن حبان٣/ ١١١، وحسن إسناده الأرناؤوط، المعجم الكبير للطبراني (٧/ ٢٧٣)، وذكره الألباني في الصحيحة برقم٢٥٧٨.

(٢) مسلم٢/ ١٨٥ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ورواه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٢/ ٤٧، والـجَدُّ: الغنىٰ، أي لا ينفع الغنيَّ غناه، بل طاعته مولاه.

(٣) البخاري١/ ٢٠٢، والزيادة عند الترمذي٢/ ٢٥٤، وجمع ابن حجر -رحمه الله- بين الروايات بأن ذلك كان بعد الركوع حيث وقع للصحابي عطاسٌ، والقيد هنا ليس بلازمٍ، فيقولها الإنسان مطلقًا في مواضع الحمد، فهي كلماتٌ يحبها مَن في السماء.

الشَّاكرين، فهؤلاء سواءٌ أحمدوا أم لم يحمدوا وسواءٌ شكروا أم لم يشكروا فهو تعالىٰ محمودٌ من الأزل إلىٰ الأبد، ويزيد ذلك وضوحًا أن (ال) في ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ **تأتي لثلاثة معانٍ:**

المعنىٰ الأول: الاختصاصُ اللَّائقُ حيث لا يليق الحمد الحقيقي إلَّا لله، ويعبر عن ذلك بعضهم بالعهد أي أن الحمد المعروف المعهود بينكم لا يكون إلا لله.

المعنىٰ الثاني: الْمِلْكُ فحمدهم مِلكٌ له، فهو الذي أنعم عليهم بالحمد.

المعنىٰ الثالث: الاستحقاقُ، وسأنبئك بوجه ذلك في هذه الصيغة الخبرية (الْحَمْدُ لِلَّهِ)؛ إذ تقتضي أَنَّ الْحَمْدَ وَالثَّنَاءَ حقٌّ لِلَّهِ، فهو تَعَالَىٰ الْمُسْتَحِقُّ لِلْحَمْدِ، وغيره لا يستحق الحمد إلا تبعًا له. أما لَوْ قيل: (أَحْمَدُ اللَّهَ) فلا يَدُلّ ذَلِكَ عَلَىٰ كَوْنِهِ مُسْتَحِقًّا لِلْحَمْدِ لِذَاتِهِ، كما أن صيغة (أَحْمَدُ اللَّهَ) تتصاغر أمام قولنا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ لأن الحامد بالجملة الاسمية ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كأن صاحبه يقول بلسان الحال والمقال: مَنْ أَنَا حَتَّىٰ أَحْمَدَهُ سبحانه؟ فهو مَحْمُودٌ بِجَمِيعِ حَمْدِ الْحَامِدِينَ.

كما أن اللام تدل من حيث السعة علىٰ الجنس والاستغراق:

فالجنس يعني أن جنس الحمد ملك لله، فهو تَعَالَىٰ مَحْمُودٌ بِكُل حمدٍ صدر أو ظهر، والاستغراق يدل علىٰ أن جميع المحامد لله سبحانه، فله الحمد لظهور سلطانه، وله الشكر لوفور إحسانه(١).

وجلَّىٰ فضيلة الشيخ محمذن فال بن متّالي الشنقيطي -رحمه الله- ذلك بقوله:

وال بحمد ربنا الرَّزاق ... محتمل العهد والاستغراق
فالعهدُ أن الله لما علما ... بعجزِنا عن حمدِه الذي سَما

---

(١) لطائف الإشارات = تفسير القشيري (١/ ٤٥).

حمد نفسَه تعالىٰ في الأَزل ثم دعا لحمدِه عزَّ وجلّ
ومعنىٰ الاستغراق عند العلما أنَّ جميع الحمدِ لله انتمىٰ
معنىٰ جميعه: الضروب الأربعة أي: حادثاهُ وقديماهُ معه
أما القديمان: فحمد الحق لنفسه، ولصفاتِ الخلق
والحادثان: حمدنا للوالي وحمدُ بعضنا لبعضٍ تالي

ولبيان سعة الاستغراق للحمد الإلهي تجد أن الله افتتح خلق الكون بالحمدلة في أول الفاتحة، وافتتح إنزال القرآن بها في قوله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ [الكهف:١]، واختتم ميزان العدل الإلهي في الآخرة بها، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

ولهذا الافتتاح والاختتام بالحمد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآنِ - أَوْ تَمْلأُ - مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ»(١).

وانظر كيف أظهر في مقام الإضمار فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بعد البسملة فصرح مرة أخرىٰ باسمه العلم الأجل الأكرم، وهو (الله)، ولم يقل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ليلفت النظر إلىٰ جمال اللفظ، وجلال المعنىٰ بترسيخ ذكر الاسم الجليل في القلب بعد أن تَعَرَّفَ إليه من خلال البسملة سابقًا.

وتأمل كيف يبين النبي ﷺ رجوع المحامد لله، وتنوع أفعاله الشاملة للحياة بما يجعل الخلائق يحمدونه في كل اتجاه، فقد روىٰ عُبَيْدُ بْنُ رِفَاعَةَ الزُّرَقِيِّ عن أبيه قال: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَفَأَ الْمُشْرِكُونَ، قَالَ: رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآله وسَلَّمَ: «**اسْتَوُوا حَتَّىٰ أُثْنِيَ عَلَىٰ رَبِّي**»، فَصَارُوا خَلْفَهُ صُفُوفًا، فَقَالَ: «**اللهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ،**

(١) مسلم: ١/ ١٤٠.

اللهُمَّ لَا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ، وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ، وَلَا هَادِيَ لِمَا أَضْلَلْتَ، وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ، وَلَا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ...»(١).

وأما الوجه الخامس: فالحمد عبارةٌ عن صفة القلب، ما معنىٰ أن يكون الحمد صفة للقلب؟

معناه: أنك عند تحمد الله بلسانك تعتقد أن الله المحمود كان ولم يزل متفضِّلًا منعِمًا مستحقًّا للتَّعظيم والْإجلال، فإذا حَمِدَ الإنسان ربَّه بصيغة (أحمد الله) مع أنَّ قلبَه غافلٌ عن معنىٰ التَّعظيم اللَّائق بجلال اللَّه فهو مقصِّرٌ ويُخشىٰ أن يكون كاذبًا؛ لأنَّه عندما حمد -وهو غافل- يخبر عن نفسه أنه حامد، وهو لم يقم بما ينبغي أن يقوم به من الحمد اللائق بجلال الله، وهنا يعلمنا الله المخرج من ذلك بأن نقول ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فيكون معناها: الحمد لله ثابت دائم، فسواءٌ كان الحامد غافلًا أم مستحضرًا لمعنىٰ التَّعظيم فإنَّه يكون صادقًا؛ لأنَّ معناه أنَّ الحمد حقٌّ للَّه، وملكٌ له(٢).

والحمدلة بصيغتها التي في الفاتحة تقتضي ثلاث مقتضيات:

المقتضىٰ الأول: (الفضل):

فهي تدل علىٰ فضل الله علىٰ العالَم، فقد تفضل الله فخلق العالَم، وكرَّم بني آدم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، ثم تفضل فما أراد بخلق الكون إلا الخير له، فلم يخلق العالمين عبثًا، ولا تركهم سدىٰ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧].

---

(١) أحمد (٣/ ٤٢٤)، وقال الهيثمي في المجمع: "رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (٦/ ١٢٢)".

(٢) تفسير الرازي١/ ١٩١، التحرير والتنوير (١/ ١٥٧).

المقتضىٰ الثاني: إقرار الحامد بأن المحمود هو الإله الحق الذي له صفات العظمة، كالمشيئة والإرادة والرحمة والكرم، فالحمدلة إقرارٌ بالألوهية، وإقرارٌ باستحقاق المحمودِ صفات الجلال والإكرام، واعترافٌ له بالفضل والإنعام، وحديث جواب الله لعبده عند قراءته (الفاتحة) علىٰ ثلاث مراتب في تعظيم الله تعالىٰ: الحمد، والثناء، والتمجيد:

فالحمد يؤدي إلىٰ المرتبة الثانية في القرب من الله تعالىٰ، وهي مرتبة الثناء بقول العبد ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، والثناء يؤدي إلىٰ المرتبة الثالثة وهي التمجيد بقول العبد ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، وقد ذكر النبي ﷺ أن سورة الفاتحة تحتوي علىٰ هذه المراتب الثلاث حيث قال: «فإذا قال العبد: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله: أثنىٰ عليّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ قال الله: مجدني عبدي».

المقتضىٰ الثالث: الطمأنينة والراحة والسكينة؛ فإنها إحدىٰ الوسائل العظيمة المريحة للنفس عند تكرارها لتعبر عن شكر العبد لربه حيث يردد: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ في كل مقامٍ، فهو يشعر بترديده ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ أن الله هو مصدر المحامد والمحاسن كافة، وهو صاحب الصفات العليا والكمالات المثلىٰ، كما قيل:

لك الحمد.. والأحلامُ ضاحكةُ الثغرِ ... لك الحمد.. والأيامُ داميةُ الظُفرِ
لك الحمد.. والأفراح ترقصُ في دمي ... لك الحمد.. والأتراح تعصف في صدري[1]

ولله ما قاله بعض المتعبدين في الشعور بجمال حمد الحامدين:

ربِّ لك الحمدُ لا أُحصي الجميلَ إذا ... نفثتُ يومًا شَكاةَ القلب في كُرَبِ!
فلا تُؤاخِذ إذا زلَّ اللسانُ، وما ... شيءٌ سِوىٰ الحمدِ في الضَّراءِ يَجْمُلُ بي

(١) لغازي القصيبي -رحمه الله-.

لك الحياةُ كما تَرضىٰ. بشَاشتُها فيما تُحبُّ، وإن باتت علىٰ غضبِ
رضيتُ في حُبِّك الأيامَ جائرةً فعلقَمُ الدَّهرِ إن أرضاكَ كالعَذِبِ

المقصد الثالث

التعريف بأهم أهداف خلق العالمين: الرحمة بهم، وهو أهم أهداف الرسالة الإسلامية ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

بعد الشعور بالتربية الإلهية للخلق يتكرر هذان الوصفان العظيمان لخالق الكون ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾..

وهنا سنحاول أن نتدبر سر هذا التكرار، فهذا التكرار لهاتين الصفتين يلفت النظر لدرجة عظيمة؛ إذ ما سره؟ فإن التكرار تفهم حكمته في الكلام المفصل أما أن يرد في الكلام المختصر المختزل فلا بد له من حكمة غير حكمة التأكيد، وتتلخص حكمة التكرار في تدبري في البصيرة الأولىٰ:

المقصد الثالث: التعريف بأهم أهداف خلق العالمين: الرحمة بهم، وهو أهم أهداف الرسالة الإسلامية ﴿الرَّحۡمَـٰنِ الرَّحِيمِ﴾ (الفاتحة :٣).

البصيرة الأولى

إشاعة الرحمة ونشرها أساس الإرادة الإلهية لخلق الوجود وإرسال الرسل بالرسالة الإسلامية، فهي أهم الأهداف في الرسالة الإسلامية

البصيرة الثانية

الرحمة في التَصَوُّر الإسلامي مطلوبةٌ غايةً ووسيلةً، وابتداءً وانتهاءً

البصيرة الثالثة

حقيقة الخلق والأمر هي الرحمة الإلهية، وإن ظهر من بعض صورها غير ذلك

البَصِيرَةُ الأُولَى

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تدل على أن إشاعة الرحمة أهم أهداف خلق الطبيعة ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وإنزال الشريعة

حاول كثير من المفسرين أن يستكشفوا الحكمة من التكرار لهذين الوصفين ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في البسملة وفي الآية الثالثة، والذي يظهر لي أن الله ذكر هذين الوصفين في البسملة للتعريف بأساس صفاته، ثم أعاد ذكرهما في الآية الثالثة بعد ذكر تربيته للعالم في الآية الثانية لبيان أن أعظم أهداف خلق العالم، الرحمة بالعالمين، وهو أهم أهداف إرسال الرسل وإنزال الكتب، وبذا يمكننا القول:

لماذا يربي الله العالم؟ يربيهم لأنه الرحمن الرحيم، فذكر الله هذين الوصفين بعد الحمدلة والتربية في الآية الثانية ليبين أنَّ الرحمةَ أعظمُ أهداف الرسالةِ الإسلامية التي يُربِّي بها العالَم، وكأن الله تعالىٰ لما قال مبينًا تربيته لعباده: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ربما تساءل السامعُ فقال: بما أنه رب العالمين أي خالق الطبيعة وبقية المخلوقات ومربيها، والتربية تعني فِعْلَ الأصلح، وهذا يقتضىٰ الحزم والشدة أحيانًا، فما الغالب في صفات رب العالمين؟ عندها تستنشق عبير الجواب في الفاتحة ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، إنه يبين لك أن مراده من التربية الرحمة..

ولماذا ذكر ملكه ليوم الدين في الآية الرابعة بعد هذين الوصفين في الآية الثالثة؟ لأنه الرحمن الرحيم في الحياة الأخرىٰ كما هو الرحمن الرحيم في الحياة الأولىٰ.

إن التَكرار الذكريُّ لهذين الوصفين العظيمين يزيد في الشعور الغامر برحمة الله في عقل المسلم بالتكرار الفعلي؛ إذ يكرر المسلم قراءة هذين الوصفين الجليلين أربعًا وثلاثين مرة في اليوم في الصلوات الخمس، فيملأ ذلك عقله وقلبه بشعورٍ مفعمٍ بعَظَمَة التَصَوُّر الإسلامي للرحمة، فالرحمة أساس التشريعات والنظم

الإسلامية، وهدف تطبيقاتها، فرسالة المسلمين في العالم خلاصتها الرحمة، وفي سورة (الأنبياء) ذكر الله قصص الأنبياء: إبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ وغيرهم -عليهم الصلاة والسلام-، ثم بين الله خلاصة رسالة الإسلام التي جاء بها كل الأنبياء، ومنهم النبي الخاتم ﷺ علىٰ وجه الخصوص، فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

والرحمة (للعالَم) أعظمُ من الرحمة (بالعالَم)؛ لأن هذا التعبير ﴿رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ يقتضي نشر الرحمة بين أجزاء العالم المليئة بالظلم والفساد والقسوة، لتكون الرحمة ثقافة العالم، وطبيعته؛ ولذا فإن من أعظم ما تُبَيِّنُه البسملة أن «العقيدة الإسلامية رحمةٌ، رحمةٌ حقيقية للقلب والعقل، رحمةٌ بما فيها من جمالٍ وبساطة، ووضوحٍ وتناسقٍ، وقربٍ وأنسٍ، وتجاوبٍ مع الفطرة مباشرٍ عميقٍ»[(١)]، فالشرع إنما وضع للمصلحة الإنسانية، والرحمة بعامة البشرية، وما وجد فيه من تكاليفَ شاقَّةٍ -كالحدود- فهي تعود في أصلها إلىٰ الرحمة، والحفاظ علىٰ الحياة كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: ١٧٩]، ومن ذلك قول الشاعر:

فقسا ليزدجروا، ومن يك راحمًا ... فليقسُ أحيانا علىٰ مَنْ يُرحمُ[(٢)]

ولله المثل الأعلىٰ؛ إذ من رحمته بخلقه أن جعل العقوبة علىٰ المجرم ليكفَّ عن إجرامه، وإفساده في الأرض، ومن رحمته بالبشرية أن أزال عناصر الإفساد بينهم بحكمته.

---

(١) في ظلال القرآن١/ ٢٤.

(٢) من قصيدة لأبي تمام في ديوانه (ص: ٢٠٤) مطلعها:

أرضٌ مصردةٌ وأخرىٰ تثجمُ ... منها التي رزقتْ وأخرىٰ تُحرمُ

ورواية البيت المذكور في الديوان:

فقسا لتزدجروا ومنْ يكُ حازمًا ... فَليَقْسُ أحيانًا وحينًا يَرْحَمُ

وبعد هذا نسأل بوضوحٍ: لماذا يُصِرُّ المعاندون والجاهلون وأبواق الإعلام الحاقد علىٰ التخويف من النظم التشريعية في الشريعة الإسلامية، وهي لم تنزل إلا رحمةً بالخلق، وحرصًا علىٰ مصالحهم؟ لماذا يفر الناس مما فيه مصلحتهم وراحتهم وسعادتهم؟.

لا نبالغ إن قلنا: إن من يُنَفِّر من الشريعة، ويستخدم الإرهاب الإعلامي لصد الناس عنها إنما يحاول تدمير حقوق الإنسان ومصالحه، ويسعىٰ كي يبغي الحياة عوجًا، ويُدَمِّرُ أجملَ الفرص التي أُتيحت للناس للحصول علىٰ السعادة.

وهناك معنىٰ آخر لتكرار وصف الله بالرحمة يتضح منه سعة الرحمة الإلهية لتشمل الدنيا والآخرة؛ فأنت ترىٰ أن الله ذكرهما في الآية الأولىٰ (البسملة) قبل ذكر العالمين (الحياة الدنيا) ليؤكد علىٰ غلبة الرحمة في صفاته قبل خلق العالمين (الحياة الدنيا)، وذكرهما في الآية الثالثة قبل ذكر يوم الدين في قوله ﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ (الحياة الأخرىٰ) ليبين أن الرحمة هي الغالبة في حساب يوم الدين في الآخرة، ويتآزر ذلك لبيان إرادة الله الرحمة بالكون والخلق؛ إذ ذكرها قبل ذكرهم وبعد ذكرهم.

فماذا ترىٰ بعد ذلك؟ إن أهم أهداف المسلمين العالمية دينًا وأمةً ودولةً الرحمة للعالم وبالعالم، والرحمة الإسلامية محيطة بالكون: خلقًا للمادة والحركة، وبيانًا لهدف التشريع والإنزال والعبادة، ونشرًا لها بين العالمين، وأول من يجب أن يتفيأ ظلال هذه الرحمة هو المسلم، فلا يعقل أن يزعم المسلم أن الإسلام دين الرحمة للعالمين، ثم يحرم منها أقرب الناس إليه ممن أسلم وجهه لله.

وإذا كنا قرننا أن ذكر ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في البسملة لتحديد أهم صفات الله وأساسها، وأن ذكر الوصفين في الآية الثالثة لبيان أساس الشريعة الإسلامية؛ فإننا

ينبغي أن ندرك هنا أمرًا آخر هو أن الله جعل هذه الآية الثالثة آيةَ الثناء الأعظم في السورة؛ فالله -تعالىٰ ذكره- يقول فيها مجيبًا لعبده عند نطقها: «أثنىٰ عليَّ عبدي»، ومع أن كل الآيات الأربع ثناء علىٰ الله تعالىٰ إلا أن الله -تعالىٰ ذكره- خصَّ هذه الآية بوصف قائلها بالثناء عليه، وذلك ليوضح جمالَ التَصَوُّر الإسلامي، وأن نظامه رحمة كونية كما سبق في البسملة، فالرَّحمةُ عبارةٌ عن التَّخلِيص من أنواع الآفات، وإيصال الخيرات إلىٰ أصحاب الحاجات..

بل إن الرحمة تُمَثِّل العلاقة بين الله -تعالىٰ ذكره- وبين خلقه، فتأمل ذلك في سورة الفاتحة؛ ستكتشف أن الله أحاطهم برحمته، فجعلها لهم في الابتداء كما هي منه في الجزاء، فلما قال العبد في بداية الأمور: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ كان ذاكرًا لله بذلك فاسْتَحَقَّ الرَّحْمَةَ، فكوفئ بإظهار الوصف بالرحمة في البسملة حيث كانت تتمتها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ .

وَكذلك لما قال في خواتيم الأمور: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كان بذلك لله شاكرًا فاستَحقَّ رَحمةً أُخرىٰ، فتكرر وصف الله بعدها بالرحمة فقال الله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾.

فهو سبحانه رَبّ العالمين، وعباده الْمَرْبُوبُونَ ضُعَفاء محتاجون مساكين، وهم يرون احتِيَاجَهُم للرَّحمةِ وَاضِحًا، ويجدون تلهفهم لها باديًا لائحًا، فجاءهم بالآية التي أغاثت قلوبهم، وحققت مطلوبهم حيث قال: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ .

قارن هذا التصور الإسلامي المجيد الذي يأخذ الأنفاس لمفهوم الرحمة الإلهية مع غيره من الأديـان! فالرب الإله في الإسلام لا يطارد عباده مطاردةَ الخصوم والأعداء، كما تذكر الأساطير والخرافات الإغريقية عن آلهة الأولمب الوثنية في

نزواتها وثوراتها وصراعاتها، والرب الإله الحق في الإسلام لا يدبر لهم المكائد الانتقامية ابتداء[١]..

قارن هذه الرحمة الواسعة بما ورد في «العهد القديم» حول أسطورة برج بابل في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين:

٦ **وقال الرب:** هو ذا شعبٌ واحد، ولسانٌ واحد لجميعهم، وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه. ٧ هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتىٰ لا يسمع بعضهم لسان بعض. ٨ فبددهم الرب من هناك علىٰ وجه كل الأرض، فكفوا عن بنيان المدينة. ٩ لذلك دُعِي اسمها بابل. لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض، ومن هناك بددهم الرب علىٰ وجه كل الأرض.

(١) وأما قوله -تعالىٰ مجده-: ﴿ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٣، القلم:٤٥] وأمثالها من الآيات فالمراد المشاكلة جزاء لهم علىٰ أفعالهم المجرمة، وليس الإيذاء ابتداء، ولذا قلنا بأن الرحمة هي أساس الصفات، فتفسر سائر الصفات والأفعال الإلهية وفقها.

البصيرة الثانية

الرحمة في التَصَوُّر الإسلامي مطلوبةٌ غايةً ووسيلةً، وابتداءً وانتهاءً

قد رأيتَ -أيدك الله- أنا استنبطنا البصيرة السابقة من التكرار لهذين الاسمين الجليلين، والآن تعال بنا لنستنبط هذه البصيرة من خلال عظَمَة معنىٰ الاسمين الجليلين: الرحمن والرحيم؛ فقد ذكر أهل العلم أقوالًا متعددةً في الفرق بين هذين الاسمين العظيمين، **ومن هذه الأقوال:**

القول الأول: الرَّحْمَنُ: هو الْمُنعِمُ بِمَا لَا يُتَصَوُّر صُدُورُ جِنْسه من العباد، وَالرَّحِيمُ: هو الـمُنعِمُ بِمَا يُتَصَوُّر جنسه من العباد.

القول الثاني: هو تعالىٰ رحمنٌ؛ لأَنَّه يَخلُقُ ما لا يقدر العبد عليه، رحيمٌ لِأَنَّه يفعل ما لا يقدر العبد علىٰ جِنسِهِ، فكَأَنَّه تعالىٰ يقول: أنا رَحمنٌ لِأَنِّي أوجدتك نُطفَةً مَذِرَةً، ثم جعلتك صُورةً حسنةً، كما قال تعالَىٰ: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ [غافر:٦٤]، وأنا رحيمٌ لأَنَّك تُسلِّمُ إليَّ طاعةً ناقصةً فأُسلِّمُ إليك جَنَّةً خالصةً[١].

القول الثالث: الرحمن رحمانٌ بالمسلمين والكافرين والخلق أجمعين، والرحيم زيادة اختصاص بإعطاء رحمةٍ ومَزيةٍ للمؤمنين؛ ولذلك قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب:٤٣].

القول الرابع: اسم (اللَّهُ) يُوجِبُ وِلَايَتَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وَاسم (الرَّحْمَن) يُوجِبُ مَحَبَّتَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦] وَاسم ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ يُوجِبُ

---

(١) كثير من هذه الفوائد الجليلة في تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١/ ١٥٤).

رَحْمَتَهُ ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الْأَحْزَابِ: ٤٣].

القول الخامس: قيل: الرحيم الذي يُنعم بدقائق النعم، وتفاصيلها، والرحمن ينعم بجلائل النعم، وعظائمها.

وبما أنه لا يوجد دليلٌ فصلٍ يحسم بين تلك الأقوال؛ فيمكن تصحيح كل تلك المعاني؛ لأنه لا تعارض بينها، وهذا التنوع في فهم الفرق بين الاسمين يبين لنا اتساع مجالات الرحمة؛ فلم تتنوع الأوصاف لموصوفٍ واحدٍ في صفةٍ واحدةٍ إلا لتدل علىٰ عظمة هذا الوصف وغلبته وأصالته، بل ولتدل علىٰ اتساع مجالاته، فالرحمة تكون في الوسائل كما هي في الغايات، وتكون في المبادئ كما هي في العواقب، وتكون في المقدمات كما هي في النتائج، وتكون في الشرائع والنظم والشعائر والمسؤوليات كما هي في الجزاء والثواب والمكافآت، وتكون في الصغائر والخفي من المسائل، كما هي في العظائم والجلي من أمور الحياة.. ويلخص السهيلي ذلك فيقول: «وفائدة الجمع بين الصفتين ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الإنباء عن رحمةٍ عاجلةٍ وآجلةٍ، وخاصةٍ وعامةٍ»[1]، وسئل أَبو الْعَبَّاسِ بْنُ عَطَاءٍ: إِلَامَ تَسْكُنُ قُلُوبُ الْعَارِفِينَ؟ قَالَ: «إِلَىٰ قَوْلِهِ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ؛ لِأَنَّ فِي بِسْمِ اللَّهِ هَيْبَتُهُ، وَفِي اسْمِهِ الرَّحْمَنِ عَوْنُهُ وَنُصْرَتُهُ، وَفِي اسْمِهِ الرَّحِيمِ مَوَدَّتُهُ وَمَحَبَّتُهُ، ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ هَذِهِ الْمَعَانِي فِي لَطَافَتِهَا فِي هَذِهِ الْأَسَامِي فِي غَوَامِضِهَا»[2].

وهذان الاسمان العظيمان يدلان علىٰ صفتين عظيمتين إذا افترقا اجتمعتا، وإذا اجتمعا افترقتا، فإذا ذُكِر أحدهما فقط دل علىٰ المعنىٰ الذي في الآخر، وإذا ذُكِرا معًا دلَّ كل منهما علىٰ معنىً خاصٍّ به.

(١) بدائع الفوائد ص ٢٨.

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٠/ ٣٠٢).

وهنا قد تسأل -عمر الله أيامك بالسعادة والعبادة- لماذا قدَّم الله اسمه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ علىٰ اسمه ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾؟ ولعل الجواب يكمن في أن الله حرَّم علىٰ الناس أن يَتَسَمَّوا ببعض أسمائه كالرحمن والخالق بخلاف غيرها من الأسماء كالسميع والبصير، فقدَّم الاسم الخاص به دون جميع خلقه، ليعرف السامعُ مَنْ تَوجَّه إليه الحمد والتمجيدُ، ثم يُتبع ذلك بأسمائه التي قد تسمىٰ بها غيره، وبذا تشيع الرحمة بين الخلق، فكل من رَحِمَ انسكبت عليه رحمةٌ تملأ حياتَه، وتبارك أوقاتَه وأقواتَه، وقد أنشد أبو القاسم بن عساكر في ذلك فقال:

بادر إلىٰ الخير يا ذا اللب مغتنمًا	ولا تكن من قليل العرف محتشمًا
واشكر لمولاك ما أولاك من نِعمٍ	فالشكر يستوجب الإفضال والكرما
وارحم بقلبك خلق الله وارعهم	فإنما يرحم الرحمن من رحما[1].

(١) شرح صحيح البخاري لشمس الدين السفيري في المجلس السابع والعشرين ص ١١.

البَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ

حقيقة الخلق والأمر هي الرحمة الإلهية، وإن ظهر من بعض صورها غير ذلك

وعندما نصل إلىٰ هذا الحد من تقرير الرحمة ربما انبعث سائلٌ صاحبٌ قائلًا مزمجرًا: كيف تزعمون أن رحمة الله عامةٌ وأنتم تنظرون إلىٰ الحوادث المؤلمة التي تصيب البشرية، وتبكي منها الإنسانية، سواء أكانت حوادث كونية، أم حوادث بسبب رعونة الإنسان؟

ولعلَّ من مسالك الصواب أن نطلب من صاحب السؤال أن يستمع إلىٰ الجواب، ولا يأخذ نفسه بالضجيج الذي يصحب هذا السؤال عادةً؛ إذ إن مثل هذا السؤال كان مفتاحًا لعالم الرياضيات (جيفري لانغ Gwffery Lang) للدخول في الإسلام، وألف كتابه (الصراع من أجل الإيمان Struggling to Surrender) وذلك بناء علىٰ تجربته التي بها أبصر نور الحقيقة في القرآن.. نعم هو تساءل كما يتساءل أي إنسان عن سر وجود الآلام في الحياة، وهل ينافي ذلك أن الله هو الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء؟.

إن الرحمة هي الهدف الحقيقي من الأفعال الإلهية الكونية (الخلق) والتكاليف الشرعية (الأمر)، أما الإجابة المختصرة علىٰ السؤال فتتضح من خلال الأمور المرتبة الآتية:

الأمر الأول: الْحَوَادِث التي تحدث للعباد قسمان:

القسم الأول: ظاهره الرحمة وباطنه العذاب، كالْوَالِد إذا أَهمَلَ وَلَدهُ حتَّىٰ يفعل ما يشاءُ ولا يُؤَدِّبُهُ.

القسم الثاني: ظاهره العذاب وباطنه الرحمة، كَالوَالِدِ إِذَا حبس وَلَدَهُ للعلم،

والإنْسانِ إذا وقع في يده مرض الآكِلةُ (التي تسبب تآكل الجسد)، فإذا قُطعت تلك اليد فهذا في الظَّاهر عذابٌ، وفي الباطن راحةٌ ورحمةٌ.

فكل ما وجد من المصائب فهو لصالح بني الإنسان بالنظر إلىٰ اختبار العاجلة ونتائج الآجلة، فالغافل يَغْتَرُّ بِالظَّوَاهِرِ، وَالْعَاقِلُ يَنْظُرُ إلىٰ الحقائق ولو كانت من السَّرَائِرِ، وينظر لها بعين بصيرته: فالظواهر التي يُظنُّ أنها منافيةٌ للرحمة هي الرحمة بعينها عند سبر أغوارها، ومعرفة حِكَمِها وأسرارها، هل تريد مثالًا؟

أقرب مثالٍ لهذا الباب قصَّةُ موسىٰ والخضر -عليهما السَّلام-، فإنَّ موسىٰ كان يبني الحُكم علىٰ ظواهر الأمور، وَأمَّا الخضر فإنَّهُ كان يبنِي أَحكامهُ علىٰ الحقائق والأسرار، ولذا قال الخضر عليه السلام لـمَّا أبان الحق، وأظهر الحِكَم والأسرار: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢]، واللافت للنظر أن هذه القصة الرائعة تمثل القدر بحذافيره[١]؛ إذ ترىٰ فيها الخضر عليه السلام الذي يمثل القدر الغيبي الذي لم يستطع عظيم مثل موسىٰ عليه السلام أن يصبر عليه، وقد وصف الله الخضر بما يصلح أن يكون وصفًا للقدر ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، فكلمة﴿ عَبْدًا ﴾تدل علىٰ ملك الله، وكلمة ﴿رَحْمَةً ﴾ تدل علىٰ الأصل في أفعال الله.. إنه الأصل في قدره، وكلمة﴿عِلْمًا ﴾ تدل علىٰ العلم الذي يغيب عن المشاهدة.

إن كلَّ مَا فِي العالم من محنةٍ وبلِيَّةٍ وألمٍ ومشَقَّةٍ فهو ذو حكمةٍ ورحمةٍ في الحقيقة -وإن كان عذابًا في الظَّاهر-، فوجود المصائب والحوادث يكون لحكمةٍ خاصةٍ تعود في حقيقتها إلىٰ الرحمة:

ويكفي لبيان ذلك ذكر هذه النماذج من الأحاديث العظيمة المبينة لبعض

(١) أي بأسره، حذافير الشيء: أعاليه ونواحيه. يقال: أعطاه الدنيا بِحَذافيرِها، أي بأسرها، الواحد: حذفار. الصحاح (٢/ ٦٢٦).

الحِكَم من المصائب الدنيوية، فعن الأَسْوَد بن يزيد النخعي قال: دخل شبابٌ من قريشٍ علىٰ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهي بِمِنًىٰ، وهم يضحكونَ، فقالت: مَا يُضْحِكُكُم؟ قالُوا: فُلانٌ خرَّ علىٰ طُنُبِ فُسطاطٍ[١]، فكادت عُنُقُهُ أو عَينُهُ أن تذهب. فقالت: لا تضحكوا؛ فإنِّي سمعت رسول اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**ما من مُسلمٍ يُشَاكُ شوكةً فما فوقها إلَّا كتبت له بها درجةٌ، وَمُحِيت عنه بها خطيئةٌ**»[٢]، وعنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما ضرب علىٰ مؤمنٍ عرقٌ قط إلا حط الله عنه خطيئة، وكتب له حسنة، ورفع له درجة»[٣]، وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يود أهل العافية يوم القيامة -حين يُعطىٰ أهل البلاء الثواب- لو أن جلودهم كانت قُرِضَتْ في الدنيا بالمقاريض**»[٤].

الأمر الثاني: التكاليف وضعت للمصلحة الإنسانية وإن كانت خلاف الأهواء والشهوات:

فهي كما قَالَ تَعالَىٰ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، وتَركُ الخير الكثير لأجل الشَّرِّ القليل شرٌّ كثِيرٌ، فترك التكاليف لأنها تقيد الرغبات والأهواء يؤدي إلىٰ شرور الضيق والبؤس والعناء، وانظر إلىٰ حال الناس لو تركوا التقيد بنظام المرور لموافقة أهوائهم في السرعة كيف يكون حالهم، وكذلك الالتزام بالتكاليف الشرعية

---

(١) الطنب: حبل الخِباء أو السرادق، والفسطاط: الخيمة العظيمة أو البناء العظيم، والمراد أنه تعثر بحبل الخيمة، فسقط.

(٢) مسلم ٨/ ١٤.

(٣) المعجم الأوسط٣/ ٥٦، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد٣/ ٣٤، وجوَّد إسناده ابن حجر في فتح الباري١٠/ ١٠٥.

(٤) الترمذي٤/ ٦٠٣، وقال: "غريب لا نعرفه إلا بهذا الإسناد"، وعلىٰ القول بضعفه يغني عنه أو يشير إليه قوله تعالىٰ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، والمقاريض جمع مقراض، وهو آلة القطع كالمقص المعروف الآن. انظر: مختار الصحاح (ص: ٢٥١).

التي تكون أنظمة المرور مثلًا أحد أصغر ملامحها.

الأمر الثالث: من الرحمة خلق النار؛ فإن المقصود من خلقها صرف الأشرار إلىٰ الأعمال الصالحة الإيجابية المثمرة.. إلىٰ أعمال الأبرار.

إن وجود العقوبة الدنيوية والأخروية تساعد العصاة والفاسقين ليتركوا أعمالهم السيئة خوف العقوبة المتوقعة، وبذا يتم جذبهم أو دفعهم لا ليفكروا في العقوبة العاجلة الزائلة بل في العقوبة الآجلة التي يدوم ألمها، وتضيع الآمال في جحيم عذابها.. هاهنا ترىٰ الخلائق يفرون إلىٰ ربهم، ويعيدون صياغة حياتهم وفق ما يُصلح الأرض وينفع الناس، لا وفق الأنانيات الشخصية، والطمع الفردي، والحظ ذلك بصورةٍ واضحةٍ رائعةِ الترتيب، شائقة الأسلوب في سورة الليل من أولها حتىٰ تصل إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٤ - ١٨].

وهذه -أيدك الله بتوفيقه- ملامح يسيرة تبين لك شمول الرحمة، وعظمتها في التصور الإسلامي، فاشدد يديك بحبل الرحمن الرحيم؛ فقطرةٌ من رحمته تزيل كل عناء، وتجلب كل هناء، فقد وصف نفسهُ بكونه رحمانًا رحيمًا، ثمَّ إنَّه أعطىٰ مريم -عليها السَّلام- رحمةً واحدةً حيث قال: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١]فتلك الرَّحمةُ صارت سببًا لِنَجاتِها من المكروهات. أفلا يَصِير ذكر الرَّحمة في اليوم والليلة أربعًا وثلاثين مرةً -علىٰ الأقل- طُولَ العمر سببًا لِنجاة المسلمين من النَّار والعار والدَّمارِ إذا نطقوها بقلبٍ خالصٍ ويقينٍ صادقٍ؟[1].

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١/ ٢٠٢).

المقصد الرابع

التعريف بقصة نهاية العالم الدنيوي، وتطبيق العدل الإلهي الكامل ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾

وتُبَيِّنُ هذا المقصدَ الآيةُ الرابعة، وهي آيةُ الملك الأخروي ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾، فنهاية هذا العالم هو (يوم الدين)، فهو قصة النهاية للحياة الأولىٰ، وقصة البداية للحياة الحقيقية الأخرىٰ.. وبين الحياتين صلةٌ واضحةٌ: فالأولىٰ تبني طريق الأخرىٰ، وبذلك نعرف الجواب عن السؤال الكوني الوجودي: (إلىٰ أين؟).. وكل تفاصيل ذلك تلوح في هذه الآية العظيمة ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾..إنها الآية التي تثبت ركن الإيمان باليوم الآخر، ويظهر فيها البصائر والأنوار الكلية الآتية:

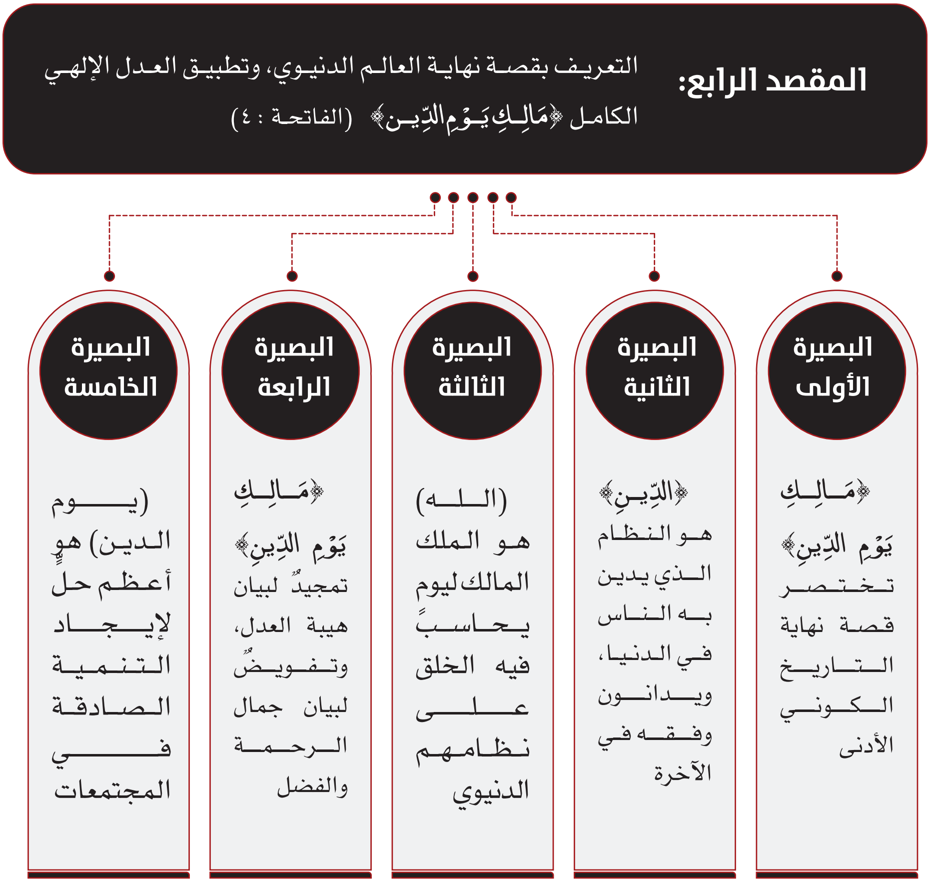

البصيرة الأولى

﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ تختصر قصة نهاية التاريخ

تأمل في المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما قبلها، لترىٰ هذه الآية تبين قصة النهاية.. إنها تتكلم عن قصة نهاية الكون في الحياة الدنيا.

فالآيات السابقة ذكرت قصة البداية راسمةً ثلاث بصائر كلية:

فالبصيرة الكلية الأولىٰ رسمتها آية البسملة، وهي تتكلم عن قصة البداية العالمية للكون مادةً ونظامًا ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

والبصيرة الكلية الثانية رسمتها آية الحمدلة، وهي تتكلم عن كلية التربية للعالمين إيجادًا، وإعدادًا، وإمدادًا، وإيفادًا، وإرشادًا، وإسعادًا ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

والبصيرة الكلية الثالثة رسمتها آية الرحمة، وهي تتكلم عن كلية اقتران الخلق والتربية بالرحمة ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

فجاءت هذه الآية.. آيةُ الملك الأخروي ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ لتبين قصة الحق في الكون كله: حيث تبرز في هذه الآية قصة النهاية للكون المنظور، وبدء الحياة الحقيقية التي تترتب علىٰ البداية الاختبارية في الدنيا، فالبداية اختبارٌ علىٰ تطبيق مقتضيات تربية العالمين، ونهاية هذا العالم هو (يوم الدين)، ففيه يظهر العدل الكامل، حيث ﴿تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وكما أن الله رحمن رحيم بهم في الطبيعة فهو رحمن رحيم بهم في المآل والمصير.

إذن أصبحنا نعرف الجواب عن السؤال الكوني الوجودي: (إلىٰ أين نذهب، وإلىٰ أين المسير والمصير؟).

فانظر كيف رسمت هذه الآيات المعدودات معالم الحل للمشكلة الفلسفية العميقة التي يثيرها الدهريون والوثنيون.. ألم يقل أحد الحائرين ممن تاه عن هذه المعاني:

جئتُ لا أعلم من أين ولكني أتيتُ
ولقد أبصرتُ قدّامي طريقًا فمشيتُ
وسأبقىٰ ماشيًا إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئتُ؟ كيف أبصرت طريقي؟
لست أدري!
أتراني قبلما أصبحت إنسانا سويّا
أتراني كنت محوًا أم تراني كنت شيئًا
ألهذا اللغز حلٌّ أم سيبقىٰ أبديّا
لست أدري ... ولماذا لست أدري؟
لست أدري!
أوراء القبر بعد الموت بعث ونشور
فحياة فخلود أم فناءٌ فدثور
أكلام الناس صدقٌ أم كلام الناس زور
أصحيح أن بعض الناس يدري
لست أدري(١)

.. لا تترك هذا المسكين التائه، وأخبره أنك تـدري.. تدري البداية الكونية

---

(١) هذا الحائر إيليا أبو ماضي، ومن قبله قال الحائر عمر الخيام:

لبستُ ثوب العمر لم أُسْتَشَرْ وحرت فيه بين شتّىٰ الفِكَر
وسوف أنضو الثوب عني ولم أدركْ لماذا جئتُ أين المقر.

الأولىٰ، والنهاية التي تؤسس للبداية الحقيقية الأخرىٰ، واتل عليه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، وقل له:

إنّني أدري وأدري لِمَ يا هذا أتيتُ
جئتُ عبدًا لإلهِ الكونِ. ويلي إنْ عصيتُ
جئتُ مخلوقًا بأمرِ الله بالدُّنيا ابتُليتُ
كلّ ما في الكونِ مثلي عن مرادِ اللهِ يدري
جاهِلٌ من قال يومًا: لستُ أدري لستُ أدري
كلُّنا للهِ ماضٍ فشقيٌّ وسعيدُ
وقريبٌ في هناءٍ وقصيٌّ وبعيدُ
حِكمةٌ لله فينا إنّهُ الربُّ الحميدُ
ضلّ من لمْ يدرِ شيئًا، واهتدىٰ من كان يدري
هذه الدّنيا ستمضي فمماتٌ فنشورُ
فحِسابٌ فنعيمٌ، أو عذابٌ وسعيرُ
لخلودٍ قدْ خُلِقنا هكذا قال القديرُ
فلهُ الحمدُ فلولا فضلهُ ما كنتُ أدري
كيف بعد الهدىٰ نهذي
لست أدري لستُ أدري[(١)]

ويمكن القول: إن هذا المقصد بمحاوره يؤسس للبناء الحيوي الصحيح، ويبين الشفاء من الأمراض المادية، والأدواء الفكرية، والثقافية، من خلال الثناء علىٰ أرحم الرحماء.

---

(١) للدكتور/ عبد الخالق الزهراني.

وتأمل كرةً أخرىٰ في الاتصال بين هذه الآية وما قبلها، فكأنك ترىٰ البشرية لما أيقنت بعظيم رحمة الله البارزة في تكرار ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في الآية الأولىٰ والثالثة طمع فيها الجميع حتىٰ الكافرون.

فربما تساءل السامع: فهل الرحمة تقتضي عدم الحساب، وهل الرحمة تقتضي ترك الخلق يفعلون ما يشاؤون من الأهواء والرغبات التي قد تؤدي إلىٰ الفساد في الأرض؟ عندها يجيء الجواب مبينًا قصة النهاية: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

فكما أن الرحمة والحمدلة يقتضيان الفضل، فإن الملك والحساب يقتضيان العدل، فَذِكْرُ الرحمةِ قبل آية ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ يدل علىٰ وجود الرحمة في الآخرة كما هي موجودةٌ في الدنيا، بل بيَّن النبي ﷺ أنها أعظم، ولكن وجود الرحمة لا يعني عدم وجود الحساب الذي يقتضي الثواب أو العقاب..

وتلخص لنا من ذلك أن ذكرَ الرحمة المأخوذة من الآية قبلها تفتح باب الآمال فيما عند الله من النعيم والإفضال، وذِكْرُ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ بعدها يقطع الأهواء، ويُحَرِّرُ العبد مما تسببه محرمات الشهوات من الإذلال؛ إذ قد تمتد إليها النفوس معتمدةً علىٰ الرحمة السابقة الغالبة، فلذا ذكر الدين بمعنىٰ الجزاء ليكون العبد علىٰ حذرٍ من العاقبة. فانظر إلىٰ هذا الجمال في كلام الملك المتعال.

البَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ

﴿ٱلدِّينِ﴾ هو النظام الذي يدين به الناس في الدنيا، ويدانون وفقه في الآخرة

هذه الآية المتلألئة المباركة ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ تنور العقل العالمي بمصطلحٍ إسلاميٍّ رائعٍ ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، ولبيان هذه البصيرة العظيمة لا بد من بيان معاني كلمة ﴿ٱلدِّينِ﴾ التي وردت في هذه الآية ، فهذه الآية عبارة عن ثلاث كلمات:

اسمٍ مضافٍ هو (مالك) وقد أُضيف إلىٰ قوله ﴿يَوۡمِ﴾، وهو مضافٌ أيضًا إلىٰ قوله ﴿ٱلدِّينِ﴾[١]، وسنبدأ ببيان الكلمة الثالثة وهي المضاف إليه الثاني مع مضافه، ثم نعود لبيان الكلمة الأولىٰ معهما لتستبين الفاتحة واضحةً، فكلمة ﴿ٱلدِّينِ﴾ تأتي في العربية علىٰ ثلاثة معانٍ:

المعنىٰ الأول: دانه أي ملكه وحكمه وساسه، ودبَّره وقهره، وحاسبه وجازاه وكافأه:

فهي تدور علىٰ الملك والتصرف والمحاسبة، فيكون معنىٰ ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أي يوم المحاسبة والمجازاة والإدانة، ومن ذلك قول الله تعالىٰ: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات:٥٣] أي محاسبون علىٰ أعمالنا، وظهر هذا المعنىٰ فيما رواه شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**الكَيِّسُ من دان نفسه**»، ثم قال الترمذي: ومعنىٰ قوله: (من دان نفسه) حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يُحاسب يوم القيامة[٢]، فدان نفسه أي: حكمها وضبطها، والديَّان القاضي والحاكم.

المعنىٰ الثاني: دان له أي: أطاعه وخضع له، فالدين هو النظام الذي يتم الخضوع

---

(١) "مالك" نعت لله تعالىٰ مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة علىٰ آخره، وهو مضاف، "ويوم" مضاف إليه مجرور بالإضافة وعلامة جره الكسرة الظاهرة علىٰ آخره، وهو مضاف، "الدين" مضاف إليه مجرور بالإضافة وعلامة جره الكسرة الظاهرة علىٰ آخره..

(٢) الترمذي (٤ / ٦٣٨)، وقال: هذا حديث حسن.

له، والقانون الذي يتبعه الإنسان في حياته، وهذا المعنىٰ ملازمٌ ومطاوع للأول، تقول: دانه أي: دبره وساسه، فدان له أي: فخضع له وأطاع، ويدل لهذا المعنىٰ قول المثقب العبدي:

إذا ما قمتُ أَرْحلُها بليلٍ ... تأوَّهُ آهـةَ الرَّجلِ الحزيـنِ
تقولُ إذا دَرأْتُ لها وَضِيني ... أهـذا دينـهُ أبداً وديني؟
أكلَّ الدَّهرِ حلٌّ وارتحالٌ ... أما يُبقي عليَّ وما يقيني!

المعنىٰ الثالث: دان بالشيء أي اتخذه دينًا ومذهبًا فاعتقده أو اعتاده، فالدين هنا بمعنىٰ: المذهب والطريقة والنظام والمنهج المتبع في الدنيا، وهذا المعنىٰ تابعٌ للمعنيين الأولين.

تلك المعاني التي يدور حولها لفظ (دان)، ولك أن تجمع بينها فتقول: دانه (أي حكمه بمنهج معين)، فدان له (أي خضع واتبع)، فصار هذا دينه أي صار نظامًا يتبعه الخاضع، وهو نظام المخضوع له، فكلمة ﴿ٱلدِّينِ﴾ عند العرب تشير إلىٰ علاقةٍ بين طرفين يُعَظِّم أحدهما الآخر، فإذا وُصِف بها الأول كانت خضوعًا وانقيادًا، وإذا وصف بها الثاني كانت أمرًا وسلطانًا، وحكمًا وإلزامًا، وإذا نظرنا إلىٰ الرباط الجامع بين الطرفين كانت هي الدستور المنظم لتلك العلاقة[١]، وبذلك يتضح أن كلمة ﴿ٱلدِّينِ﴾ تجمع بين معنيين: المنهج والجزاء في الوقت ذاته.

ومعنىٰ ذلك أن الدين عبارةٌ عن منهجٍ كاملٍ، ونظام متكامل يسوس الله به عباده؛ حيث أَمَرَ الأنبياء بتبليغه الخلق ليدينوا له به، فيجدوا سعادتهم وانسجامهم مع الكون من حواليهم.

فيكون المراد بيوم الدين: يوم الحساب والجزاء علىٰ الدِّين والمنهج والنظام

---

(١) الدين لدراز ص٢٩.

المتبع في الدنيا، ونقلت العرب هذا المعنىٰ فقال يزيد بن الصعق الكلابي:

واعْلَمْ وأيْقِن أنَّ مُلكك زائلٌ واعلمْ بأنَّك ما تدِينُ تُدانُ[(١)]

ومثله قال الفند الزِّمَّانِيِّ:

فلـمَّـا صـرَّح الشَّـرُّ فأمسىٰ وهو عُريَانُ
ولَم يَبقَ سِوىٰ العُدوَا ن دِنَّاهُمْ كما دَانُوا[(٢)]

أي جَازَيناهُم علىٰ صُنعِهِم كما صَنعُوا مُشَاكَلَةً، أو كما جَازَوا من قَبلُ إذ كان اعتِدَاؤُهُم ناشئًا عن ثأرٍ أيضًا[(٣)].

فيا أيها الإنسان! إنه الجزاء بناءً علىٰ الاختيار الإنساني السابق للهداية أو الضلالة الرعناء في دار الابتلاء، فها هو ربك -تعالىٰ ذكره- يمنحك حرية الاختيار، ولكنه يحمل عليها مسؤوليةً جسيمةً فيقول: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت:٤٠]، وهذه الآية تدل علىٰ أمرين مترابطين، فهي تتضمن التخيير والتهديد والتحذير أيضًا، أي: لكم حرية الاختيار في الدنيا، ولكنكم ستواجهون المصير الذي يقتضيه هذا الاختيار، فتذكروا المسؤولية المترتبة علىٰ اختياراتكم.

وبناءً علىٰ اختيار الدين (المنهج) في الدنيا يكون الدين (الجزاء) في الآخرة، ليكون الإنسان إما من السعداء، أو من الأشقياء.

---

(١) جمهرة اللغة٢/ ٦٨٨.

(٢) اتفاق المباني وافتراق المعاني ص١٩٢.

(٣) التحرير والتنوير (١/ ١٧٦)، وفي حاشيته: الفند لقبه، وأصل الفند بِكَسْر الْفَاء الْجَبَل، واسْمه شهل بن شَيبَان بشين مُعْجمَة، وَلَيْسَ فِي أَسمَاء الْعَرَب شهل بالشين الْمُعْجَمَة غيره، وَهُوَ من شعراء حَرْب البسوس، وَإِنَّمَا لقب الفند لِأَنَّهُ لما جَاءَ لينصر بني بكر بن وَائِل قَالُوا: مَا يُغني عَنَّا هَذَا الْهم- بِكَسْر الْهَاء- أَي الشَّيْخ، فَقَالَ لَهُم: أما ترْضونَ أَن أكون لكم فندا تأوون إِلَيْهِ؟ أَي معقلًا ومرجعًا فِي الرَّأْي وَالْحَرب.

البصيرة الثالثة

(الله) هو الـملك المالك ليومٍ يحاسب فيه الخلق على نظامهم الدنيوي

يا أيها الناس! هذه الآية تحدثنا عن صفةٍ عظيمةٍ لله بعد صفة الرحمة في الآية السابقة، فاستمعوا لها، فقد جمع الله فيها بين صفة الملَكية، والمالكية لأحداث يوم الدين، حيث يكون الحساب علىٰ الدين (المنهج والنظام) الذي اتبعه البشر في الدنيا.

ولك أن تتساءل: من أين جاءت الصفتان، وإن هي إلا آيةٌ واحدةٌ ذات كلماتٍ ثلاث﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾؟ نعم! إنه الإعجاز القرآني، فهاتان الصفتان (الملكية والمالكية) تجتمعان من القراءتين العظيمتين الواردتين في الآية:

فقد قرأ عاصم ويعقوب والكسائي وخلف العاشر -من القراء العشرة-: (مالك) بإثبات الألف بعد الميم، وقرأ الستة الباقون (مَلِك) بميمٍ ثم لامٍ دون ألفٍ بينهما، وتُصَوِّرُ كِلتا القراءتين مشهدًا فريدًا، ويتكامل المشهدان في بيان عظمة الله -تعالىٰ ذكره- مَلِكًا ومالكًا:

المشهد الأول: هو سبحانه ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾: من الـمُلك الذي يعني الحكم، فله الملك الكامل الذي يعني العلم الكامل، والقدرة المطلقة:

فأما العلم الكامل فيعني الإحاطة بكل ما يصدر عن العباد ولو كان أمراً خفيـًا نفسيا ﴿ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴾ [طه: ٧] فيكون عالمًا بكل صغيرةٍ من أفعال العباد مهما تضاءلت:

ولذلك يكون ذلك اليومُ يومًا شديدًا علىٰ الكافرين؛ إذ تُفضَح أعمالهم، وينكشف الزيف الذي ضللوا به العالمين في الدنيا، ويصف الله ملكه في ذلك اليوم

وصفًا يأخذ الأنفاس، وينبه قلوب الغافلين من الناس، فيقول: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]،

نعم! إنه الْمُلْكُ الحق.. وليس الـمُدَّعىٰ، ولا الزائف!

وبناءً علىٰ هذا العلم الدقيق يكون الحكم العدل من الـمُلْك، والله تعالىٰ يقرر هذه الحقيقة، فيقرن بين الحكم وعلم الغيب والشهادة، فيقول: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:٧٣]، ولا يذهبنَّ تفكيرك إلىٰ أن انتساب المؤمن لمجتمع المؤمنين، والكافر لمجتمع الكافرين يغني عن حقائق الأفعال، وخفايا القلوب؛ فإن الله -بناءً علىٰ هذا العلم بجلائل الأمور وخفاياها- يقيم ميزان العدل في ملكه الحق، حيث يروي عبد الله بن أُنيسٍ قال: سمعت النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**يحشر اللَّهُ العبَاد فَيُنَادِيهِمْ بِصوتٍ يَسمَعهُ من بَعُدَ كما يَسمعُهُ مَنْ قَرُبَ: أنا الْمَلِكُ، أنا الدَّيَّانُ،** [**ولا ينبغي لأحدٍ من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحدٍ من أهل الجنة حقٌّ حتىٰ أَقُصَّهُ منه، ولا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحدٍ من أهل النار عنده حقٌّ حتىٰ أقصه منه حتىٰ اللطمة**» قلنا: كيف وإنَّا إنما نأتي الله عز وجل عراةً غرلًا بُهْمًا[(١)]؟ -أي: لا أموال لنا يومئذٍ- فقال النبي ﷺ: «**بالحسنات والسيئات**»][(٢)].

وحسابه -تعالىٰ ذكره- في ذلك اليوم يكون علىٰ أدق الأشياء خيرًا أو شرًّا.. ولما استشعر بعضُ أصحابِ النبي ﷺ هذه الدِّقة العجيبة في الحساب أخذه إجلالٌ عظيمٌ لله، واعترته هيبةٌ ففزع إلىٰ التمجيد لربه، والعمل ليوم حسابه، فقد قرأ

---

(١) (غُرْلًا) جمع أغرل، وهو: غير المختتن، أي: ترجع قطعة الجلدة التي أخذت يوم الختان، وأما (بُهْمًا) أي: ليس معهم شيء.

(٢) البخاري معلقًا ٩/ ١٧٢، أحمد ٣/ ٤٩٥.

النبي ﷺ على صعصعة بن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عم الفرزدق قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧، ٨] فقال: حسبي، لا أبالي أن لا أسمع غيرها[١].

ويوضع في يوم الدين الكتاب الذي أُحصيتْ فيه كل الأعمال والأحوال والأخبار والأسرار، فيا لوعة النفوس، وهي ترى أعمالها مكتوبةً حاضرةً ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].. وما أبلغ ما وعظ به الأوزاعي -رحمه الله- أبا جعفر المنصور في هذه الآية حيث قال له: «يا أمير المؤمنين تدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدِّك -أي: ابن عباسٍ- ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩] قال: الصغيرة التبسم، والكبيرة الضحك، فكيف بما عملته الأيدي والألسن»[٢].. والوعتاه !! بل الصغيرة أوسع من ذلك إنها ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، فاللهم سلم سلم.

وأما القدرة المطلقة فتعني التصرف الكامل، ونزع التصرف من الآخرين:

ففي ذلك اليوم العظيم ينزع الله تعالى خاصية الاختيار التي أعطاها لبعض مخلوقاته في الدنيا كالبشر، وترجع أجسادهم وأعضاؤهم لتنطق عليهم بما صنعوا أمام الـمَلِكِ الحق، ولا يصبح للمخلوقات الكبيرة عظيم وزن فكيف بغيرها؟.

واستمع لأبي هُرَيْرَة وابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يذكران أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] ثم

---

(١) أحمد (٥ / ٥٩)، وصححه الأرناؤوط.

(٢) حلية الأولياء ٦/ ١٣٧.

قال: «يَقْبِضُ اللَّهُ الأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاوَاتِ بِيَمِينِهِ» فهذه هي المخلوقات العظيمة يصيرها الله كهباء، فكيف يكون حال البشر؟ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده ويحركها يُقْبِلُ بها، ويُدبِرُ، ثم قال: «**ثُمَّ يَقُولُ: أنا الملك أين مُلُوكُ الأرض، [أين الملوك؟ أين الْجَبَّارُون؟ أين المُتكبِّرُون؟]**»، «يُمَجِّد الربُّ نفسَه [أنا الرحمن]، أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم، [أنا المتعال]»، فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتىٰ قلنا ليَخِرَّن به، [حتَّىٰ نظرت إلىٰ المنبر يَتَحَرَّكُ من أسفل شيءٍ منه حتَّىٰ إنِّي لأَقولُ: أَسَاقطٌ هو برسول اللَّه ﷺ][1] أي من شدة تأثر النبي ﷺ وانفعاله وهو يحكي عظمة ملك الله تعالىٰ يوم القيامة، وضعف الخلق أمامه، لا إله إلا هو، سبحانه.

وبناء علىٰ العلم الكامل والقدرة المطلقة يتم إصدار الحكم الأخير الفصل الذي لا معقب له، ولا استئناف بعده ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١١ - ١٥]، ويجتمع في ذلك اليوم أمام الملك الحق الظالمون والمظلومون، فما أدراك ما سيكون من أمرٍ تزيغ منه الأبصار، وترتاع منه جموع الغاوين، وتخاف منه طوائف المكذبين؟ ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥]، ويفصل الله ذلك فيقول: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [الحج: ٥٦، ٥٧].. إنه الحكم الفصل فيما صنعت هذه المخلوقات في فترة الاختبار والاختيار، فهو اليوم الذي ينتظره -بلهفةٍ- المظلومون والأبرار، ويخاف منه الظَّلَمةُ والفجار ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ

(١) البخاري (٦/ ١٥٨) عن أبي هريرة، مسلم (٨/ ١٢٦)، أحمد (٢/ ٧٢) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَ.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩]. وهناك ترىٰ جموع الخاسرين ذاهلة ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٤].

هيهات قد طُوِي الكتاب ألم يكن فيكم نبيٌ بالهداية مرسل

المشهد الثاني: هو سبحانه (مالكِ يوم الدين):

من المِلْك والمالِكية، أي هو المتملِّك للمنافع والذوات، وهو مالك الأشخاص والمخلوقات.. فالآن حصحص الحق، واستبان سبب الجمع بين الملك والمالك، فالمَلِك هو الذي يحكم، وربما لا يكون مالكًا للأرض مثلًا، والمالك هو صاحب الشيء، أو صاحب الذات، وربما لا يكون مَلِكًا، **ومما يبين ذلك أن نقرر أن الملوك والمالكين من المخلوقات لا يخلون من الحالات الآتية:**

الحالة الأولىٰ: يكون المالك مالكًا ولكنه لا يكون مَلِكًا، فأكثرُ الناس قد يكونون مالكين لبعض الذوات والمنافع، فربما امتلكوا بيوتًا أو عقارًا أو أموالًا، ولكن الواحد منهم –مع كونه مالكًا– لا يكون بالضرورة ملكًا.

الحالة الثانية: قد يكون مَلِكًا صوريًّا أي بغير مُلكٍ فليس له إلا الاسم، وليس له المعنىٰ ولا الحكم، كملوك بريطانيا المعاصرين، وكخلفاء بني العباس في فترة ضعف الخلافة العباسية، فكان قادة جيوشهم هم المتحكمين بهم، كالقائد المسمىٰ (وصيفًا) والقائد المسمىٰ (بغا)، وفي ذلك قيل:

خليفةٌ في قفصٍ بين وصيفٍ وبغا
يقول ما قالَا له كما تقول الببّغا

الحالة الثالثة: قد يكون مالكًا وملكًا في الوقت ذاته، وله الحكم المستبد القوي الذي يكاد أن يكتم الأنفاس، ولكنه مهما فعل لا يتحكم بذوات البشر مثلًا، ولو أراد لما استطاع؛ لأن أتباعه يمكن أن يخادعوه في أي لحظةٍ، فهو لا يسيطر علىٰ كامل

أفعالهم، ولا يتحكم بمشاعرهم وأفكارهم، ولا يستطيع أن يجعل أيديهم وألسنتهم وأرجلهم تتكلم بما كانوا يعملون دون إرادتهم.

فبين الله -جل جلاله- أن له كلتا الصفتين (الملكية والمالكية) علىٰ أكمل الوجوه، فهو الملك الحاكم المسيطر، وهو المالك للمنافع، والأشخاص، والذوات، والمشاعر والعواطف، بل تنطق له أعضاء الإنسان يوم القيامة، فهو الملِك المالك العظيم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢١-٢٠]. وبذلك يتضح الكمال في صفات ذي الكبرياء والجلال.

البصيرة الرابعة

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ تمجيدٌ لبيان هيبة العدل، وتفويضٌ لبيان جمال الرحمة والفضل

نستنبط هذه البصيرة من قوله -تعالىٰ ذكره- ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ لنجد فيها الجواب عن السؤال الذي يصطاد به الملحدون ضحاياهم.. يقولون: إن كان الله حقًّا فلماذا لا ينصر المظلومين؟ لماذا يترك المجرمين والمستكبرين يعيثون في الأرض فسادًا؟ الجواب لأنه مالك يوم الدين.. يوم الجزاء أما الدنيا فللاختبار والابتلاء.

فاسأل -أعزَّك الله- الذين يقرأون الكتاب عن الأسباب التي من أجلها يقول الله -تعالىٰ ذكره-: «مجدني عبدي»، وفي لفظٍ: «فوض إليَّ عبدي» عندما يقرأ العبد ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

فأما التمجيد فلأن القارئ عندما يقرأ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾؛ ينسب إليه -تعالىٰ ذكره- تحقيق العدل التام بين الخلائق في ذلك اليوم، فيوم الدين هو يوم القسط الأكبر، وإثباته من أعظم الأدلة علىٰ تمجيد الله..

إن هذه البصيرة المستنبطة من قوله ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وقول الله: (مجدني عبدي) تتضمن الجواب الخطير علىٰ سؤال الملحدين والسماعين لهم والمتعبين المظلومين في هذه الحياة عندما يرون مشاهد الظلم الرهيبة:

أين الله؟

إنه -تعالىٰ ذكرُه- سيُقيم العدل التام بعد أن حاول المعتدون العتاة العبث في الدنيا وإشاعة الظلم والإجرام، وإخفاء كل حقٍّ وخيرٍ وإحسانٍ وإنعامٍ، وظنوا أنهم مانعتهم ثراؤهم وثرواتهم وقواتهم ومؤسساتهم ومخابراتهم ومؤامراتهم من أن يُحاسبوا علىٰ

ما صدر منهم من إثمٍ وعدوانٍ، فيفاجؤون يوم الدين بمحاسبتهم أمام الملك الديان، يناديهم الحق -عزَّ وجلَّ-: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢٥، ٢٦]، ويتم الحساب الدقيق إحصاءً وسرعةً علىٰ كثرة المخلوقين: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٥١].

ولئن كان شيء ينبغي أن يزلزل نفسك ويهزها ويحركها فهو البيان القرآني المدهش الذي يقرر أن عرض الأعمال السالفة في الدنيا ينبغي أن يكون بينًا واضحًا مستنسخًا في كل جزئيةٍ، في بيانٍ يحرك المشاعر، ويقيم النفوس علىٰ جدية العدل في ذلك اليوم، حيث يقول الله -تعالىٰ ذكره- ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةًۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٢٨ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩].

إنه يوم القسط الأكبر الذي يمثل النتيجة الصادقة لمبدأ عدم عبثية الكون ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، فالقسط دليلٌ علىٰ تمجيد الله -جل في علاه-.

وبخلاف الموازين الدنيوية الظالمة؛ فلا يمكن أن تُظْلَمَ نفسٌ شيئًا مهما صغر أو قلَّ أو تضاءل ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وهذا يدل علىٰ تمجيد الله -تعالىٰ جَدُّه-؛ إذ مهما ظلم الظالم، وطغىٰ واستكبر المجرم الآثِم، وأُمِليَ له في الدنيا، فلم ينله عذابٌ فيها ولا مغارم، فليس لأنه علىٰ حقٍّ، ولا لأنَّ اللهَ عنه غافِلٌ، بل لأن الله -تعالىٰ ذكره- قد أنزل للناس بلاغًا ينذرهم بأنَّ هناك يومًا سيتم فيه العدل الذي لا يفوته أحدٌ من العالمين، وإنما الدنيا دار ابتلاءٍ مبينٍ؛ ولذلك يُحَذِّر الله الصغار والكبار، والأذكياء والأغرار، فيقول: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، فهذه

وظيفة اليوم الآخر، وغايته: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

أم حسب المجرمون أنهم سيُتركون على حالهم بعد الموت سُدىً.. بئس ما يتصورون ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١، ٢٢].

فإذا قرأت: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ مجدت الله الملك القدوس السلام، وأثنيت عليه بالحق والعدل التام.

وأما التفويض المستفاد من قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فلأن العبد ينتظر منه أعظم الرحمة والفضل في ذلك اليوم العبوس القمطرير، ويظهر التفويض بقراءة هذه الآية عندما نلاحظ الاتصال الخاص بين هذه الآية وما قبلها مباشرة، فالعبد قدَّم الثناء عليه سبحانه وتعالىٰ بقوله ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ثم انتقل إلىٰ يوم الدين، كأنه فوَّض لله تعالىٰ أمره، واعتقد أنه رحمن رحيم مع ملكه ليوم الدين.. هنا تعلم جمال الدعاء الذي علمناه النبي ﷺ عند النوم حيث تحتمل أن تكون نومة لا يقظة بعدها فتفوض أمرك إلىٰ الله وتقول: «**اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ لاَ مَلْجَأَ، وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ**»[(١)].

فإن كان النبي ﷺ رأىٰ رجلًا يتقلب في الجنة لأنه أزال شجرةً مؤذيةً من الطريق[(٢)]، فكيف بمن تلبس حاله بتوحيده، وأقبل علىٰ محبته وطاعته وتمجيده، ثم

(١) البخاري (١ / ٧١).

(٢) في صحيح مسلم (٨ / ٣٤) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ: « لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَانَتْ تُؤْذِى النَّاسَ ».

أثنىٰ عليه فقال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ كأنه يفوض أمره إليه؛ عسىٰ أن يحقق راحته وشرفه وذكره وفخره ورفعته. وهذا المعنىٰ أُشير إليه في عددٍ من الأحاديث منها:

ما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ، أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَىٰ وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللَّهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: مرَّ النبي ﷺ في نفرٍ من أصحابه، وصبيٌّ في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت علىٰ ولدها أن يوطأ؛ فأقبلت تسعىٰ وتقول: ابني ابني. وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار. قال: فخفضهم النبي ﷺ فقال: «**والله -عزَّ وجلَّ- لا يلقي حبيبه في النار**»(٢).

اللهم إنا نسألك حُبَكَ، وحبَّ من يُحبك، وحبَّ عملٍ يقربنا إلىٰ حبك، يا أرحم الراحمين... لكأن الله يقول(٣):

(عُبيدي) إن ترد درب النقاءِ ... وأن تُكفىٰ متاهاتِ الشقاءِ
فكن لي لا تكن عبدًا لغيري ... تدم ما دام عمرك في ارتقاءِ

---

(١) البخاري (٨/ ١٢٣)، و (مسلم٨/ ٩٦)، والهوامُّ: الحيَّاتُ، وكلُّ ذِي سم يقتلُ سمُّه، والمفرد هامَّةٌ، لأنَّها تهمُّ أي تدبُّ، والهميمُ الدَّبيبُ. تهذيب اللغة (٥/ ٢٤٨)، التلخيص في معرفة أسماء الأشياء (ص: ٣٨٩).

(٢) «فخفضهم» ضبط بالتشديد، أي: سكنهم وهون الأمر عليهم من الخفض، بمعنىٰ الدعة والسكون، كأنه عظم عليهم الإشكال، فخفض عليهم أمرهم بالجواب عنه.
والظاهر أن حاصل الجواب أنه أرحم الراحمين لأحبائه فلا يُلقي منهم في النار أحدًا. رواه أحمد (٣/ ١٠٤)، وصححه الأرناؤوط علىٰ شرط الشيخين.

(٣) شعر للأستاذ محمد المثيل.

وكن لي خالصًا لا ترجُ غيري ... وإن ملَّكتُه بعضَ الغِناءِ
فإني بالعطايا أبتليهِ ... وأمهلهُ إلىٰ يوم اللقاءِ
وإني لستُ أكرم من عصاني ... مُصِرًا ناسيًا دار البقاءِ
وبابي ليس يغلق أي حين ... متاحًا ما بقي دار الفناءِ
فعُد يا عبدي العاصي سريعًا ... تجد عندي مفاتيح الهناءِ
وإن نابتك في الدنيا صروفٌ ... وهاج الكرب حولك بالعناءِ
فلا تجزع فإني بالرزايا ... أُمحِّص مَن يليق بالانتقاءِ
فأسقيهِ وأعطيهِ هباتٍ ... يحار اللُّب مِن طيب العطاءِ
وإن أعرضتَ عن ذكري (عُبيدي) ... تعش ضنكًا وتبقىٰ في شقاءِ
فهذا النبعُ صافٍ من كتابي ... ففيه النورُ إكسير الشفاءِ
فخذه بقوة تحيا سعيدًا ... وترقىٰ في الكرامة والنماء

البَصِيرَةُ الخَامِسَةُ

﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ هو أعظم حلٍّ لإيجاد التنمية الصادقة في المجتمعات

يسألونك عن الحل والمخرج أمام انعدام الضمير الإنساني والعالمي، والحل يكمن في الإيمان الحق بهذه الحقيقة (يوم الدين).. هاهنا يسهل عليك أن تعلم لماذا جعل الإسلام الإيمان به ثاني أعظم الأسس الإيمانية والأمنية.

فهذه البصيرة تترتب علىٰ ما سبق؛ فإن أنت عرفت أن الدين معناه الجزاء علىٰ النظام المتبع، وعرفت أنه لا بد فيه من العدل، وطلبت فيه الفضل فعند ذلك تعلم أنه يجب عليك أن تراقب مثقال الذر من تصرفاتك.

ولتحقيق الإيمان بيوم الدين علىٰ المستوىٰ الجماعي، ولإصلاح الخلل في التسيب الوظيفي، أو الإهمال الاجتماعي يجب بناء الإعلام والتعليم حول (يوم الدين) بعد الإيمان بالله.

ولكن مهلًا.. في قوله تعالىٰ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ قد يتبادر السؤال إلىٰ ذهنك -أيدك الله-: لماذا قيد الله العظيم مُلكه ومالكيته بيوم الدين مع أنه ملك الدنيا والآخرة ومالكهما؟

والجواب: لحقيقتين:

الحقيقة الأولىٰ: لتعظيم يوم الدين، فكأن الدنيا لا تساوي شيئًا أمامه، ولذا جعله الله ثاني أهم الأسس في الخطاب الإعلامي والتعليمي بعد الإيمان بالله، لتقوم عليه تربية المجتمع في الخطاب الداخلي والخطاب العالمي؛ إذ يترتب علىٰ معرفة يوم الدين المستقبل الصادق، والحياة الحقيقية ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، فقوله ﴿لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: لهي الحياة الحقيقية التي لا زوال فيها ولا انقطاع، فالله مالك الدنيا وملكها، إلا أن الدنيا لا تساوي شيئًا مقارنة بالدار الآخرة، ولذا قال شيخ الإسلام إسماعيل المقري -رحمه الله-:

إلىٰ كم تَمَادىٰ في غُرورٍ وغفلةٍ … وكم هكذا نومٌ إلىٰ غير يَقظَةِ
لقد ضاع عُمرٌ، سَاعَةٌ منه تُشْترىٰ … بِملءِ السَّمَا وَالأَرْضِ أَيةَ ضيعَةِ
أَيُنْفَقُ هَذا في هوىٰ هذه التي … أبَىٰ اللهُ أن تُسوىٰ جناح بعوضةِ
أَترَضَىٰ من العيش الرَّغِيْد وَعِيْشَةٍ … مع المَلأ الأَعْلَىٰ بِعَيش البَهِيمةِ
أَفَانٍ بِباقٍ تَشتَرِيْهِ سَفَاهَةً … وسُخطًا برضوانٍ، ونارًا بجَنَّةِ

ويترتب علىٰ الإيمان بيوم الدين والخوفِ من سوء الحساب الاستقرارُ الأمني، والصدقُ الوظيفي، والسِلمُ الاجتماعي، والانضباط الإداري، والفزع القلبي من التقصير في الواجب، فينمو الضمير الذاتي، والمحاسبة الشخصية، ويتعزز الشعور بالمساواة بين بني آدم -عليه السلام-، وتختفي العنصريةُ والتميزُ والشعورُ بالعجب والكبر المدمر للنفسية الإنسانية كما قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]

كل هذا يتم بإحياء الإيمان باليوم الآخر، ويترتب علىٰ الإيمان باليوم الآخر إزالة أسوأ الأمراض الفردية والجماعية، المحلية والعالمية: إنه مرض الظلم، فمن آمن باليوم الآخر كيف يحلو له ارتكاب الظلم، واغتصاب الحقوق، وإنشاء ميلشيات الإجرام وهو يسمع قول رب الأنام: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩]، فالإيمان باليوم الآخر هو السلاح الأقوىٰ أمام استعراض القوىٰ الظالمة الغاشمة

لعضلاتها، وهو ما أراد النبي ﷺ تثبيته في لفت نظر أصحابه إلىٰ الاعتبار بأحوال الأمم، فعن جَابِرٍ رضي الله عنه قال: لَمَّا رجعت مُهاجرة الحبشة إلىٰ رسول اللَّه ﷺ، قال: «**أَلَا تُحَدِّثُونِي بِأعجب ما رأَيتُم بأرض الْحَبشة؟**»، قال فتيةٌ منهم: يا رسول اللَّهِ، بينا نحن جُلُوسٌ مَرَّت علينا عجوزٌ من عجائِزهم، تحمل علىٰ رأسها قُلَّةً[١] من ماءٍ، فمرَّت بفتًىٰ منهم، فجعل إحدىٰ يديه بين كتفيها، ثُمَّ دفعها علىٰ رُكبتيها، فانكسرت قُلَّتها، فلمَّا ارتفعت، التفتت إليه، ثمَّ قالت: ستعلم يا غُدَر إذا وضع اللَّه الكرسيَّ، وجمع الأوَّلِين والآخرين، وتكلَّمت الأيدي والأرجل بِما كانوا يكسبونَ، فسوف تعلم أمرِي وأمرك عندهُ غدًا، فقال رسول اللَّه صلَّىٰ اللَّه عليه وآله وسلَّم: «**صدقت، ثمَّ صدقت، كيف يُقَدِّس اللَّه قومًا لا يؤخذ لضَعِيفهِم من شديدهم**»[٢].

ولذا لا بد أن يكون هو الأساس الثاني بعد الإيمان بالله في مجالات النشر التعليمي والإعلامي والتربوي والتثقيفي، استعدادًا لما سيكون فيه، وإشاعةً لثقافة الإيمان به، واعتزازًا بهذا الإيمان، وبناءً للمواقف الفردية والجماعية علىٰ أساس ذلك، فـ «هذه الكلية تُعَدُّ مفرق الطريق بين العبودية للنزوات والشهوات، وبين الأَلَقِ في إثبات الوجه المشرق لإنسانية الإنسان..مفرق الطريق بين الإنسانية في حقيقتها العليا التي أرادها الله الرب لعباده، والصور المشوهة المنحرفة التي تبغي الحياة عوجًا، وتصر علىٰ مناقشة القضايا عنادًا في الطرح وعَرَجًا»[٣].. يوم الدين هو يوم الجزاء الكامل علىٰ المسؤولية الإنسانية في الدنيا، واستحضار ذلك مقدمٌ

---

(١) القلة: الجرة التي يوضع بها الماء، وهي المصنوعة من المدر.

(٢) ابن ماجه برقم (٤٠١٠)، وحسن إسناده البوصيري في زوائد ابن ماجه، وابن حبان في صحيحه (١١ / ٤٤٣)، وقال الأرناؤوط: "حديث قوي بشواهده".

(٣) في ظلال القرآن (١/ ٢٤).

علىٰ استحضار مدىٰ تحقق الانتصار أو السلامة الدنيوية عند المواجهات السياسية والثقافية والعسكرية.

فاسمع مثلًا كيف وصف الله المؤمنين بالحساب، القلقين من تبعات المسؤولية في اختبار الحياة الدنيا بأنهم البناؤون الحقيقيون للعالم، فهم لب المجتمعات، وقادة العلم الحقيقي الحافظ لأمنها فقال عنهم: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد:١٩ - ٢١]، فالمؤمن باليوم الآخر يعيش مشفقًا من الحساب يوم الدين، فيقطع هذا عنه الوَساوِس الشهوانية التي تسول له انتهاك الحرمات، أو تدمير المجتمعات، لأجل المناصب أو الأموال أو الرئاسة.. ولذا قال إبراهيم التيمي: «شيئان قطعا عني لذة الدنيا: ذكر الموت، والوقوف بين يدي الله».

إنه (يوم الدين) أعظم حلٍّ حقيقيٍّ لإيقاف الاستنزاف الإجرامي الذي يعيشه الإنسان المادي الشهواني الذي يفعل ما يشاء عندما تغيب عنه أعين الرقباء.. ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]

إنه (يوم الدين) أقوىٰ طريقةٍ لإيقاف الفساد المالي والإداري الذي تعاني منه المجتمعات بسبب الاحتيال علىٰ القوانين، أو بسبب ظن القوىٰ المجرمة المستكبرة أنها صانعة النظم والقوانين، وأنها فوق المحاسبة.. ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٥،٤،٦].

الحقيقة الثانية: لبيان المفهوم الإسلامي العظيم في حرية الإرادة والاختيار البشري، فهو سبحانه أعطىٰ شيئًا من المُلك والمِلك للبشر قبل يوم الدين اختبارًا:

ومن أهم مظاهر الملك الذي أعطاه للبشر: الإرادة والاختيار، والتحكم ببعض المظاهر من قِبَل الأخيار والأشرار، ولاستمتاع البشر بهبة الاختيار صنعوا الحياة التي أرادوها خلال فترة الاختبار، فرأينا منهم من قام، فقال ممتلئًا بالكبر والإثم والإجرام ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، ومنهم من قال.. مقالةَ المتبختر المختال ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]، ومنهم من اختار سبل السلام، فأحسن وأجمل وقال مقالة الأخيار الكرام: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ [طه: ٨٤]، ومنهم من ردد.. وهو يشعر في طاعة ربه بأنواع التلذذ والمتعة التي تفوق الحد:

ولست أُبالِي حين أُقْتَل مُسلمًا ... علىٰ أيِّ شقٍّ كان لِلَّه مَصرعِي
وذلك في ذات الإله وإن يَشأ ... يُبارِك علىٰ أَوصال شِلوٍ مُمَزَّعِ[(١)]

أما يوم القيامة فيسلب عنهم ذلك كله، فلا ملك لهم حتىٰ علىٰ أعضائهم في ذلك اليوم الحق ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، ولذا لا يملكون لأنفسهم شيئًا ذلك اليوم كما قال تعالىٰ ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، فالملك يوم الدين لله خالصًا دون جميع خلقه حيث ﴿لَا يَنطِقُونَ ٣٥ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦]، بخلاف حالتهم في الدنيا.

وقد قيل: عظمةُ الملك وقوتُهُ علىٰ أربعة أقسام: مُلك الْمُلَّاكِ، ومُلك الْمُلُوكِ، وَمُلك الملائكةِ، ومُلك مَلِكِ الملاكِ والْمُلُوكِ والملائكةِ.

فملك الْمُلُوكِ أقوىٰ من ملك الْمُلَّاكِ، لأنَّه لو اجتمع عالَمٌ من المالكين فَإِنَّهم لا يُقَاومُون ملكًا واحدًا، وَمُلْكُ الملائكة أقوىٰ من مُلْكِ الْمُلوك، لأنَّ عالَمًا من أكابر

---

(١) البخاري ٤/ ٨٣، ممزع: قِطْعَة من لحْمَة مقطعَة مفرقة. انظر: مشارق الأنوار علىٰ صحاح الآثار (١/ ٣٧٨)

الْمُلُوك لا يُمْكِنُهُم دفع قوة مَلَكٍ واحدٍ، ومُلك مَلِك الْمُلُوك أقوىٰ من مُلك الملائكة، ألم تسمع قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]، وقَالَ فِي صِفَةِ الْمَلَائِكَةِ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فيا أَيُّها الملوك.. لا تغتروا بما لكم من المال والْمُلْكِ؛ فَإِنَّكم أَسرىٰ في قَبضةِ قُدرَة مَالِكِ يوم الدِّين.

ويا أَيُّها الرَّعيَّة.. إذا كنتم تخافون سياسة الْمَلِكِ، أفما تخافون حكم مَلِكِ الْمُلُوك الَّذي هو ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾؟[١].

بعض الحقائق التي تبرزها الآيات الأربع الأولىٰ من سورة (الفاتحة):

إن «(الفاتحةُ) هي البناء للنفس الإنسانية، والشفاء من الأمراض والأدواء بالثناء علىٰ أرحم الرحماء»، والمقاصد الأربعة السابقة تمثل أقوىٰ المقاصد الفكرية التي تبني العقلية الإنسانية.. إن البشرية تحتاج إليها احتياج العطشان للماء، وتفتقر إليها افتقار التائه الخائف الحيران المحتاج لمن يعينه في الظلماء، وتحتوي تلك المقاصد علىٰ الحقائق الآتية:

الحقيقة الأولىٰ: احتوت تلك المقاصد علىٰ أعظم بصائر التنزيل القرآني التي ترسم الخريطة الحقيقية للحياة الإنسانية:

والبيان الوافي لها يوجد في القرآن الكريم لا في الكتب المنزلة المحرَّفة، ولا في المشاريع الدولية البشرية الوضعية المزيفة، ويمكن أن نلخص هذه الخريطة الحقيقية في البصائر الكلية الآتية:

---

(١) تفسير الرازي ١/ ٢٠٥.

البصيرة الأولىٰ: قاعدة (التوحيد المقترن بأعظم التمجيد)، ونجد هذه البصيرة في الآيات الأربع الأُول، ويترتب عليها حقوق المعبود وحقوق العبيد.

البصيرة الثانية: تربية الله تعالىٰ للعالم، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

البصيرة الثالثة: إرادة الرحمة بالكون -ابتداءً وانتهاءً-، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

البصيرة الرابعة: حتمية المصير العادل الذي يعقبه الخلود، وذلك في قوله سبحانه: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

ومن خلال هذا المقصد تظهر الإجابة الواضحة عن التساؤلات الكونية الكبرىٰ: (من أين؟ وإلىٰ أين؟ ولماذا؟)، وهذه الأسئلة هي التي بسبب عدم معرفتها يُلْحِدُ الضالون، ويُبطل المبطلون.

الحقيقة الثانية: احتوت هذه المقاصد علىٰ أعظم الثناء الإلهي الذي يمكن أن يقوله الأنبياء:

فالله -تقدس مجده- ذَكَرَ في الحديث القدسي أن هذه الآيات الأربع تحتوي علىٰ الثناء عليه: حيث قال: «إِذا قال العبد﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال اللَّه تعالىٰ: حمدنىٰ عبدي، وإذا قال﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال اللَّه تعالىٰ: أثنىٰ عَليَّ عبدي، وإذا قال ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾قال: مَجَّدَنىٰ عبدي».

وقد اختار اللهُ كلماتِ (الفاتحة) لتكون مقدمة كتابه في التعريف به، والثناء عليه -جلَّ اسمه-: ومنها يتعلم عبده كيف يُثْني عليه، وحسبك بذلك مكرمة للإنسانية،

فهذا خطيب الأولين والآخرين، سيد الفصحاء، وإمام البلغاء، لـمّا سمع حمده -تعالىٰ- لنفسه، ومدحه -سبحانه- لحقّه، علم النبي ﷺ أن منتهىٰ العلم أن يقول فىٰ هذه الحالة: «**لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت علىٰ نفسك.**»(١).

والله -تعالىٰ- ذكر في نصف (الفاتحة) الأول ستةَ أسماء هي أصول أسمائه -جلَّ في علاه-وقابلها في نصفها الثاني بستة أحوال للعبد:

أما أسماؤه الستة المذكورة في (الفاتحة) فترجع جميع الأسماء الحسنىٰ والصفات العُلىٰ إليها:

الاسم الأول: ﴿ٱللَّهُ﴾: ورد هذا الاسم في الآية الأولىٰ (البسملة)، وفي الآية الثانية (الحمدلة)، وترجع إليه جميع الأسماء الحسنىٰ، ومنها أسماء الإلهية الحقة كالواحد الأحد.

الاسم الثاني، والاسم الثالث: الرحمن الرحيم: ورد هذان الاسمان مرتين في البسملة وفي الآية الثالثة، وترجع إليهما جميع أسماء الرحمة واللطف: كاللطيف، والحليم، والودود، والرؤوف، والوهاب، والرزاق، والغفار، والغفور.

الاسم الرابع: رب العالمين (الرب): ورد هذا الاسم العظيم في الآية الثانية في قوله تعالىٰ:﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وترجع إليه جميع أسماء التربية: رحمةً ورفقًا ووُدًّا، وحزمًا وقوةً، وحكمةً وخبرةً وعلمًا.

الاسم الخامس والسادس: (مَلِك يوم الدين)، و﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ -علىٰ القراءتين-: وترجع إلىٰ هذين الاسمين جميع أسماء الحكم والقوة والعدل والقهر والفصل وصفاتها كالعظيم، والكبير، والمتعال، والقهار، والجبار، والفعال لما يريد.

---

(١) مسلم (٢/ ٥١).

وتقابل هذه الأسماء الستة العليا ستةُ أحوالٍ للعبد ذكرها الله في النصف الثاني من (الفاتحة)، وهي: العُبُوديَّة، والاستعانة، وطَلَبُ الهداية، وطَلَبُ الاستقامة، وطَلبُ النِّعمة، وطلب الحماية من طرق الضَلال والإضلال.

ومن حكم ترتيب الأسماء الستة الواردة في سورة (الفاتحة): التعرف الكامل إلىٰ الله، فهو -تعالىٰ ذِكْرُهُ- جعل الاسم الأول ﴿ ٱللَّهُ ﴾ اسمًا لنفسه، فهو مختصٌّ به مع تضمنه لمعنىٰ الإلهية الحقة إذا جعلنا الكلمة مشتقةً من (إله)، وجعل الخمسة التي أتت بعده أوصافًا له، وهي: الرَّبُّ، وَالرَّحْمَنُ، وَالرَّحِيمُ، وَالْمَلِكُ، والمالك، ومن هذه الأسماء الستة تنبثق سائر الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ، ويتعرف العبد إليه تعالىٰ بها، فمثلًا: يمكنك أن تتصَوُّر أن الله كَأَنَّهُ يَقُولُ لك: خَلَقْتُكَ أَوَّلًا فَأَنَا إِلَهٌ، وعرفتك بي فاسمي هو﴿ ٱللَّهُ ﴾، ثُمَّ رَبَّيْتُكَ بِوُجُوهِ النِّعَمِ فَأَنَا رَبٌّ، ثُمَّ جعلت خِلقَتك ونِظامَ شريعتك الذي تسير عليه وفق مبدأ الرحمة فأنا رحمن رحيم، ثم عَصَيت فَسترْتُ عليك فأنا رَحمنٌ، ثُمَّ تبت فَغَفرتُ لك فأنا رحيمٌ، ثُمَّ لم تخرج عن ملكي وسلطاني ولن تخرج، وسأوصل الْجَزَاء إِلَيْكَ؛ فَأَنَا مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ، ومالكه، وترتيب المطابقة هنا فقط للتلذذ في المخاطبة، وإلا فيجوز غير ذلك.

الحقيقة الثالثة: جمعت هذه المقاصد أسباب ثناء العبد علىٰ أرحم الراحمين في أبهىٰ صورها:

ويظهر ذلك من خلال أسباب الثناء؛ فإنك لا تُثني علىٰ أحدٍ فتحْمَدُه إلا لِأَحَدِ أسبابٍ أَرْبعَةٍ:

السبب الأول: تحمده وتثني عليه لكماله الذاتي فِي الذات والصِفَاتِ، وهو المنزه عَنْ النَّقَائِصِ وَالْآفَاتِ، وهذا السبب لا يمكن أن يوجد إلا في رب العالمين، وَقد أشار الله إليه في قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ ، فكل

ما في العالمين من كمال، فهو شيءٌ لا يذكر أمام كمال الكبير المتعال، وكل ما في العالمين من نقصان، فالله مُنَزَّهٌ عنه فهو العظيم الشان، ولذا نحمده -جل في علاه- لذاته، ونحمده علىٰ كمال صفاته.

السبب الثاني: تحمده وتثني عليه لإحسانه المتعدي الباطن والظاهر، والإنعام في الماضي والحاضر، وأعظم الإحسان في الحاضر إنما تجده من الله الملك الرحمن، فكل ذرةٍ من النعم فهي منه، فهو ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ ، فنحمده علىٰ خلقه لنا من العدم، ونحمده علىٰ عظيم النعم، ونحمده علىٰ أن أعطانا الآلات والوسائل التي توصلنا إلىٰ الإيمان به، فهو عظيم الجود والكرم، ونحمده علىٰ أن دفع عنا النقم، وحَبَّبَ إلينا الإيمان، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان.

السبب الثالث: تحمده وتثني عليه لرجاء الإحسان فِي مُسْتَقْبَلِ الأزمان، فالله هو الذي يمدنا بكل إحسانٍ نطمع أن يصلنا في المستقبل القريب والبعيد، فهو ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ ، فنحمده علىٰ أنه دلنا علىٰ الطاعة التي تُصلِح الجسد، وتعمر البلد، وتعالج ما فسد، ثم أعطانا الوسائل الجسدية للقيام بها، ثم كافأنا عليها -جل في علاه-، ولذا قال الصالحون: «إذا أراد أن يُظهر فضله عليك، خَلَق وأَعطىٰ، ونسب إليك»؛ أي يعطيك النعمة، ويخلق لك وسيلة الاستفادة منها، ويعينك علىٰ شكرها بالطاعة، ثم ينسب إليك هذه الطاعة.

السبب الرابع: تحمده وتثني عليه للخوف من قهره وَقُدْرَتِهِ، وَرجاء الأمن من عظيم سَطْوَتِهِ: إنه ربُّ العالمين في الدنيا، وهو مالك يَوْمِ الدِّينِ في الآخرة؛ مما يجعل الإنسان يُثني عليه خوفًا من عقابه، وهربًا من عتابه... اللهم اجعلنا من أعظم المكرمين المقربين إليك، بفضلك يا أرحم الراحمين، والحمد لله حمدًا يبلغنا رضاه، ويجزل لنا به أعظم عطاياه، ويجعلنا به مع نبيه ومصطفاه ﷺ.

الحقيقة الرابعة: الثناء علىٰ الله علامة الاتصال الأعظم أهميةً في حياة الإنسانية:

إنه الاتصال بين الله وعباده.. بين الخالق والكون المخلوق، وهو مفتاحٌ من مفاتيح إجابة الدعاء، فمن أراد أن تُقضىٰ له الحاجاتُ، وتُفَرَّجَ عنه الكرباتُ، وتُدْفَعَ عنه الآفاتُ، فليُثْنِ علىٰ مُدَبِّر الأرض والسماوات، وليُقَدِّمْ بين يدي طلبه جميلَ الثناء، وطَيِّبَ الحمد؛ ليُجاب له الدعاء، فإذا كنتَ مريضًا وقصدتَ طبيبًا متخصصًا ذا سمعةٍ جيدةٍ، فإنك تُثني عليه، ليَرفُق بك، ويهتم بمعالجة مرضك، وتقولُ له طالبًا اهتمامه وعنايته: أتيتُك لشهرتك، ومعرفتك، وقصدتُك دون بقية الأطباء، فانظر إلىٰ هذا الداء.

كل هذا الثناء تقدمه لبشرٍ، فإذا أردت أن تُفْتح لك خزائن الخير في الدنيا والآخرة فانظر إلىٰ من بيده مقاليد البشر، وله الأمر الظاهر والمُسْتَتِر، وهو مالك القُوىٰ والقُدَر، فهو الطبيبُ علىٰ الحقيقة -جل في علاه-، فعن أبي رِمثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتيت رسول الله ﷺ مع أبي فرأىٰ التي بظهره فقال: يا رسول الله، ألا أعالجها لك، فإني طبيب. قال: «**أنت رفيقٌ، والله الطبيب**»[(١)]، وعند ثنائك عليه تحظىٰ بمحبته؛ لأن الله يحب العبد المتملق له، فعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة يحبهم الله** -وذكر منهم- **وقومٌ ساروا ليلتهم حتىٰ إذا كان النوم أحبَّ إليهم مما يُعدَل به نزلوا فوضعوا رؤوسهم، فقام يتملقني، ويتلو آياتي**»[(٢)]، وعن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ولا أحد أحبُّ إليه المدحة من الله؛ فلذلك مدح نفسه**»[(٣)]، فالثناء علىٰ الله -تعالىٰ ذكره- من أهم مقاصد القرآن الكريم، فالله سمَّىٰ باسمه المبارك أربع سورٍ: سورة فاطر، وسورة غافر، وسورة الرحمن، وسورة الأعلىٰ، وقريب منها

---

(١) أحمد (٤/ ١٦٣)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٧٩)، وإسناده صحيح لغيره كما قال الأرناؤوط.

(٢) الترمذي٤/ ٦٩٨، وقال: "حديث صحيح"، وأحمد٥/ ١٥٣، وصححه الأرناؤوط.

(٣) البخاري٦/ ٧٤، المِدحة -بكسر الميم-: الثَّنَاء وَالذكر الْحسن.

سورة الـمُلْك (فالملك من صفاته سبحانه)، وأنزل سبعًا من السور تسمىٰ المسبِّحات بدايتها التسبيح لله تعالىٰ، كما جعل خمسًا من السور بداياتها الحمد هي المحمِّدات، وكل ذلك لبيان منزلة الثناء علىٰ رب الأرض والسماء، فمِنْه يُستَمَد كل عطاء، وتَنزِل كل نعماء. ولله ما أعذب قول القائل:

يـا رب عدت إلىٰ رحابك تـائبًـا ... مستسلمًا، مستمسكًا بعُـراكـا
ما لي ومـا للأغنياء، وأنـت يـا ... ربي الغني ، ولا يُحَـدُّ غِـنـاكا
ما لي ومـا للأقويـاء، وأنـت يـا ... ربي وربَّ الـنـاس، ما أقـواكـا
ما لي وأبـواب الملوك، وأنت من ... خلق الملوك، وقسم الأفـلاكـا
إني أويـت لـكـل مـأوىً في الحيـا ... ةِ فما رأيت أعـزَّ مـن مـأواكا
وتلمست نفسي السبيل إلىٰ النجا ... ةِ فلم تجد منجىً سوىٰ منجاكا
وبحثت عن سـر السعادة جاهـدًا ... فوجـدت هــذا السر في تقواكـا

المقصد الخامس

التعريف بوظيفة العالمين، وهي الالتزام
بأنظمة العبادة الموحدة لله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾
وذلك لتحقيق السعادة في الحياتين

بعد أن اتضحت الخريطة الوجودية الكاملة للوجود المخلوق زمانًا ومكانًا يأتي الكلام عن الخريطة الوظيفية..جوابًا عن سؤال حول المطلوب للفوز بالجزاء الحسن يوم الدين، واكتساب الخلود العظيم عند رب العالمين.. فيصف الله ذلك من خلال المقصد الخامس الذي يظهر في الآية الخامسة، ويمكن اختصار ذلك المطلوب لتحقيق الفوز والفلاح يوم القيامة في: الاستقامة علىٰ أنظمة العبادة لتحقيق السعادة، ونستنبط ذلك من قوله تعالىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ ، فهي تدل علىٰ أن الوظيفة الوجودية للبشرية مكتنزةٌ في المنهاج العبادي، وينتمي لهذا المقصد البصائر الكلية الآتية:

البَصِيرَةُ الأُولَى

(العبادة) هي البرنامج الحيوي العملي
الذي يدل على صدق التوحيد

استنبطنا هذا المقصد من الآية ذاتها ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ ومن اتصالها بما قبلها.

فأما الآية فقد حصر الله العبادة القائمة علىٰ التوحيد به حيث قدم المفعول (إياك) علىٰ الفعل (نعبد)؛ لإفادة انحصار العبادة فيه وله -جلّ مجده-، وأما الاتصال بما قبله فبما أننا عرفنا الجواب عن السؤالين الوجوديين الكبيرين: (من أين جئنا؟)، و(إلىٰ أين نذهب؟)، يبقىٰ الجواب علىٰ السؤال الثالث: (لماذا؟) لنجد أن الله فرض برنامجًا يبين وظيفة الحياة الوجودية، ويؤدي إلىٰ إصلاح النفس الإنسانية، واستقامة الحياة وعدم اعوجاجها، وللانسجام مع بقية مخلوقات الكون وأنظمتها، ويتلخص هذا البرنامج في (المنهاج العبادي القائم علىٰ توحيد الألوهية)، ويتم الجزاء (يوم الدين) بناء علىٰ القيام بهذا البرنامج والالتزام بتفاصيله، فمن عرف (توحيد الربوبية) في آية ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لا بد أن يقرر (توحيد الألوهية) فيقول -إن كان يعقل-: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

وهل هذا الذي تقرره سورة الفاتحة بدعٌ من القول؟ كلا.. بل هي تقرر الطريق المستقيم منذ أن وجدت البشرية، وأعلن أبواها فقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، فها هو الله -جل جلاله- يقول لموسىٰ -عليه السَّلَام-: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ [طه: ١٤] فأمره بعد التَّوحيد بالعُبُوديَّة؛ لأن التَّوحيد أصلٌ، والعُبُوديَّة فرعٌ، والتَّوحيدُ شجرةٌ، والعُبوديَّة ثمرةٌ. فمعنىٰ الآية: إياك -ربنا- نعبدُ، ولا نعبد غيرك، فلا نعبد (اللات)، ولا

(العزىٰ)، ولا (مناة الثالثة الأخرىٰ)، ولا نعبد (هبل) الحجر، ولا (هبل) البشر، ولا فرعون العصر القديم، ولا فراعنة العصر الحديث، ولا طواغيت البيوت الحُمر، ولا طواغيت البيوت السود، ولا أوثان العجول الصفر، ولا نعبد الأموال، ولا أحدًا من النساء والرجال..

وبعد الحصر والقصر في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ نجد أن الخطاب متوجه من العبد إلىٰ ربه حبًا وتذللًا، وهذا يعطينا بعدًا توحيديًا جديدًا هو عدم وجود واسطة بين الله وبين خلقه.. إنك تدعوه مباشرة دون أنداد فتقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وكأنك في هذا الخطاب تقول:

اللهمّ لك نذلّ، وبك نعز، وإليك نشتاق، وعليك نعتمد، ورضاك نبتغي، وسخطك نخاف، وعفوك نرجو، وبذكرك نطمئنّ، وإياك نعبد، وإيّاك نستعين..

أنا لست إلا مؤمنًا بالله في سِرِّي وجهري
أنا نطفةٌ أصبحتُ إنسانًا فكيف جهلت قدري
أنا نبضةٌ في وسط هذا الكون كيف يضيق صدري
إني لأعجب للفتىٰ في دهره، أوَ ليس يدري
أنَّ الحياةَ قصيرةٌ، والعمرَ كالأحلام يسري

وترىٰ أن قارئ (الفاتحة) السعيد صرَّح بما لله من التوحيد والتمجيد في الآيات الأربع السابقة: البسملة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ، والحمدلة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، وآية الرحمة ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ، وآية المالكية والملكية ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ، فكأنه طُلِب منه إثبات صدق ما ادعاه من التوحيد والثناء والتمجيد فذكر الدليل العملي علىٰ ذلك، وهو ترتيب حياته وفق مبدأ العبودية الحقة؛ لينسجم مع

عبادة الكون لله تعالىٰ، فهذه المناسبة العامة بين الآية وما قبلها.

وأما المناسبة الخاصة بالآية السابقة، فتذوقها حين ترىٰ العبد يسمع قصة نهاية الكون الحاضر بقَوْل الله -تعالىٰ ذكره- ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، فيفهم من ذلك أَنَّه مُنْتَقِلٌ من دار الدُّنيا إلىٰ دار الآخرة، ومن دار الشُّرُور إلىٰ دار السُّرور، فيشعر عندها بالحذر ويخاف من تبعات قصة النهاية.

ويسأل: كيف يمكنه أن يكون من المفلحين يوم الدين، وما الواجب للنجاة يوم الحساب؟ وما هو الزاد؟ وكيف الاستعداد؟

فيأتي الجواب بذكر الزاد، وكيفية الإعانة علىٰ الاستعداد في هذه الآية المحورية: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾.

وبذا فإن نظام العبادة في الإسلام يُمَثِّل البناء الحقيقي العملي لتوحيد رب الأرض والسماء، ويُشكل الحصن الواقي من الشرك والرِّياء. والرِّيَاء الذي تنسفه هذه الآية وتدمره ببرهان العبادة نوعان:

رياء النِّفاق: وهو العمل لأجل رُؤية النَّاس، فتأتي هذه الآية المباركة مذكرةً بالتوحيد المنافي للرياء.

ورياء العادة: وهو العمل بحكمها من غير ملاحظة معنىٰ العمل وسرِّه وفائدته وأهدافه ومقاصده(١)، فتأتي هذه الآية مذكرةً بالتوحيد المنافي للعادة التي لا يكون منها إلا الادِّعاء.. الادعاء بأن الإنسان عابدٌ لله، وهو يتصنع حركات العبادة دون تمجيدٍ صادقٍ، أو استسلامٍ كاملٍ، وإخلاصٍ خالصٍ.

وبذا فإن الآية تبني قيمة الاعتزاز بالله من خلال بناء حس العبودية ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ

(١) تفسير المنار (١/ ٤٨).

وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فكلُّ من كان لله أعبدُ وأذل كان عند الله أعزَّ وأجلّ، كما قيل:

قوم تخللهم زهوٌ بسيدهم ... والعبدُ يزهو علىٰ مقدار مولاهُ
تاهوا برؤيته عمن سِواه له ... يا حُسنَ رؤيتِهم في حُسْنِ ما تاهوا

وقال الآخر:

ومما زادني شرفًا وتيهًا ... وأسكرني، ولم أَحْسُ الحُمَيَّا
فَدُسْتُ علىٰ الأثير وما حواه ... وكدتُ بأخمصي أطأُ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي ... وتقريبي، وإن كنتُ القصيا
وأن سَوَّرتَ بالتوحيد قلبي ... وأن صيَّرتَ أحمدَ لي نبيا

البَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ

(النظام العبادي) هو النظام الإلهي الـمُنَظِّم للحياة الجالب للإنسانية السعادة

نعم! هل هي مفاجأة تطرق الآذان عندما نقول: إن الحل لصلاح أحوال العالم يقوم علىٰ أساس فهمهم للنظام العبادي في الإسلام وتطبيقه؟.

إن النظام العبادي في الإسلام هو النظام الأنجح لقيادة الحياة الإنسانية؛ فهو النظام الشامل لكل المجالات الحيوية، المبرمج لها وفقًا لما وضعه خالقها، وأراده صانعها. أجل! قد يندهش السامع مما نذكر، وينكر متعجبًا من أن نجعل نظامًا (ثيوقراطيًا!) تقليديًا حلًا للمشاكل العالمية المعقدة والمتجددة.. فلا تنكر علينا، واستمع لبيان حجتنا الناصعة في أن﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ مفتاحٌ لحلِّ المشكلات العالمية، وحتىٰ تظهر تلك الحجة البينة ينبغي أن نتعرف عن قربٍ إلىٰ معنىٰ هذا النظام الرائع الذي سماه الشارع (العبادة) لإدراك قيمته العظيمة في إصلاح الإنسانية:

فإن جئت للنظر إليها من الناحية اللغوية ستجدها كنزًا رائعًا للبشرية، فهي مأخوذةٌ من تعبيد الطريق، أي تذليلها، وتمهيدها لتصبح سهلةً، ولذلك قال الراغب الأصفهاني -رحمه الله تعالىٰ- في المفردات: «**العُبُودِيَّةُ: إظهار التّذلّل، والعِبادةُ أبلغُ منها؛ لأنها غاية التّذلّل**»[(١)]، فَسُمِّيَ الْمَمْلُوكُ عَبْدًا لِتَذَلُّلِـهِ لِمَوْلَاهُ، وإظهار تواضعه للخلق حوله، كما قَالَ طَرَفَةُ:

إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا ... وَأُفْرِدْتُ إِفْرَادَ الْبَعِيرِ الْمُعَبَّدِ

(١) تفسير المنار (١/ ٤٨).

أَيِ الْمُذَلَّلِ، والذل هنا هو الذل الإيجابي، فيكون من الضعيف أمام القوي الحق، ومن الفقير أمام الغني الكامل، ومن الكسير أمام جابر المنكسرين، ومن الخائف أمام من يؤمّن الخائفين، وفي الحِكَمِ لابن عطاء: تحقق بأوصافك يمدَّك بأوصافه، فإذا جلستَ علىٰ بساط الذلِّ وقلتَ: يا عزيز.. مَن للذليل سواكَ؟! أعزك. وإذا جلست علىٰ بساط العجز وقلتَ: يا قدير.. مَن للعاجز سواك؟! قدَّرك. وإذا جلستَ علىٰ بساط الضعف وقلتَ: يا قوي.. من للضعيف سواك؟! قوَّاك. وإذا جلستَ علىٰ بساط الفقر والحاجة وقلتَ: يا غني.. مَن للفقير سواك؟! أغناك. وعندها تسعىٰ الإجابة بين يديك؛ فتصير عزيزًا وقادرًا وقويًا وغنيًا بالله.. فقد أمدك بأوصاف الربوبية بعد أن تحققتَ بأوصاف العبودية[١].

وهذا الذل ينعكس إيجابًا في التعامل مع الخلق، ولذا عرَّفوا العبادة بأنها: «محبة الحق، وبذل الخير للخلق»، فالنظام العبادي قائمٌ علىٰ الحب للخالق المنعكس بذلك الخير للمخلوق.. والحب جزء من تعريف النظام العبادي.. نعم إنه الحبُّ الذي وصفه ابن القيم بأنه: «الحياة الَّتي من حرمها فهو من جملة الأموات، وهو النُّورُ الَّذي من فقدهُ فهو في بحار الظُّلمات، وهو الشِّفَاء الَّذي من عدمه حلَّت بقلبه جميع الأسقام، وهو اللَّذَّة الَّتي من لم يظفر بها فعيشه كلُّه هُمومٌ وآلامٌ»[٢].

وأشار المحققون إلىٰ العبادة بوجه آخر فقالوا هي: «اسْم جَامع لكل ما يُحِبهُ الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الباطنة، وَالظَّاهرة»[٣]، فشملت العبادة كل فعلٍ نافعٍ، وعملٍ صالحٍ، وقولٍ طيب، وحركة إيجابية للنفس أو للمجتمع،

---

(١) شرح الحكم العطائية لعبد المجيد الشرنوبي ص١٢٦.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٨).

(٣) مجموع الفتاوىٰ ١٠/ ١٤٩.

بشرط أن ينوي به المرء وجه الله، ويريد به اكتساب محبته، فالنظام العبادي الإسلامي يشمل التَصَوُّرات الاعتقادية، والتصرفات العملية في المجالات الحيوية المختلفة، ولعل ذلك يكون كافيًا لندرك عظمة النظام العبادي، وحقيقته في الإسلام، وأنه يمثل طريق البشرية نحو الحرية الحقيقية، والسعادة الخالدة.

ومن جهةٍ أخرىٰ فإن المنهمك في هذا النظام الرائع (العبادة) هو الذي جمع أربعة أركان: غاية الحب، في غاية الذل، في غاية الخوف، في غاية الرجاء. فهذه أربعة أركان للعبادة تُـمَثِّل مشاعر فياضة تعكس أفعالًا إيجابيةً عاليةً في بناء النفس المسلمة، وقد وصف الله العابدين بأنهم ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦]، والخوف يولد الرغبة في بذل الأسباب لتجاوز المخاوف، والرجاء يُبْقِي شعلة الأمل متقدةً، ويبعد شبح اليأس والبؤس.

وها هو ابن القيم يعلو بجناحه في فهمه للعبادة بذكر الركنين العظيمين لها فيقول:

وعبادة الرحمن غاية حبه   وعليهما فلك العبادة دائر
مع ذل عابده، هما قطبان   ما دار حتىٰ قامت القطبان

والذين اجتمعت فيهم الأركـان الأربعة هم الذين قَطَّرت عليهم سحائب الأشجان، ونصبوا رُكَبهم والأبدان، وتَسَرْبَلُوا بالخوف والأحزان، وشربوا بكأس اليقين، ورَاضُوا أنفسهم رياضة الـمتقين؛ كَحَّلُوا أبصارهم بالسَّهر، وغَضُّوها عن النَّظر، فقاموا ليلهم أَرَقًا، وتبادرت دموعهم فَرَقا، حتىٰ ضَنِيَت منهم الأبدان، وتغَيَّرت منهم الألوان، صَحِبُوا القرآن بأبدان ناحِلَةٍ، وشِفَاه ذَابِلةٍ، ودُمُوع وَابِلةٍ، وزَفَرات قاتلةٍ، فحَال بينهم وبين نعيم الـمُتَنَعِّمِين، وشغلهم عن مَطَامع الرَّاغبين، فَاضت عَبَراتهم من وَعِيده، وشَابت ذَوَائِبهم من تحذِيره وتشديده.. سمعوا إعلان (سارعوا).. فكَسَلَهم

مانعوا، وشهواتهم دافعوا.. ورحمةَ ربهم طالعوا.. فسارعوا، وسارعوا وسارعوا.. يبتغون رضا الملك الوهاب.. ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [الزمر: ١٨].

وعبر الفخر الرازي في (تفسيره) عن تعريف العبادة بصورةٍ يجمع فيها بين السكينة التي يجدها المرء في متابعة خالقه، والتنفيذ لنظامه في إعانة المخلوقين فقال: العبادة هي: الإتيان بالفعل المأمور به علىٰ سبيل التَّعظيم للآمر -سبحانه وتعالىٰ-(١).

وإذا كانت العبادة هي أساس السعادة، ومرتكز السيادة والريادة في بناء النفس والحياة فينبغي أن يُقَدَّم هذا المفهوم الرائع باعتباره قيمةً عالميةً يحتاجها العالم كله دون خوفٍ في هذا التقديم ولا رهبةٍ ولا ترددٍ ولا استحياءٍ.

ومن عجيب ما ترىٰ عيناك أنَّ هناك مَن يتجرأ علىٰ تقديم مفاهيم أخرىٰ تحتوي علىٰ حقٍ وباطلٍ، ويسوقون لمفاهيم هي الباطل كله، كمفاهيم الإلحاد، وخرافات المساواة المطلقة، وجرائم الربا، وعفن الحرية الجنسية، ويتفاخرون بها، وبالكلام عنها، ويتلجلج بعضنا في تقديم هذا المفهوم الرائع (العبادة) للعالم من خلال بيان إيجابياته العالية في النفسية التي تعتنقه، وتأثيراته العميقة في حياة الفرد والمجتمع.

ودعوة الناس إلىٰ العبادة ليس لإظهار الخضوع والخشوع والاستسلام لخالق الكون فقط، فالله كما قال عن نفسه -جل في علاه-: ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ ﴾ [الزمر: ٧] بل لأن أساس السعادة الكونية قائمٌ علىٰ العبادة، ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾ [الزمر: ٧].. تأمل موقع كلمة (لكم) هنا،

(١) تفسير الرازي (١/ ٢٥).

فإنها تدل علىٰ أن نفع العبادة عائد إلينا وخالص لنا.

كيف يقوم المغفلون أو المجرمون بمحاربة هذا المفهوم أو التنقص منه؟ كيف يبحثون عن وسائل يجلبون بها الشقاء لهذا العالم، سواءً أكان ذلك عبر الاستهزاء والتنقص الفردي، أم عبر المؤسسات والمحافل المتآمرة؟

يتآمرون علىٰ سَحْب أَلْـقِ العبادة وجمالها من حياة الإنسان.. لا تلتفت لاستهزائهم بالعبادات، فـ(الصلاة والزكاة والصيام والحج) لمصالحنا وأنفسنا وسعادتنا، و(الحجاب) لأمننا وراحتنا، و(تحريم الربا) لحريتنا الحقيقية وأمننا الاقتصادي، و(العدل) لإشاعة المساواة القانونية في محالِّها الصادقة، وإعطاء كل ذي حق حقه، و(القصاص) للأمن الحياتي، و(تقسيم المواريث) للعدل الاجتماعي، و(الجهاد) لحماية المجتمعات وتحصين المشروع الإسلامي الرائد.

إن أعظم فائدةٍ للعبادة تعود للعابد، وللبشرية من حوله:

فالنظام العبادي يؤدي إلىٰ حفظ العابد وخدمته، والقيام علىٰ مصالحه، والعبادة ليست تسخيرًا للنفس بل حقيقتها خدمة النفس، ولذا قال علماؤنا: «أتظن أنه -تعالىٰ ذكره- دعاك لعبادته، وإنما دعاك لنعمته ودخول جنته»؛ فالعبادة مفتاح الخيرات، وَعُنوَان السَّعادات، ومهبط البركات، ومطلع الدَّرجات، وهي أهم أسس إصلاح المجتمعات، ودليل الصدق في المعاملات، ويَنبُوعُ الكرامات.

والعبادة بذلك: هي الوظيفة الإنسانية، والبرنامج الحياتي العملي للإدارة الحقيقية الناجحة لحياة الإنسانية، وهي الأساس لبناء الأوضاع المدنية، ولصلاح الأحوال العمرانية.

وهي النظام الذي ينسجم مع خلق الإنسان، فالتكليفات العبادية تُكَوِّن البرنامجَ

الطبيعي الفطري للإنسان.. البرنامجَ الذي يُصلِحُ له دينه ودنياه ويجلب له السعادة.

هل أدركت معي شمول هذا المفهوم الرائع (المنهاج العبادي) للحياة كلها؟ إنه يتألف من نُظُمٍ متعددةٍ تشمل مجالات الحياة المختلفة، وينتمي إلىٰ هذا المنهاج كل ما يتعلق بإعمار الحياة الدنيا، والحياة الآخرة، وينبثق عن هذا المنهاج التشريعات العَقَدية (أركان الإيمان)، وأركان الإسلام، والتشريعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهو الذي نسميه (الشريعة)، فصارت (الشريعة أو العبادة القائمة علىٰ التوحيد، والشفاء من أمراض الشرك والرياء، والتطهر من الأرجاس الثقافية والفكرية والسياسية) أحدَ أهم الحقوق العالمية التي تحتاجها الإنسانية لبناء السعادة الحيوية.

فوجب أن تكون العبادة في المرتبة الأولىٰ في سُلَّم الأوليات والأولويات الحيوية عند كل إنسانٍ يريد السعادة؛ إذ لا طريق للسعادة سوىٰ صحيح العبادة.

البصيرة الثالثة

(العبادة) هي طريق البشرية للتحرر الحقيقي وللسيادة والريادة

إنه النظام الإلهي الإنساني العجيب: نظام العبادة.. النظام الذي يعني الوصول إلىٰ أشرف المقامات البشرية؛ إذ العبادة تعني ببساطة تمهيد السبيل لهذه الإنسانية التي أتعبها التلاعب بحقوقها.. تمهيد السبيل لتنال الحرية الحقيقية، وهل هناك حرية حقيقية إلا عندما يستقل الإنسان عن عبودية المخلوقات ليكون فقط عبدًا لله الذي خلقه فسواه فعدله.. تأمل في كلام الله لترىٰ أن القرآن لم يستخدم كلمة (حرية) إلا في موطن تحرير العبيد من رقهم، أما بعد ذلك فكمال حريتهم أن يكونوا عبادًا لله، أيحسبُ الإنسانُ أنه سيجد راحته وهو شاردٌ عن النظام الذي أعده له خالقه لينال السعادة والسيادة؟

يا لَشرفِ العبودية لله وجلالها عندما ترىٰ المرء يفيء إلىٰ رب العالمين، ويجد جمال حريته بعيدًا عن تحكم المخلوقين.. من الذي حاز أعظم منازل التقدم وأعلىٰ درجات الرقي الطموحة في هذه الحياة؟ إنهم العابدون.. استمع مثلًا إلىٰ الثناء علىٰ أبي الأنبياء إبراهيم وبنيه -عليهم الصلاة والسلام- ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].. إنها عبادتهم التي أمدتهم بمؤهلات القيادة العالمية الحقيقية الهادية فصاروا أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِ الله، انظر إلىٰ عبادتهم كيف جعلتهم يحرصون علىٰ فعل الخيرات، وعمل الصالحات..

وهنا لا بد أن تسجل تعجبك من بعض الناس الذين ربما سجدوا للبشر، أو عبدوا الحجر، أو ربما رأيتهم يُعَظِّمون الغنم والبقر، أو يخضعون للشمس والقمر، أو

يُبجِّلُون سَحَرة الإعلام، وطغاة الإجرام، أو يُهللون لمستكبري الحكام، ويمنحونهم الألقاب الفِخام والأوصاف العظام، وهم في ذلك كله لا يعظمون الله الملك القدوس السلام.. ثم يزعمون أنهم دعاة السلام، ومن يحفظ للعالم أمنه العام! ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

يا لَلتزوير لأشرف الحقائق، إنه الكذب الذي تسوغه وسائل الإعلام لإفساد الكون والخلائق،

وهنا يبرز أهل العقول وصفوة المجتمعات ليقولوا أمام هذا التزوير الذي يصيب العُبَّاد بالتحقير: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٢، ٢٣]، ومن يجادل في هذه الحقيقة يقال له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡ﴾ [يونس: ١٠٤].

اذهب لتأخذ من أنوار الفاتحة وبصائرها إعادةَ الأمور إلىٰ نصابها ومقاييسها وموازينها الحقيقية، وتأمل حواليك لتجد لقب (عبد الله) قد تَشَرَّف به سادات البشر من المفلحين الذين حققوا أعظم الإنجازات:

أما أولًا: فقد جعل الله سبحانه وتعالىٰ منزلة العبودية أعظم منازل المخلوقين من الرسل، والملائكة، وغيرهم، فقال: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا﴾ [النساء: ١٧٢].

وأما ثانيًا: فلما نطق عِيسَىٰ -عليه السلام- في المهد كان أَوَّل شيءٍ قاله: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ﴾ [مَرْيَم: ٣٠]، وصار ذكره لهذه الكلمة سببًا لطهارة أُمِّه، ولبراءة وجوده عن الطَّعن، ومفتاحًا لكلِّ الخيرات، ودافعًا لكلِّ الآفات.

وأما ثالثًا: فقد جعل الله أهم صفات المقربين أنهم عباد الرحمن في الدنيا، فقال: ﴿عِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الزخرف: ١٩]، وفي الآخرة فقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦].

وأما رابعًا: فقد وَصَفَ الله -تعالىٰ ذكرُه- سيدَ الأنبياء -عليه الصلاة والسلام- في أشرف مقاماته بالعبودية، وهي المقامات الأربعة الآتية:

المقام الأول: مقام تحدي المشركين المعاندين، حيث يقول الله تعالىٰ عنه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، ولم يقل علىٰ رسولنا.

المقام الثاني: مقام تشريفه بالإسراء السابق للمعراج إلىٰ السماوات العلىٰ، حيث قال عنه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

المقام الثالث: مقام إنزال الكتاب الحق الذي ينظم للدنيا حياتها، حيث قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ [الكهف: ١].

المقام الرابع: مقام الدعوة إلىٰ أشرف الحقائق وأعظمها، وهي حقيقة التوحيد المقترن بالرحمة، حيث يقول الله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

فلما كانت العِبادة أشرف الخصال، والتحلي بها أجمل الفِعال، وأعظم الآمال، سَمَّىٰ الله -تعالىٰ ذكره- نَبِيَّهُ ﷺ عَبْدًا.

وَالعجبُ لا ينقضي من نشوة المشاعر عند بعض البشر بعبوديتهم للبشر، وتفاخرهم بذلك، فقد قال أحدهم:

يا قومِ قَلبِي عِنْدَ زَهْرَاءِ ... يَعرِفهُ السَّامِعُ والرَّائِي
لا تَدْعُنِي إِلَّا بِيا عَبدَهَا ... فَإِنَّه أَشرفُ أسمائِي

فهذا عبدٌ يزعم أن أشرف أسمائه التلقب بعبدٍ للمخلوقة فلانة، فكيف ترىٰ تكون عظمة التلقب بالعبودية المضافة إلىٰ الله -جل في علاه-؟.

أنـــا بـالـلـه عـــزيـزٌ، عـــزتـي فـــي سـجـــداتـي
أنــــا لـلـه ولـــــيٌّ، لا لـــعُـــزَّىٰ أو مـــنـــاةِ
أنـــا عـبـد الـلـه، لا عـبـد الـهـوىٰ والـشـهـواتِ
فـنـيـت نـفـسـي عـن نـفـسـي فَـسُـدتُ الـكـائـنـاتِ
أنـــا أغـنـىٰ الـخـلـق بـالـحـق بـأغـلـىٰ الـثـرواتِ
لا يـدانـي كـل مـلـك الأرض إحـدىٰ ركـعـاتي

الأولية القرآنية التي تقدمها هذه الآية:

لا يمكن أن نَمرَّ علىٰ الآيات المحكمات لسورة (الفاتحة) دون أن نقرر الأثر الواقعي الذي تفرضه آياتها في الخطة العامة التي يضعها الفرد لنفسه، أو تخطها المجموعات المترابطة لأفرادها، أو تضعها الدولة لشعوبها.

خذ مثلًا آية العبادة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ ماذا يعني أن يكون (النظام العبادي) **هو النظام الإلهي الـمُنَظِّم للحياة، الجالب للإنسانية السعادة**، وهو طريق البشرية للتحرر الحقيقي وللسيادة والريادة؟..

هذا يدل علىٰ أنَّ العبادة من أهم الأولويات القرآنية، وهذا يقتضي ببساطةٍ واضحةٍ أن تكون الدعوة إلىٰ العبادة -بما فيها الاستعانة- من أهم الأولويات الحيوية الإسلامية التي يجب تقديمها للعالمين مسلمين وغير مسلمين، ويجب إدارة وسائل الإعلام والتربية والتوجيه والثقافة والتعليم علىٰ نشر مفاهيم النظام العبادي

في الأرض.. وينبغي إبلاغ العالم بضرورة هذا النظام لحياتهم إبلاغًا مقترنًا بحريتهم في أن يختاروه أو يختاروا غيره، مع تحذيرهم أنهم عندما يختارون غيره سيجلبون لأنفسهم الشقاء والعناء والتجارب المريرة العوجاء، علىٰ أن يصحب هذا الإبلاغ الحرص عليهم من خلال إظهار الشفقة والرغبة في بيان الحقائق الغائبة عن الوعي الإنساني.. يا حسرةً علىٰ العباد! علىٰ أنه لا ينبغي لحملة النور القرآني أن ييأسوا أمام الضجيج الإعلامي والعسكري الرهيب من إظهار الحرص علىٰ البشرية لتتعرف علىٰ جمال النظام الإسلامي، فقد نعت الله النبي ﷺ بالحرص العظيم علىٰ البشر، في آيةٍ تسابق النسائم في وصف صدق عاطفته ﷺ مع البشرية: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ألهذا الحد تحتاج البشرية للنظام العبادي الإسلامي؟ نعم دون ريب! فالمفهوم المتميز للعبادة في النظام الإسلامي يجعل الحياة المدنية بأمس الحاجة إليه؛ إذ أن الحياة المدنية تقتضي أن يكون بَيْنَ النَّاسِ: مُعاملةٌ وعدلٌ، والعدل لا بد من شَرْعٍ ممنهجٍ يحفظه، وهذا الشرع لا بد من شارعٍ يفرضه، وهذا الشارع ينبغي أن يتميز باستحقاق الطاعة، والقدرة المطلقة؛ لتتم مراقبة أوامره ونواهيه، ويترتب علىٰ تنفيذ أوامره واجتناب نواهيه الجزاء للمحسن، والعقاب للمسيء، ومَن هذا الشارع إلا أن يكون الله رب العالمين؟ فأنزل الشارع المعبود إلينا منهاجًا ليعرف عابدوه من خلاله كيف يعبدونه، ولا بد أن تكون العبادة شاملة لكل الوظائف التي تحفظ الحياة، ولذا فالعبادة تتكرر في الصور المختلفة المنظمة لحياة الإنسان مع نفسه ومن حواليه، ويتم التذكير بها من خلال التكرير، فالصلاة تذكر بالأمانة المالية وأمانة المسؤولية مثلًا؛ لأنها في صورتها الحقيقية ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾

[العنكبوت: ٤٥]، وهكذا بقية المظاهر العبادية الإسلامية الرائعة.

لماذا ملئت الأبواق الإعلامية بكل ما يدمر المجتمع، ويجره إلىٰ الانحطاط؟ متىٰ سيُقَدَّم نظام العبادة الإسلامي الرائع ليملأ الحياة الاجتماعية والإعلامية باعتباره أهم قيمة عالمية يحتاجها العالم كلُّه؟. لا ننسىٰ أن نؤكد علىٰ أن يكون هذا التقديم قائمًا علىٰ إظهار الرحمة والمحبة للعالم دون خوفٍ ولا رهبةٍ ولا ترددٍ.

وهذه المنزلة العظيمة (العبادة) تتضمن ردًّا علىٰ الذين يسمون أمة الإسلام بالمحمديين(١) بدلاً من (المسلمين)، في مقابل تسمية النصارىٰ بالمسيحيين؛ لتضليل الناس بأن النصارىٰ كما يعبدون يسوع (عيسىٰ -عليه السلام-)، فكذلك المحمديون. ولكم زَوَّر الإعلامُ الكاذبُ الحقائقَ!! اللهم وفقنا لنيل شرف عبادتك علىٰ خير وجه تحبه.. يا أرحم الراحمين.

(١) لا يعني هذا المنع من التسمية؛ إذ تجوز الإضافة لأدنىٰ ملابسةٍ، لكن المقصود المنع عندما تكون التسمية بديلةً عن اسم (المسلمين)، أو يُقصد بها معنىً باطل، وهذه التسمية أطلقها كثير من خصوم الأمة الإسلامية علىٰ المسلمين قديمًا وحديثًا.

المقصد السادس

الاستعانة بالله نظامٌ تعبدي يُظهِر الافتقار لقوة القادر القهار ليعين على بناء الحياة وتحقيق النجاح وفق أنظمة العبادة ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

إننا نحتاج في نظام العبادة إلىٰ معينٍ عليه، ومبينٍ لطريقه..فكان هذا المقصد الذي يعرفنا بوسيلة إقامة وظيفة العبادة.. إن الاستعانة تبين الافتقار الإنساني للقوة الإلهية القادرة التي تجبر الكسر، وتزيل الضعف ليستطيع الإنسان القيام بالوظائف الحيوية وفق النظام العبادي.. وبذلك يحقق الإنسان النجاح، ويحرز الانتصار في تحديات الحياة.. بالاستعانة يحقق الخلق وجودهم، ويلبون طموحاتهم، ونستنبط هذا المقصد من قوله تعالىٰ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، والمقصدان الخامس والسادس اللذان يردان في الآية الخامسة يبينان لنا الامتزاج في فهم قاعدة: (الحقوق الكلية: حق الله الإله الحق، وحق الخلق)، فمنهاج العبادة، ونظام الاستعانة حقٌّ للخلق ليجدوا السعادة، لكنهم لا يجدونها إلا بإقامة حق الله الإله الملك الحق سبحانه، ومن البصائر الكلية لهذا المقصد:

البَصِيرَةُ الأُولَىٰ

﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ تحصر طلبَ العون في الله تعظيمًا وحمايةً من العجب والكبرياء

كيف يمكننا القيام بتطبيق تبعات النظام العبادي الرائع الذي رأيناه في المقصد الخامس؟

إن الافتقار الدائم سمةٌ لازمةٌ للإنسانية في الأكل والشرب والنَفَس والحركة وكل متطلبات الحياة، وهذا الافتقار يحول بين الإنسان وبين القيام بكثيرٍ من طموحاته لتحقيق متطلبات الوظيفة العبادية التي ينتمي إليها إعمار الحياتين: الأولىٰ والأخرىٰ، فأراه ربه وسيلةَ الإعانة للقيام بالوظيفة الحيوية. إنها نظام تعبديٌّ خاصٌّ هو (الاستعانة)، فالاستعانة بالله وحده وسيلةُ الإعانة للنفوس التي افتقرت إليه واستغنت به، وبذا يبني نظامُ (الاستعانة) (التزكيةَ الذاتية في المخلوقين، ويعينهم علىٰ الشفاء من أمراض العجب والغرور والكبرياء) من خلال قوله تعالىٰ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

متِّع سمعك بهذا التعبير الذي ما زال أئمة السلوك والتفكير يجدون فيه من المعاني ما إنَّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة؛ فقد حصر طلب العون فيه سبحانه وتعالىٰ، وأفاد الحصر والاختصاص عندما قدَّم المفعول ﴿وَإِيَّاكَ﴾ علىٰ الفعل ﴿نَعۡبُدُ﴾ وعلىٰ الفعل ﴿نَسۡتَعِينُ﴾، والحصر والاختصاص يعني نفي العبادة والاستعانة عن كل ما سوىٰ الله تعالىٰ؛ إذ معنىٰ الجملتين: نعبُدك وحدك، ولا نعبد أحدًا غيرك، ونستعين بك وحدك، ولا نستعين بأحدٍ سواك، ولو قال: «نعبدك، ونستعين بك» لكان التعبير غير دالٍّ علىٰ المنع من عبادة غيره، ومن الاستعانة بسواه من حيث التركيب لهذه الجملة، وإن دلَّ علىٰ المنع بأدلةٍ خارجيةٍ.

وهنا تعلم عَظَمة الوصية النبوية لابن عباس رضي الله عنهما حينما قال له: «**يا غلام إني أعلمك كلماتٍ: احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده تجاهك. إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام وجفت الصحف**».

لعلك استمتعت معي -أيدك الله- بالمناسبة والاتصال بين المقصد الخامس والمقصد السادس؛ فإذا كان المقصد الخامس تثبيتًا لمفهوم الشريعة (العبادة) التي تُقام بها الحياة، فإن المقصد السادس تفصيلٌ لمقام الوسيلة التي بها تُحقق تلك الشريعة، وبيانٌ للسبيل الذي به يتم تطبيق برنامج العبادة الشامل في الكون والطبيعة، فلما عَلِمَ العبادُ وجوب العبادة، وأنها طريقهم للسعادة بقوله -تعالىٰ ذكره- ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ ، **صاروا أنواعًا بالنظر إلىٰ ذلك:**

فعبدٌ شعر بضعفِه، وتَنازُعِ أهواء نفسه، واضطرابه، وتردده.. فتساءل عند ذلك عن كيفية الإعانة لتحقيق العبادة.

وعبدٌ آخر تشرَّف بالعبادة فأتاه الشيطان من باب العجب، والغرور، فقال: أنا صليتُ، وصمتُ، وأعنتُ الضعفاءَ.. وقام يباهي بأفعاله، فتساءل كيف أطرد ذلك؟

وثالثٌ قال: الَّذي اكتسبتُهُ بنفسي قليلٌ لا يكفيني في اليوم الثقيل؛ فكيف أصنع؟

فجاء الجواب للثلاثة جميعًا:

﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.. لاحظ أن الجملة جاءت علىٰ سبيل الإخبار لا علىٰ سبيل الأمر؛ لماذا؟ لبيان حال الأذكياء المتفوقين بين جموع العالمين، فقد اختصروا طريق العناء، فاستعانوا برحمن الأرض والسماء، فالله هو الذي يعين الضعيف، ويمنع

الغرور من أن يتسرب للعبد القوي الشريف، ويبارك بإعانته في القليل ليقبله في اليوم العظيم الطويل، وبين الله لهم جميعًا أنه لا يعين علىٰ العبادة سواه، وحصر الاستعانة به لتتم الرغبة الكاملة فيما عنده، ولتنزل السكينة علىٰ القلوب بشعورٍ مفعمٍ يزيل الكروب أنه لا معين إلا الله -جلَّ في علاه-، ولذا جاء في بعض الآثار: «إنَّ من ضعف الْيَقِينِ أن تُرضي النَّاس بسخط الله، وأن تحمدهم علىٰ رزق الله، وأن تَذُمَّهُم علىٰ ما لم يُؤتك الله. إنَّ رزق اللهِ لا يَجُرُّهُ حِرْصُ حرِيصٍ، ولا يَرُدُّه كُره كارِهٍ، إنَّ اللهَ بِحُكمه وجَلاله جعل الرَّوح والفرح في الرِّضا واليَقِين، وجعل الغمَّ والحزنَ فِي الشَّكِّ والسَّخط»(١).

لا تنقضي عجائب هذه الجملة المباركة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ؛ إذ إنها تعالج مرضًا كامنًا، وغريزةً مختبئةً فيك أيها العابد، هي: غريزة العجب؛ إذ الغرور والعجب جزءٌ من النفسية الإنسانية كما قال ابن حزم رحمه الله: « قد يكون العجب كمينًا في المرء، حتىٰ إذا حصل علىٰ أدنىٰ جاهٍ ومالٍ ظهر عليه، وعجز عقله عن قمعه..»(٢)، وقال المتنبي:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفةٍ فلعلةٍ لا يَظلم(٣)

وأعظم الأدواء التي تثير زوابع المشكلات بين الأخوة المتقاربين فضلاً عن الأعداء المتحاربين: الكبر والغطرسة، والاستجابة لدواعي الفجور الإنساني.. ولا حل يجتث هذه المعاني إلا بالشعور بالافتقار إلىٰ الله، والذل بين يديه، وأن الإنسان

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١ / ٣٨٣) عن أبي سعيد الخدري، وأشار إلىٰ ضعف إسناده فقال: "مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ ضَعِيفٌ، وَرُوِي ذَلِكَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مِنْ قَوْلِهِ مَرَّةً، وَمَرْفُوعًا أُخْرَىٰ"، ولكن المعنىٰ كالشمس.

(٢) الأخلاق والسير ص١٥٩.

(٣) من رائعته التي بدايتها: لِهَوَىٰ النُّفُوسِ سَرِيرَةٌ لا تُعْلَمُ عَرَضًا نَظَرْتُ وَخِلْتُ أَنِي أَسْلَمُ.

ليس بشيء لولا توفيق الله ورحمته..

تأمل معي كيف تقضي الاستعانة الحقيقية علىٰ كوامن الكبر، وبواعث العجب التي هي جزء من الطبيعة الإنسانية، فقد قرر أساتذة التربية الإيمانية أن لكل إنسانٍ حظه من الكبر ظهر أو استتر، فأما المؤمن فيقمعه، وأما المنافق فيطلعه، وبينهما مراتب تطرأ علىٰ قلب كل إنسان حسب مجاهدته لنفسه، وإذا كان النبي ﷺ قال: «**ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا**»[(١)].. إنه النبي ﷺ الذي برأه الله من حظ الشيطان فكيف غيره؟

ومفتاح العلاج لدفع الكبر والظلم والعجب الذي يشكل جزءًا من الطبيعة الإنسانية يتمثل في اتهام النفس ومحاسبتها لتربية النفس اللوامة داخل النفس المؤمنة، ونصرة جانب التقوىٰ علىٰ جانب الفجور.. واتهام النفس يعني الشعور بالافتقار لعون الرحيم الغفار.. هنا نعرف معنىٰ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

فتأتي تلاوتك لهذه الجملة المباركة لتبين لك أن حاجتك إلىٰ الله دائمة، وتبقيك علىٰ طريقه المستقيم، فقائلها يشعر بحاجته إلىٰ ربه ليُذهب عنه هذا الشعور ما قد يعتريه من كبرياء ربما أصابه عندما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فأنت أيها العابد لم تعبده بقوتك بل بإعانته، واسمع إلىٰ أبي العباس ابن تيمية حين عبر عن هذا الافتقار الذي أثارته جملة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ في نفسه، فقال:

أنا الفقير إلىٰ ربّ السماوات ... أنا المُسَيْكِينُ في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي ... والخير إن جاءنا من عنده ياتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعةٍ ... ولا عن النفس في دفع المضراتِ
وليس لي دونه مولىً يدبّرني ... ولا شفيعٌ إلىٰ رب البرياتِ

---

(١) الترمذي (٣/ ٤١٣) برقم١١٠٥، وقال: حديث حسن، وصححه الألباني.

إلا بإذنٍ من الرحمن خالقنا ... ربِّ السماء كما قد جا في الآياتِ
ولست أملك شيئا دونه أبدا ... ولا شريكٌ أنا في بعض ذراتي
ولا ظهيرٌ له كَيْما أعاونه ... كما يكون لأرباب الولاياتِ
والفقر لي وصفُ ذاتٍ لازمٍ أبدا ... كما الغنىٰ أبدًا وصفٌ له ذاتي[1]

(١) العقود الدرية ص٣٩١.

البصيرة الثانية

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تبني الاستقلال الذاتي، والتحرر من التبعية للآخرين

فماذا يعني أن تقول: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾؟ إن معنىٰ هذه الجملة أن يفْزَع الْقَلْبُ -علىٰ المستويات الفردية والجماعية- إلىٰ التعلق المتلهف بالربِّ -جل في علاه-.. إنه يا أخاه -أيدك الله- يعني الاستعانة الحقيقية بمن له ملك السموات والأرض، وذلك يعني التحرر عن أن تذل ذاتك للنفس الأمَّارة بالسوء، كما قال عبد الصمد بن المعدل في امرأةٍ تطلب منه الاستعانة بالمخلوقين:

تُكلفني إذلال نفسي لعزها وهان عليها أن أُهان وتُكرما

تقول: سل المعروف يحيىٰ بن أكثمٍ فقلت: سليه ربَّ يحيىٰ بنِ أكثما

إن ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تعني تحقيق الاستقلال الحقيقي عن الاستعانة بأي مخلوقٍ أو فردٍ سوىٰ الله.. انظر -وفقك الله وأيدك- كيف يُفَصِّل الله هذا المعنىٰ الجليل.. إنه تفصيلٌ يستوعب الكثير والقليل، إلا أن ذلك يتم -يا لَلعظمة- من خلال كلمتين فقط﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، بل تأمل كيف يجمع حصر الاستعانة إلىٰ معنىٰ آخر يُنبت من كل زوجٍ بهيجٍ هو تعظيم ما يتعلق به سبحانه؛ إذ تقدم الضمير ﴿وَإِيَّاكَ﴾ الذي يرجع إلىٰ الله تعالىٰ علىٰ فعل العباد ﴿نَعْبُدُ﴾، وهذا التقديم ليس للحصر فقط بل للتعظيم.. تعظيم ﴿ٱللَّهُ﴾ -جل في علاه- عند الكلام عنه أو الخطاب ببعض ما يتعلق به، والتعظيم للملك الكبير له أثره النفسي والفعلي علىٰ العبد، كما أن له جماله عند التلذذ بالترديد له، فكأن الله تعالىٰ يُعَوِّدُ العباد علىٰ تقديم ما يتعلق به؛ لتطمئن به النفوس، وتنفرج به أحوال اليوم العبوس.

وهنا قد تتساءل عن هذا التركيب ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، فكلمة ﴿نَسۡتَعِينُ﴾ تتعدىٰ بـ(علىٰ).. فلماذا حذفها هنا؟

إنه الإعجاز البياني التربوي، فقد حذفها ليبين الشعور بعموم الِاسْتِعَانَةِ بالله علىٰ كل شيء، فنحن نستعين به علىٰ كل شيءٍ ابتداءً من التَصَوُّرات والفهوم والْمَعَارِف والعلوم، ووصولًا إلىٰ الأعمال والتنفيذ في الكليات والجزئيات.. نستعين به -جلَّ مجده- في الوسائل والأهداف والغايات، وفي العموم والتفاصيل.. نستعين به -جلّ مجده- في النيات والأفعال والأقاويل، فأطلق الاستعانةَ ولم يقيدها بشيءٍ معينٍ ليكون المعنىٰ: نستعين بك في كل شيء علىٰ كل شيء، فالاستعانة تُصَوِّر أجملَ مظاهر العبادة؛ فهي إظهار العبد الضعيف افتقاره لرحمة الملك العظيم الخبير اللطيف، وقد قال علماء التربية القلبية: إن أردت ورود المواهب عليك صحح الفقر والحاجة لديك ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] فالعبادة تَقَرُّبٌ للخالق تعالىٰ، فهي أَجدرُ بالتَّقديم في المناجاة، وأَمَّا الاستعانة فهي لنفع المخلوق للتَّيسير عليه[(١)].

﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ تدل علىٰ أنها:

استعانةٌ قلبيةٌ بطلب الإعانة والمساعدة منه.

واستعانةٌ تشريعيةٌ بالرجوع إلىٰ شرعه في حياتنا.

واستعانةٌ شعورية بأن تكون الاستعانة باللسان موافقةً لعواطف الإنسان ونبضات الجَنان.

﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾تعني التبرؤ من الاستعانة في المجالات الاقتصادية من الشركات الاستثمارية عابرة القارات التي تمتص دماء الشعوب وتشفط الثروات..

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٨٦).

﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ تعني التبرؤ في المجالات الاجتماعية من الحلول البشرية، والعبودية لأصحاب الجاه.

﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ تعني التبرؤ في المجالات العقدية من الاستعانة بالبشر والحجر -الأحياء منهم والأموات- فيما لا يقدر عليه إلا رب الأرض والسموات.. وبذا تكون مستعينًا بالله.. تكون مع الله في كل شؤون حياتك:

مع اللهِ في القلب لمّا انكسَرْ ... مع الله في الدمع لما انهمَرْ
مع الله في التَّوب رغم الهوىٰ ... مع الله في الذّنْب لما استتَرْ
مع الله في الروحِ فوق السما ... مع الله في الجسم لما عثَرْ
يُنادي يناجي: أيا خالقي ... عثرتُ.. زللتُ.. فأين المفرّ؟!
مع الله في نسمات الصباحِ ... وعند المسا في ظلال القمرْ
مع الله في يقظةٍ في البكور ... مع الله في النوم بعد السهرْ
مع الله فجراً.. مع الله ظهراً ... مع الله عَصراً.. وعند السحَرْ
مع الله سرّاً.. مع الله جهراً ... وحين نَجِدُّ، وحين السَّمَرْ
مع الله في جاريات الرياحِ ... تثير السحاب فيَهمي المطرْ
فتصحو الحياةُ.. ويربو النباتُ ... وتزهو الزهورُ.. ويحلو الثمرْ
مع الله حين يثور الضميرُ ... وتصحو البصيرةُ.. يصحو البصرْ
وعند الركوعِ.. وعند الخشوعِ ... وعند الصَّفا حين تُتلىٰ السُّوَرْ
مع الله قبل انبثاق الحياة ... وبعد الممات.. وتحت الحُفَرْ
مع الله حين نجوز الصراطَ ... نلوذُ.. نعوذ به من سَقَرْ
مع الله في سدرة المنتهىٰ ... مع الله حين يَطيبُ النظرْ(١)

---

(١) للدكتور عبد المعطي الدالاتي وفقه الله.

إنها ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أحد كنوز الدنيا التي أنزلها الله من تحت العرش؛ لتنير للبشر طرقهم المظلمة..فالاستعانة طلب الْعَوْنِ، والعونُ وَالإعانةُ تَسْهِيلُ فِعْل شيءٍ يشُقُّ ويَعسُر علىٰ المستعِين وحده، إلا أنه يمكن لسائلٍ أن يسأل: كيف يمكن بناء الاستقلال الذاتي والجماعي في الأمة مع أن الله أمرنا بِالتَّعَاوُنِ مع المخلوقين في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]؟

وهنا ينبغي أن تعلم أنه تنحصر الِاسْتِعَانَةُ الخاصة التي تبني الاستقلال الذاتي والجماعي في مجالين:

المجال الأول: ما لا قبل للبشر بالإعانة عليه، ولا قبل لِلمُستَعِين بتحصيله بمفرده، فأما علىٰ مستوىٰ الأفراد فتكون بالإعانة علىٰ التحرر من عبودية الشهوات، أو التأثر بالشبهات، وأما علىٰ المستوىٰ الجماعي فالإعانة علىٰ التحرر من التبعية لمصاصي دماء العالم من الشركات عابرات القارات والمؤسسات التي تعمل علىٰ الاحتكار.. ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تعني الحرية عن التذلل لشياطين العبث الاقتصادي الدولي، والتحرر من الخضوع لشروط التعامل مع طواغيت الحكومات الفاسدة والعصابات المجرمة، وبناء الرق الجديد للدول والشعوب، فالاستعانة بداية التحول والتغير الإيجابي المتعلق بالقوة العظيمة التي تمد بعون الله تعالىٰ وتوفيقه.

والاستعانة بابها الحولقة، وهي قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فلا حول عن معصية اللَّه إلَّا بعصمة اللَّه، ولا قوَّة علىٰ طاعة اللَّه إلَّا بتوفِيق اللَّه، ولا تحول من حالة الكسل إلىٰ العمل، ومن حالة الخمول إلىٰ الحركة وترك الخلل، ومن حالة البؤس إلىٰ السعادة، ومن حالة السلبية إلىٰ الإيجابية، ومن حالة الجمود إلىٰ التغيير المثمر إلا بقوة، وهذه القوة لا يمكن أن يجدها المرء إلا عند الله تعالىٰ يعينه بها، ويمده بإيقاد شعلتها في نفسه، ولذا كانت: لا حول ولا قوة إلا بالله من أعظم كنوز

الجنة، فهي من أهم الأدلة الشعورية والقولية للاستعانة فعن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنَّا مع النَّبي ﷺ في سفرٍ... وأنا خلفه، وأنا أقُول: لا حول ولا قُوَّة إلَّا باللَّه. فقال: «**يا عبدَ اللَّهِ بنَ قيسٍ.. ألا أدلُّك علىٰ كنزٍ من كنوز الْجَنَّة؟**». فقلت: بلىٰ يا رسول اللَّه. قال: «**قل لا حول ولا قوَّة إلَّا باللَّه**»[(١)].

المجال الثاني: ما يستطيعه البشر، ولكنهم قد يتعثرون في إقامته، أو يتراجعون في تكميله، أو يتزلزلون في تحصيله، أو يحول بينهم وبينه حائلٌ من عجزٍ أو كسلٍ، أو نحو ذلك، فأمر الله بالتعاون البشري فيه ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الْمَائِدَة: ٢]، ولكن مع حصر التوجه إلىٰ الله في إقامته واستمراره، فقد يستعين أحدهم بغيره، فيأبىٰ قلب الآخر أن يجيبه إلا أن يسخره الله تعالىٰ لذلك، ثم قد يعين ولا تترتب الثمرة إلا بإعانة الله -تعالىٰ ذكره-، ولذا لا بد من ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ابتداءً وانتهاءً، وهنا تعلم لماذا أُعِيدَ لَفْظُ ﴿وَإِيَّاكَ﴾ فِي الِاسْتِعَانَةِ دُونَ أَنْ يَعْطِفَ فِعْلَ (نَسْتَعِينُ) عَلَىٰ ﴿نَعْبُدُ﴾، فلم يقل: إياك نعبد ونستعين؛ لأنَّ بين الحصرين فرقًا، فالحصر فِي﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقيقيٌّ، والحصر فِي﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ادِّعائيٌّ، فإنَّ المسلم قد يستعين بغير اللَّه -تعالىٰ ذكره- كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الْمَائِدَة: ٢]، ولكِنَّهُ لا يَسْتَعِينُ به في غير المنهج الذي أراده الله، وعند استعانته به فإنه يظل متعلقًا بالله ليعينه علىٰ إكمال المراد.

ففي كلا المجالين يفزع القلب طلبًا لإغاثة الرب سبحانه، فلولا إعانة الله -تعالىٰ ذكره- لك لما تمكنتَ من قضاء حاجاتك الدينية والدنيوية، ولولا إعانته -جلَّ في علاه- لما وصلتَ للمراتب الشريفة العلية، فهو صاحب السلطة الغيبية التي تتحكم

---

(١) مسلم (٨/ ٧٣).

بكل الأسباب والأشخاص والقلوب والأفكار، وهو الذي يُحوِّل إلىٰ جنةٍ خضراء عواصف الآلام، وزوابع الرياح السَموم، وشرر النار، وشُعورُك بذلك يمنع عنك خَواطِرِ الِاسْتِغْنَاءِ عَنْهُ بِالتَّبَرِّي مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ، ويزيل عنك العُجْبَ والفخرَ الباطلَ والكبرياء، فحركتك كانت بعونه والتغيير في حياتك إنما يتم بإغاثته وإحسانه وتوفيقه وحفظه وصونه، ولذا فإن ما يعين فيه البشر بعضهم بعضًا لا يكون لولا أن الله أوجد لهم أصول آلاته بعونه وقوته، فقال -تعالىٰ ذكره- مبينًا ذلك ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:٨ - ١٠]،

فالعينان إيماءٌ إلىٰ طرِيق المعارف، وأصلُها المحسُوساتُ، وأعلىٰ أنواعها الـمُبصرات. واللسان والشفتان إيماءٌ إلىٰ النُّطق والبيان للتَّعليم، وإلىٰ الاستفادة من المسموعات في تكوين المعلومات. وَهداية النجدين إيماءٌ إِلَىٰ الشَّرَائِعِ واستيفاء المعلومات؛ لتكوين الصحيح من الأفكار والتَصَوُّرات[١].

فلا يستطيع البشر أن يعين بعضهم بعضًا لولا أصل العون من الله -تعالىٰ ذكره- لهم.

الاستعانة بالله -لا بسواه- أساس لتحقيق الإنجازات والانتصارات الشخصية والجماعية، فلا يعتمد المرء علىٰ عقله أو تفكيره أو خططه المستقبلية أو حزبه أو ثرواته أو جماعته أو قبيلته أو دولته، بل يجعل الأسباب أدواتٍ مسلوكةً دون أن ينهمك فيها، أو يغرق في البحث عنها حتىٰ يصرفه ذلك عن طلب الإعانة من الملك العظيم الوهاب، وهذا يقيد شهوة الأخذ بالأسباب المادية لدرجة أن يذوب المرء فيها حتىٰ يكاد يعتمد عليها كل الاعتماد.

وربما تبادر إلىٰ السؤال حول قوله -تعالىٰ ذكره-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٨٤).

بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣]..

ما العلاقة بين الاستعانة بالصَّبر والصلاة بالاستعانة التوحيدية الخالصة المذكورة في الفاتحة؟

والجواب بيِّن: فالاستعانة بالصبر والصلاة تعني الاستعانة بالأدوات التي تحقق الاستعانة بالله.. الصبر: حبس النفس رضا بقضاء الله، وطلبًا للفرج من نوائب الابتلاء، وحفظًا للنفس من نوازع السُّوء. والصلاة: أداة الاستعانة المباشرة لتحقيق التوحيد الحقيقي الخالص.

البصيرة الثالثة

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تَصوُّر التحقق، والتعلق والتخلق، ولذة المناجاة، وجمال القرب

انتقل معي إلىٰ ملمحٍ آخر يشرق في أسلوب الآيات في سورة الفاتحة، حيث ستلاحظ أن الله بدأ بأسلوب الكلام عن الغائب فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ثم قال﴿إِيَّاكَ﴾ فتحول إلىٰ الخطاب، فلماذا؟

إنه مبدأ (الالتفات)، وهو أسلوبٌ عربيٌّ لفظيٌّ لحكمةٍ معنويةٍ، فالحكمة هنا أن تبني (الفاتحةُ) العلاقة بين العبد وربه علىٰ لذة المناجاة، وأُنْسِ القرب، فبعد أن أثنيتَ عليه -جلَّ مجده- بصيغة الغائب ثناءَ المشفق القلق الوجل المستحي، مستشعرًا عظمته وصغرك، وغناه وفقرك اقتربت منه بالثناء، وشعرت بلذة مناجاته، فبلغت بك الفكرة منتهاها، وأزهرت ورودها في رباها، فخاطبت رَبَّك بالإقبال، فقلت: (إياك) ولم تقل: إياه، فكأنه أمامك تخاطبه -سبحانه وتعالىٰ- مباشرةً، وبعكس ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾ [العنكبوت: ٢٣] حيث شنَّع كفرهم أمام العالم، ثم انتقل إلىٰ أسلوب ضمير المتكَلِّم ليصدر حكم عز الربوبية فيهم.

واستخدام أسلوب الالتفات يبني المحافظة علىٰ أساليب اللغة العربية في العقل الإسلامي، وهذا جانبٌ لفظيٌّ يضاف إلىٰ الحكمة المعنوية السابقة، فالالتفات من أساليب العرب وتفننها في الكلام لينشط السامع.

البصيرة الرابعة

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تعني أن "من علامات النجاح في النهايات الرجوع إلى الله في البدايات".

والآن تعال بنا إلىٰ التساؤل عن هذا الترتيب المحكم لهاتين الجملتين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ والعطف بينهما بحرف المشاركة (الواو) دون حرف الترتيب (الفاء)، فلماذا كان ذلك؟ إنه القرآن يسبق تفكيرنا، ويبني عقولنا.. ويبين لك العلاقة بين العبادة والاستعانة:

إن هذا الترتيب يُزَكِّي النفسَ المسلمة، ويبني حس الأوليات والأولويات عند الحكام والمحكومين، وصناع القرار وعامة المسلمين:

فالعبادة أساس الاستعانة وهدفها؛ فكونها أساس الاستعانة تكون سابقة، وكونها هدفًا تكون لاحقة، والاستعانة ثمرة العبادة ووسيلتها؛ وكونها ثمرةً تكون لاحقة، وكونها وسيلة تكون سابقة

فقد اشترك كلٌّ منهما في أن يكون سابقا لاحقًا، إلا أنه قدم العبادة علىٰ لسان العبد ليبين هذا العبد المخبت أن هدفه حقٌّ وصدقٌ خالص، فحقُّ له عندما يطلب العون أن يعان ، وجمع الله بين العبادة والاستعانة بحرف الواو ليجمع بين ما يجب له، وما يطلبونه منه، فذكر الله تعالىٰ الغاية والهدف أولًا وهو العبادة التي هي الغاية والمقصود، وبها مراقي الطمأنينة والصعود، والسعود، ثم ذكر الوسيلة لإقامة العبادة، وهي الاستعانة بالله الذي يعينك بالأدوات الحسية، والهداية القلبية.

وقد يقال: إن الاستعانة عبادة في ذاتها فكيف تعيننا علىٰ إقامة العبادة؟ والجواب:

نعم! الاستعانة من جهةٍ عبادةٌ جزئيةٌ، ولكنها من جهةٍ أخرىٰ تعين علىٰ بقية أنواع العبادات، فقدَّم الله العامَّ ثم ذكر الخاصَّ؛ لأهميته في القيام بالعام، فلا بد للعابد من الاستعانة الكلية، ولا بد للمستعين من تقديم العبادة الجزئية لتكون منطلقه لسائر أنواع العبادة، فباستعانته يجد أحسن الوفادة، فهي مفتاح الفضائل والرقي في بلوغ الكمال، وبها يَظْهَرُ الخضوعُ والتواضعُ من الإنسان، كما يَظْهَر بها الاستغناء عن الأمثال؛ إذ مُعينُه في كل حياته هو الله الكبير المتعال، وبالاستعانة يأخذ الإنسان أعظم الطاقة والاستعداد، ويتزود بأقوىٰ زاد، فهي أداةٌ لتحقيق بقية الأنواع العبادية كالصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، ومساعدة المحتاجين، وتنمية المجتمعات بما يؤدي إلىٰ سعادة العالمين.

إن الذي لا يملك شيئًا إذا مدَّ يد الاستعانة إلىٰ الله الذي بيده كل شيء ينصره -تعالىٰ- إذا كان المستعين به مخذولًا، ويواسيه -عزَّ جاره- إذا كان المستعين به مكروبًا، ويقضي حاجته إذا كان المستعين به مسكينًا، ويحقق آماله، وينيله بغيته. يصدر ممن يملك كلَّ شيءٍ لفتة رحمةٍ تنزل من عَظَمته إلىٰ الذين لا يملكون من قطمير، فتسمو بهم من الحضيض إلىٰ الدرجات العلىٰ، فقل لي: هل هذه اللفتة يمكن أن تكون -بشكل أو بآخر- أمرًا تتلعثم الفطرة الإنسانية في قبوله والاعتراف به؟![(١)].

ولكن المستعين طالبُ حاجةٍ، فلا بد أن يُقَدِّم بين يدي طلبه شيئًا يجعل حاجتَه تُقضىٰ، وأدعيتَه تُستجاب، فقدَّم ما يدلُّ علىٰ صحة مقصوده من ذكره للعبادة ليُحَقِّقَ له العلي الأعلىٰ العونَ؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «**قال الله تعالىٰ: وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مِمَّا افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنَّوافل حتَّىٰ أحبَّه، فإذا**

(١) الفتنة الدجالية ص٣٠.

أحببته كنت سمعه الَّذِي يسمع به، وبصره الَّذي يبصر به، ويده الَّتي يبطش بها، ورجله الَّتي يمشي بها، وإن سألنِي لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعِيذَنَّه»(١)، فمن تقرَّب إلىٰ الله بالعبادة تمت إعانة الله له، ومثل ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] أي: استعينوا علىٰ قضاء حوائجكم بعبادتين: الأولىٰ قلبية عقلية وهي: الصبر، والثانية عملية وهي: الصلاة، وهما جماع العبادة، فكأن العبد الذي شرع في العبادة يقول: يا رب شرعت في العبادة فأستعين بك في إتمامها، وأتيت بنفسي إلَّا أنَّ لي قلبًا يفرُّ منِّي، فأستعين بك في تثبيته علىٰ طاعتك، ومن الاستعانة العظيمة قول النبي ﷺ: «**اللهم قني شر نفسي، واعزم لي علىٰ أَرْشَدِ أمري**»(٢).

ولذا قيل: كأن العبد يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ لأنك الصانع، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾؛ لأن المصنوع لا غنىٰ له عن الصانع،﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ لأنَّا عبيد، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ لأنك كريم مجيد، ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ لأنك المعبود بالحقيقة، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ لأننا العباد بالوثيقة(٣).

كما أننا نجد الترتيب بين العبادة والاستعانة جاء علىٰ ترتيب ظهور أسمائه في الفاتحة، فعِبَادَةُ اللهِ -تعالىٰ ذكرُهُ- هي غاية الشُّكر له في القيام بما يَجبُ لأُلوهِيَّتِه من حيث إنه ﴿ٱللَّهُ﴾، واستعانته هي غاية الشُّكر له في القيام بما يجب لربوبيَّته من حيث إنه (رب العالمين)(٤).

---

(١) البخاري (٨/ ١٣١) .

(٢) مسند أحمد بن حنبل(٤ / ٤٤٤)، وقال الأرناؤوط: إسناده علىٰ شرط الشيخين.

(٣) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن (١/ ١١٨).

(٤) تفسير المنار (١/ ٥٠).

الآن تعال إلىٰ لمحة من التربية النبوية لعظماء الأمة وروادها وقادتها علىٰ مبدأ الاستعانة، فابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يفصل له النبي ﷺ أنوار الاستعانة، فيقول: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف»[(١)].

إن هذه التربية الإلهية للعباد بالاستعانة بالله تكررت في الكتب السماوية فقد جاء في المزامير (٥٤: ٢٣): «أَلْقِ علىٰ الرب هَمَّك وهو يعولك»، وقال (١٢٦: ١): «وإن لم يبن الرب فباطلًا يتعب البناؤون» وقرر ذلك أرباب المراقبة فقالوا:

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتىٰ فأول ما يجني عليه اجتهاده

وقالوا:

إِذا لم يكن عونٌ من الله للفتىٰ أَتتهُ الرَّزَايا من طريق الفوائدِ[(٢)]

أما عند المسارعة إلىٰ اقتباس العون من معينه العذب فقالوا:

إذا صحَّ عونُ الخالقِ المرْءَ لم يجدْ عسيرًا من الآمالِ إلَّا مُيسَّرَا

فكل جملة من الجملتين في مكانها المعجز، وترتيبها التربوي الرائع المجيد.

بقي أمرٌ أخيرٌ في هذه الآية المباركة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ -وأنوارها لا تنقضي-: لماذا كان الكلام عن العبادة والاستعانة علىٰ سبيل الإخبار؟ فالله سبحانه لم يقل: (اعبدوا الله)، ولم يقل (باللهَ استعينوا) مثلًا وإنما قال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

---

(١) الترمذي (٤/ ٦٦٧)، وقال: حسن صحيح.

(٢) ولأبي فراس الحمداني: إذا كان غير الله... .

والجواب علىٰ ذلك: لأن الله أراد أن يبين أن العقلاء ما إن سمعوا تمجيد رب الأرض والسماء، وظهر لهم توحيده، واستبانت لهم صفاته ورحمته وملكه ليوم الدين حتىٰ أذعنوا واستسلموا وقالوا: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ فصارت العبادة واقعهم الحياتي، وصارت الاستعانة مسألةً خبريةً وصفيةً لأفعالهم وأقوالهم.

وهنا تتعجب كيف ألجأهم إلىٰ أن يلتزموا ذلك حتىٰ جعل الكلام علىٰ ألسنتهم، وليس أوامر صادرة منه سبحانه، وهنا تعجب كيف تأخذ سورة الفاتحة بيد العبد النافر عن الله ليردد -ولو علىٰ سبيل القراءة المحضة-: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ .

المقصد السابع

(الصراط المستقيم) هو الطريق الوحيد لاتخاذ القرارات الصائبة في التعامل مع الحياة وإقامة النظام العبادي ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾

فهذا مقصدٌ تعريفيٌّ بالطريق الصحيح لإقامة نظام العبادة في الإسلام، وقوله ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ يعني: اهدنا ربنا إلىٰ اتخاذ القرارات الصائبة السليمة المستقيمة في جوانب حياتنا المختلفة لتكون كلها عبادة ترضاها، واستنبطنا هذا المقصد من قوله تعالىٰ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، فبناء النُّظُم العباديَّة الحيوية ينبغي أن يكون محكومًا بالتحقق من السير في الصراط المستقيم، والتخلق بصفات أصحابه، وهذا المقصد يبين لنا قاعدة (حق العباد في معرفة أخصر طرق السعادة)، ويبين هذا المقصد البصائر الكلية الآتية:

المقصد السابع:	(الصراط المستقيم) هو الطريق الوحيد لاتخاذ القرارات الصائبة في التعامل مع الحياة وإقامة النظام العبادي ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾.
البصيرة الأولى	﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ هي الحصن العاصم للعبادة من الانحراف السقيم
البصيرة الثانية	﴿ٱهۡدِنَا﴾ علامةٌ على أن تحقيق المطالب يتم بتقديم ذكر أعظم المناقب
البصيرة الثالثة	﴿ٱهۡدِنَا﴾ الاهتداء بداية الحياة الحقيقية للخروج من الأزمات والحَيرة والظلماء
البصيرة الرابعة	(الصراط المستقيم) مثال الحماية المصطلحية الإسلامية النقية من المخاطر الثقافية
البصيرة الخامسة	الرحمة تقتضي هداية العالم إلى الصراط وحراستهم من الانحراف أو الانجراف
البصيرة السادسة	(الصراط المستقيم) يُقَدِّمُ الحلول للقضايا العالمية المثخنة بالظلم والعوج
البصيرة السابع	﴿الصراط المستقيم﴾ يعني أن عودة أمة الإسلام إلى الصدارة العالمية يتم عبر القرآن، وهذا يقتضي محو أمية تلاوة القرآن، ووجوب نشر مؤسسات التعلم القرآني
البصيرة الثامن	(الصراط) يربط بين عالمي الغيب والشهادة، ويصل بين مرحلتي الدنيا والآخرة

البَصِيرَةُ الأُولَى

{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} هي الحصن العاصم للعبادة من الانحراف السقيم

نستنبط هذه البصيرة من المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما قبلها؛ فالإنسان يشعر بالاطمئنان والأمان إلىٰ إعانة الرحمن عند قراءته لقوله -تعالىٰ ذكره- ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، حيث بين له قوله تعالىٰ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ المقام الذي يؤدي به وظيفته الحيوية، وهي وظيفة العبادة لتحقيق السيادة والسعادة، وبين له قوله تعالىٰ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مقام الوسيلة لتحقيق تلك الوظيفة النبيلة، وبعد أن عرف وسيلة عبادته بقي له أن يطمئن لتكون عبادته مقبولة صحيحة؛ إذ إنك ترىٰ أن لكل الأمم كالبوذيين والهندوس واليهود نظامًا عباديًا.. فأيهم صاحب العبادة الصحيحة؟ ومَن هو الذي يجسد الحق في نظامه العبادي؟

تجيبك (الفاتحة) بأن يكون ذلك بسلوك السبيل السوي المستقيم غير المنحرف ولا المائل، حيث يتم تحقيق مقام الوظيفة العبادية علىٰ الوجه الأمثل، وهناك يحق له أن يقول لمن زاغ من البشرية واخترع لنفسه العبادات المبتدعة وغوىٰ ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ١٣٥].

ربما أتاك الكثير من الإعجاب بهذه العواصم التي أنزلها الله -تقدست أسماؤه- ليحمي المسلمين من الانحراف والضلال، والانجراف وسقيم الخيال، وذلك ليحافظ علىٰ الإسلام من التغيير والاختراع الذي تورط فيه أتباع أنبياء سابقين.. إن الإسلام يمنع أتباعه من أن يخترعوا عباداتٍ من عند أنفسهم يستبدلون بها دين الله. إن العبادة المطلوبة هي التي تكون علىٰ الصراط المستقيم الذي سار عليه الـمُنعَم عليهم، لا وفق

عبادة المغضوب عليهم ولا الضالين.. انظر إلىٰ هاتين الآيتين المعجزتين كيف حفظتا الإسلام، وعصمتا المسيرة العبادية من الأديان المنحرفة خارج الإسلام من جهة، ومن البدع المضلة التي يمكن أن تُخترع داخل الإسلام من جهة أخرىٰ، فالهداية إلىٰ الصراط المستقيم تكون في كل شأنٍ من شؤون الحياة، والصراط المستقيم هو الوسط العدل الخيار، وهو الدين القيم، والإنسان يكون مهتديًا بالدخول في الإسلام، ولكنه مُعَرَّضٌ للانحراف إلىٰ طرفي الغلو والجفاء بعيدًا عن الصراط المستقيم إن لم يجد هدايةً من ربه في كل أفكاره وقراراته الدينية والدنيوية، وعلىٰ هذا فالإنسان محتاجٌ إلىٰ هداية الرحمن في كل جزئيةٍ من جزئيات الحياة:

إني إليك مدىٰ الأنفاس محتاجُ لو كان في مفرقي الإكليلُ والتاجُ

يقرأ القارئ قوله تعالىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، فربما أثار ذلك عنده تساؤلات: كيف نعرف العبادة الحقة، وما سبيلها؟ وهل سار فيها سائرٌ من قبل؟ وكيف نتوقىٰ تزييف الشيطان لما يُسَمَّىٰ عبادةً؟

فلا تتركه أنوار الفاتحة حائرًا، ولا سائرًا بغير هدىٰ، بل يبين الله تعالىٰ له الوجه الأمثل الذي يكشف العبادة الحقيقية، **وهو الوجه الـمُتَّصِفُ بثلاث صفات:**

الصفة الأولىٰ: أن يكون الأداء باستقامةٍ دون اعوجاجٍ بأن يكون علىٰ الطريقة ذاتها التي سار عليها الـمُنعَم عليهم من قبل ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ .

الصفة الثانية: ألا يكون علىٰ طريق المغضوب عليهم بأن يؤدي إلىٰ غضب الله الذي يكون مبعثه العناد واللجاج ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾

الصفة الثالثة: ألا يكون علىٰ طريق الضالين التائهين بأن يؤدي إلىٰ ضلالةٍ تَجُرُّ صاحبها إلىٰ السقوط والهلاك والشقاء، أو الرعونة والاعتداء ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

البصيرة الثانية

{اهْدِنَا} علامةٌ على أن تحقيق المطالب يتم بتقديم ذكر أعظم المناقب

ما معنىٰ هذه البصيرة؟ إنها تعني أن إجابة الدعاء تعتمد علىٰ حسن الطلب ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥، ٥٦]. ولكن من أين استنبطنا أن تحقيق المطالب يقوم علىٰ ذكر أعظم المناقب في الفاتحة؟

استنبطنا هذا المبدأ التوجيهي في كيفية الوصول إلىٰ تحقيق الأهداف عند الدعاء من الاتصال بين هذه الآية وبين ما قبلها أيضًا، فهؤلاء العباد المنيبون يريدون من الله تحقيق أحد الأهداف الحيوية العظيمة، وهو: الهداية للعبادة الحقة، ولكنهم لم يسألوها إلا بَعْدَ أَنْ حَمِدُوا اللَّهَ وَوَصَفُوهُ بأجمل الصفات وأعظم الثناء، وذلك في الآيات الأربع الأُول، ثم أتبعوا ذلك بتقديم خالص الولاء عندما قالوا: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، فلما ظنوا أنهم قد تقربوا إلىٰ الله بهذين الأمرين الجليلين بادروا يطلبون من الله تحقيق أعظم أهدافهم، وهو الهداية في اتخاذ القرارات، وفي الوصول إلىٰ الأعمال الصالحات عن طريق سلوك السبيل الذي سار فيه السعداء، والعصمة من سبل الأشقياء، وإذا كانوا قد قدموا بين يدي سؤالهم: الثناء والولاء فحريٌّ بهم أن يستجاب طلبهم، وقد حثَّ النبي ﷺ علىٰ الثناء ليكون وسيلةً لإجابة الدعاء، فقد روىٰ فَضالةُ بن عبيد ﷺ أن النبي ﷺ سمع رجلًا يدعو في صلاته، فلم يصلِّ علىٰ النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «عَجِل هذا» ثم دعاه فقال له –ولغيره–: «**إذا صلىٰ أحدكم فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه، ثم ليُصلِّ علىٰ النبي ﷺ، ثم ليدع بعد بما يشاء**»[(١)].

---

(١) الترمذي (٥ / ٥١٧)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح".

البصيرة الثالثة

{اهْدِنَا} بداية الحياة الحقيقية للخروج من الأزمات والحَيرة في الظلمات

بوابة إقامة النظام العبادي الحق بعيدًا عن الضلال والتحريف هي الاهتداء، فما معنىٰ كلمة اهدنا؟ انظر هنا إلىٰ روعةِ الأداءِ، وجمالِ الآلاءِ، ونعمة المعاني التي تثيرها هذه الكلمة ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾؛ إذ الْهِدَايَةُ مصدر من (هدىٰ).

وهذا الفعل يدل علىٰ أصلين:

أحدهما: التقدُّمُ للإرشاد، **والآخر**: بعثُه بلطفٍ، من قولهم: هديتُه الطَّريق هدايةً، أي تقدّمتُه لأرشده، وكلُّ متقدِّم لذلك هادٍ[1]، فالهدايةُ عند العرب هي الدَّلَالَة بتلطُّفٍ، ولذلك خُصَّت غالبًا بالدَّلالة لما فيه خير الْمدلُول؛ لأنَّ التَّلطُّف يُناسب من أُريد به الخيرُ، والهداية في القرآن الكريم تأتي علىٰ أربعة معانٍ:

المعنىٰ الأول: هداية الفطرة الجِبِلِّية الغريزية:

وبهذه الهداية يُمَيِّزُ كلُّ مخلوقٍ ما يضره وما ينفعه مما غُرِس في طبيعته، كما قال تعالىٰ: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠]، خلقه ثم وضع في خلقته الأصلية وظيفته التي ينبغي أن يقوم بها، ومثل ذلك قول ربنا -جلّ مجده-: ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلىٰ: ١ - ٣]، ألا ترىٰ أنه خلق النحلة، ووضع في فطرتها ماذا تصنع، وخلق النملة، وهداها لأنواعٍ من العمل الجماعي، وخلق الله الرضيع وهداه لالتقام ثدي أمه... وهكذا، وهذه الهداية لا تدخل في ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ .

---

(١) معجم مقاييس اللغة٦/ ٤٢.

المعنىٰ الثاني: هداية الدلالة البيانية الإرشادية لتكوين الخبرة المعرفية البسيطة والمتراكمة:

لـمَّا خلق الله البشرية لم يتركها دون أدلة إرشادية تتعرف بها علىٰ وجودها، وعلىٰ البيئة حولها، ولذا عرفهم علىٰ نجدي الخير والشر ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، فما النجدان؟ إنهما الموضعان المرتفعان اللذان من خلالهما تعرف الخير والشر.. وكان يمكن أن يكون التعبير هنا بالسبيلين أو الطريقين بدلًا من النجدين.. أليس يقول الله في موضع آخر: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]؟ لكنه عبر عن السبيلين بالنجدين لأن أهل اللغة -ومنهم الخليل- يميزون بين نوعين من الطرق: الغور والنجد، فالنجد كل شَرَفٍ من الأرضِ استوىٰ ظهره فهو نجدٌ، ويجمع علىٰ أنجاد، فالنجد أرض فيها ارتفاع وصلابةٌ، كما قيل:

قلائص إذا علون فدفدا رمينَ بالطَّرفِ النِجادَ الأبعدا

ويميز الواقف علىٰ النجد بوضوح الطريق أمامه، ولذا يسمىٰ الطريق الواضح، ومن ذلك قول الشاعر:

وقد جاكمُ النجد النذير مُحمَّدٌ دليلٌ علىٰ طرقِ الهُدىٰ ليس يَهمدُ(١)

فخُذْ هذا المعنىٰ القرآني الفريد لتعلم أن الذي يعرف نجدي الخير والشر يطلع علىٰ أمورٍ تخفىٰ علىٰ من كان أسفل النجدين.. فهو يدل التائهين ويرشد الحائرين، والهادي قد يكون الله -جلَّ في علاه- كما في قوله: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]، وقد يكون الهادي نبيًا يدل علىٰ هدىٰ الله، وقد يكون مصلحًا يهتدي بهدىٰ الأنبياء، فاسمع لذلك في قول الله جلَّ ذكره: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، أي: إنك أيها الرسول لتبين حقًّا البيانَ الوافي، وتدل

---

(١) العين (٦/ ٨٣).

الناس إلىٰ الصراط المستقيم في أمور الحياة، وهو الصراط غير المعوج الذي ينقذ من التجارب المؤلمة، والمتاهات المضلة، ولكن الهداة قد يجدون الصد والإعراض من المدعوين؛ ذلك بأنهم لا يعرفون مصالحهم الحقيقية. ألم تر أن الله قال عنهم: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

والدلالة والبيان مراتب: فمنها ما يكون بالفكر، وذلك بملاحظة المعقول لتحصيل المجهول، وهنا تكون الهداية الأولية، والهداية التي تكون الخبرات التراكمية، ويتم من خلالها الاستكشاف، وبناء المعلومات علىٰ المعلومات لتكوين الخبرة المتراكمة.. ما هذا؟ إنها الهداية إلىٰ المعرفة البسيطة، والمعرفة المتراكمة، وقد أنشأ الله العقول البشرية للحصول عليها، فقال -تعالىٰ اسمه- مبينًا إمداده للعقل البشري بهذه الهداية للنظر في الآفاق والأنفس والتاريخ ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦].. ولكن لا تذهب بعيدًا -يا رفيق الدرب- فإن من هذه الهداية ما لا يمكن تحصيله إلا بمجيء النبي الهادي.. العقل وحده لا يكفي! وهذا هو معنىٰ قوله -تعالىٰ جدَّه-: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وقوله -عزَّ سلطانه-: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣]، فالعقل هادٍ لأمورٍ دنيويةٍ محدودةٍ، لكنه يفتقر إلىٰ النبي الهادي ﷺ في المعرفة الكلية للوجود، حيث تتم الهداية إلىٰ أسهل السبل وأسرعها نحو الغايات الحيوية المقصودة من الراحة والنعيم المقيم. وللأمور الشرعية منها موقع خاص حيث تكون الهداية فيها للمؤمنين حقًا ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥].

المعنىٰ الثالث: هداية الإلهام والتوفيق:

فبعد معرفة طريق الخير والشر تأتي خطوة الاختيار واتخاذ أخطر قرار: هل نرتقي نَجْدَ الخير أم نصعد نَجْدَ الشر، وهنا تكمن أهمية مقاومة الأهواء والنزوات الشريرة التي قد ترتع في نفوسنا وصدورنا كما تكمن أهمية سؤال الله تعالىٰ أن يُلْهِمَنا ويعْزِمَ لنا علىٰ أرشد أمورنا[1] لارتقاء نجد الخير ومقاومة جواذب الشر، وهذا هو المعنىٰ الثالث، وهو الإلهام لسلوك طريق السلام، وهذه الهداية بيد الله سبحانه وتعالىٰ القائل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، ولكن الذي يستحق الإلهام والتوفيق هو من ينأىٰ بنفسه عن جواذب الشر.. إنه من يردع أهواء النفس الأمارة بالسوء، وليس هو من يتمنىٰ الأماني، ويقعد عن متطلبات المقاومة لكسله أو لأهوائه، وهنا يبرز لنا الحسن البصري ليقول: (حادِثُوا هذه القُلُوب بذكر الله، فإنَّها سريعة الدُّثُورِ، وَاقْدَعُوا هذه الأنفس فإنَّها طُلَعَةٌ، وإنَّمَا تَنْزِعُ إلىٰ شرِّ غايةٍ، وإنَّكم إن تطيعوها في كلِّ ما تَنْزِعُ إليه لا تبقي لكم شيئًا)[2]، فمن اختار ذلك قَرَّبه الله نجيًّا[3]، وجعله مهديًّا، ومن أبىٰ إلا اتباع نزوات نفسه، وخرج عن صالح فطرته أضله الله.. وانظر ذلك تجده في قوله تعالىٰ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى

---

(١) من قول النبي ﷺ: «اللهم قني شر نفسي، واعزم لي علىٰ أَرْشَدِ أمري»، وقد تقدم قبل قليل.

(٢) الزهد لابن المبارك (١ / ٩١)، (الدثور) من دثر أي: درس وانطمس وذهب، والمراد: أنها تسرع في التغير والتقلب، (واقدعوا) أي: كفوا وأمسكوا، كأنها بمعنىٰ: اقمعوا، أي أن النُّفُوس تطلع إِلَىٰ هَواهَا وتشتهيه حَتَّىٰ تردّي صَاحبهَا، يَقُول: فامنعوها عَن ذَلِك.

(٣) ليست المناجاة خاصة بالكليم موسىٰ عليه الصلاة والسلام -وإن كان له مزيد اختصاص في كيفيتها-، فالنبي ﷺ قال -فيما رواه البخاري (١ / ١١٢)-: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ فِي صَلاتِهِ، فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ».

ﵟٱلۡأَرۡضِﵞ [البقرة: ٢٦، ٢٧]، فما نتيجة مثل هذا العابد لهواه؟ تكون عاقبته الخسارة المحققة والإخفاق التام ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧]، وهذا التخويف المشفق من عبادة الأهواء منتشر في القرآن كقوله -جلَّ ذكره-: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

وللإلهام والتوفيق مقتضيان:

المقتضى الأول: الثبات على الهدى: وهذا الثبات نجده في قوله -تعالى ذكره: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]، ولذا قال ابن منظور في معنى ﴿ٱهۡدِنَا﴾ في الفاتحة: «قد رغبوا منه تعالى التَّثبيت على الهدى»(١).

ومن سؤال الثبات على الهدى ما رواه ابن عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا أَنَّ رسول اللَّه ﷺ كان يقول: «**اللَّهمَّ لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكَّلتُ، وإليك أنبت، وبك خاصَمتُ، اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بعزَّتك -لا إله إلَّا أنت- أن تُضِلَّنِي، أنت الحيُّ الَّذي لا يموت، والجِنُّ والإنس يَمُوتُون**»(٢).

والثبات على الهدى يؤدي إلى الصبر على المشاق، كأن المصلي يقول: «اهدنا صِرَاط الْأَوَّلِينَ فِي تَحَمُّلِ الْمَشَاقِّ الْعَظِيمَةِ لِأَجْلِ مَرْضَاتك سبحانك»، حتى حكى ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: كأنِّي أنظر إلى النَّبِيِّ ﷺ يحكي نَبِيًّا من الأنبياء ضَربهُ قومُهُ، فَأدمَوْهُ، فهو يمسح الدَّم عن وجهه، ويقول: ربِّ اغفر لقومي، فإنَّهم لا يعلمون(٣)،

(١) لسان العرب (١٥/ ٣٥٥).

(٢) مسلم (٨/ ٨٠) .

(٣) البخاري(٩ / ٢٠).

وينبغي التأكيد هنا علىٰ أن التغير الجزئي لا يدل علىٰ عدم الثبات.

المقتضىٰ الثاني: الازدياد من أعمال الهدىٰ لتحقيق التقوىٰ طلبًا لأعلىٰ مراتب الرشاد:

لقوله تعالىٰ ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد: ١٧]، فكأن الطلب في قول المصلين: ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ يعني الدوام علىٰ المطلوب، أو الازدياد من خصاله كقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [النساء: ١٣٦] أي اثبتوا علىٰ الإيمان، أو اعملوا بمقتضياته؛ لتزدادوا إيمانًا، وحتىٰ تتحقق من وجود الإلهام والتوفيق لا بد أن تشعر بالازدياد اليومي من الهدىٰ، ومن أبرز علامات الثبات علىٰ الهدىٰ، والازدياد منه عدم الجزع عند الفزع.

المعنىٰ الرابع للهداية: الهداية بمعنىٰ الدلالة إلىٰ ثواب الاهتداء، أو عقاب الضلال والإغواء -جزاءً وفاقًا-:

إنها الهداية الأخروية تكون جزاءً علىٰ الهداية الدنيوية.. فالهداية في الدنيا تقود إلىٰ الهداية في الآخرة، سواءً كان ذلك إلىٰ الجنة للمهتدين المؤمنين أم إلىٰ جهنم لمن رفض الاهتداء وأصر علىٰ الغوىٰ والضلالة والاعتداء.. فأما في حق المؤمنين فيقول أرحم الراحمين: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [يونس: ٩]، وهذه الهداية في جنات النعيم تكون لمنازلهم وقصورهم ومملكتهم، وقد بين هذا المعنىٰ أمير المؤمنين في الحديث الإمام البخاري عند روايته لقول النبي ﷺ عن أهل الجنة: «أُذِنَ لهم في دخول الْجَنَّة، فوالَّذي نفس مُحَمَّدٍ بيده لأحَدُهُم أهدىٰ بمنزله في الْجَنَّة منه بمنزله كان في الدُّنيا»[١]،

(١) البخاري(٨/ ١٣٩).

وأما هداية الظالمين إلىٰ الجحيم فكأنه ورد علىٰ سبيل الشماتة بهم؛ حيث يصف الله ما يقال لهم عند الجزاء فيقول: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]، وكأنهم إذ لم يهتدوا في الدنيا أُجْبِروا علىٰ الاهتداء في الآخرة، ولكن إلىٰ مآل المجرمين، وجزاء المكذبين، نعوذ بالله من حال أهل النار.

والمقصود بقوله تعالىٰ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ من هذه المعاني الأربع الثاني والثالث؛ لأن الأول جزءٌ من خِلْقَته، والأخير مكافأةٌ علىٰ فعله، فإذا ردد ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦] فكأنه يقول: ربنا اهدنا فبيِّن لنا، ودلنا، وأرشدنا إلىٰ الصراط المستقيم، وألهمنا، ووفقنا إلىٰ سلوكه، وثبتنا عليه، وزدنا من أعماله وشُعَبه يا أرحم الراحمين.. ولكأن العبد عندما يردد ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ يقول: اللهم اقطع أفكارنا عن شهود الأغيار، واملأ قلوبنا بأصدق الأنوار، ونقِّ مقاصدنا عن دنس دار البوار، وزدنا ارتقاء في منازل الأبرار، وخذ بنواصينا لنكون من عبادك المصطفين الأخيار.

لا تبتعد عن الجمال القرآني! فهناك المزيد مما يتعلق بهذا الفعل ﴿ ٱهْدِنَا ﴾؛ إذ هذا الفعل يدل **علىٰ أن أهم وسائل الحصول علىٰ الهداية وسيلتان:**

الوسيلة الأولىٰ: العلم الذي يقتضيه المعنىٰ الثاني للهداية، وذلك بطَلَب الْمَعْرِفَةِ الصادقة ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الرعد: ١٩].

الوسيلة الثانية: العمل الذي يقتضيه المعنىٰ الثالث للهداية، وذلك بالمجاهدة بِتَصْفِيَةِ الْبَاطِنِ وَتعويد الظاهر علىٰ اتباع أحسن ما يعلم من المعرفة الصادقة ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

وبهذه المجاهدة تظلُّ تترقىٰ حتىٰ تصبح من المُنعَم عليهم، وهم أولياء الله

الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.. فماذا تنتظر -أيا حبيباه- ؟

مَـن نَفـسه شـريفة أبيَّـة ... يـربأ عَن أُمُـوره الدنية
وَلـم يـزل يجنـح للمعالي ... يسـهر فِي طِلابها اللَّيَالِي
وَمـن يكـون عَارِفًا بـربّه ... تَصَـوَّر ابتعـاده من قـربه
فخاف وارتجىٰ وَكَانَ صاغيا ... لـما يكـــون آمـرًا أَو نـاهيا
فَكل مَـا أَمَـرَهُ يرتـكـبُ ... وَمَا نهىٰ عَن فـعله يجْتَنبُ
فَصَارَ محبـوبًا لخالق الْبشـر ... لَهُ بِهِ سمع وبطـش وبصـر
وَكَـانَ لله وليًـا إِن طلب ... أعطَاهُ، ثمَّ زَاده مِمَّا أحب[1]

---

(١) الزبد في الفقه الشافعي (ص: ٣٣٨).

البَصِيرَةُ الرَّابِعَةُ

(الصراط المستقيم) مثال الحماية المصطلحية الإسلامية النقية من المخاطر الثقافية

لم يذكر الله في محكمات (الفاتحة) وصفًا للإسلام إلا ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ فلم يذكر مصطلحاتٍ أخرىٰ مما درج الناس اليوم علىٰ وصف أنفسهم به (مثل الإسلام الليبرالي، والاشتراكي...) وهذا يُحَمِّلُنا واجبًا معرفيًّا وخُلُقيًا للنظر في سبب هذا الاختيار المصطلحي: فما الصراط؟

ذلك يعود إلىٰ المعنىٰ الدقيق المحدد لكلمة ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾، فهي مشتقة من سَرِطَ الشيءَ، وبابه فهم، واسْتَرَطَه ابْتَلَعَه، وانْسَرَطَ الشيءُ في حلقِه سارَ فيه سيرًا سهلًا، والسِّراطُ السَّبِيلُ الواضحُ، وتبدل السين صادًا فهي أَعْلَىٰ لتضارع التفخيم الناشئ عما بعدها، وإن كانت السين هي الأصل[1]، **ونستنبط للصراط خمس صفاتٍ:**

الصفة الأولىٰ: أن يكون طريقًا، فهو طريق أو جسرٌ يعبر الإنسان عليه إلىٰ وجهته.

الصفة الثانية: أن يكون مستقيمًا لا مُعْوَجًّا، والاستقامة إما أن تكون وصفًا تأسيسيًا، وإما أن تكون جزءًا من ماهية الصراط ذكرها الله لتكون وصفًا إيضاحيًّا زيادةً في بيانه ومدحه بحقائقه، ولاستحقاق هذا المصطلح ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ أن يذكر بالتفصيل والإطناب لا بالاختصار والاقتضاب؛ وبذا تظهر أهمية الاستقامة وعدم الاعوجاج واللِّجاج، وليعتز الذين يسلكون الصراط باستقامته واستقامتهم تبعًا له، وفي ذلك إيماء إلىٰ أن غيرهم اتخذ الحياة بقوانينها وتنظيماتها وإعمارها عِوجًا.

الصفة الثالثة للصراط: أن يكون واسعًا رحْبًا، فسلوك غيره يسبب الضيق والكدر.

---

(١) المحكم والمحيط الأعظم (٨/ ٤٣٣).

الصفة الرابعة للصراط: أن يكون سهلًا ميسرًا، فليس فيه تعرجات تُعَسِّر المسير.

الصفة الخامسة للصراط: أن يكون موصلًا إلىٰ المقصود ينتهي من يسير فيه إلىٰ هدفه المنشود.

فيكون معنىٰ ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾: بين لنا ووفقنا وألهمنا لسلوك الطريق المستقيم الواسع السهل الموصل إلىٰ تحقيق الأهداف السوية، والقرارات الصائبة التي تضمن لنا الفلاح والتفوق والفوز والنجاح في كل احتياجاتنا ومطالبنا الدنيوية والأخروية.

فما حقيقة الصراط المستقيم الذي يلبي كل تلك المعاني؟

هو الصراط الذي أقامه الله تعالىٰ حاويًا كل الصالحات؛ فلا تتطرق إليه الخبائث والسيئات والموبقات، فهو الوصف الحقيقي الآخر للإسلام، وهو الذي يبين معنىٰ الاستقامة المنهجية علىٰ المبادئ القرآنية، وتنفيذ التعليمات النبوية، فالصراط في آية سورة الفاتحة يصوِّر جمال الاستقامة وعظمة الإسلام، وتكوين شرائعه وشعائره لأجمل منهجٍ ونظامٍ، ولا يمنع من وجود سبلٍ متعددةٍ تكون كالمسارات ضمن الصراط الواحد تأخذ بأيدي الناس إلىٰ دار السلام ﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [المائدة: ١٦].

واستعمال هذا المصطلح في وصف المنهج الإسلامي يعصم من الزلل والخلل والعبث بالمفاهيم، فهذه أوليةٌ قرآنيةٌ تلزمنا باستخدام المصطلح الإسلامي بدلًا من محاولة البحث عن مصطلحات أخرىٰ تحمل المخاطر الثقافية التي قد تدمر المفهوم الإسلامي للمصطلح؛ ففي البناء المصطلحي لـ(الإسلام) حدد الله -سبحانه وتعالىٰ- المصطلحات الإسلامية الكبرىٰ؛ حتىٰ لا توضع مصطلحاتٌ أخرىٰ

محلها فتكون محل إلباسٍ أو إشكال، فلاختيار هذا المصطلح القويم ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ في (الفاتحة) التي تقرر الكليات الإسلامية العامة دون غيره من المصطلحات مزية خاصة حافظة للمعالم الإسلامية، وهناك بعدٌ آخر رائع في وصف الإسلام بالصراط المستقيم في قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ فهو إيماءٌ إلىٰ أنَّ الإسلام بالغ الحجَّة، قويم المحجة، قوي الدليل والبرهان، جاء علىٰ الفطرة الصادقة في خلق الإنسان فمم يخاف أهله؟ وما الذي يَرْهبُه المنتسبون إليه، وهو يخاطب من انتسب إليه قائلًا ﴿لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [طه:٦٨]؟ والاستقامة التي تضاد العوج -الذي تُدار به الأرض هذه الأيام- جزءٌ من حقيقة الإسلام، وإنما يحاول التائهون من الغلاة والجفاة أن ينسبوا إليه ما ليس منه، أو يسلبوا منه ما كان منه.

البَصِيرَةُ الخَامِسَةُ

الرحمة تقتضي هداية العالَم إلى الصراط وحراستهم من الانحراف أو الانجراف

وهذه الآية المباركة بصيغتها الدعائية ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾ تمثل طلبًا من العالم لله أن يهديهم إلىٰ الصراط المستقيم، وهي في الوقت ذاته تعني: (أيها الناس ادخلوا الصراط جميعًا، ولا تعوجوا)..

يا لهذا الإعجاز المدهش في الآية..يرجع الطرف عند التأمل مندهشًا مستسلمًا، ثم يقلب النظر فيها كرةً أخرىٰ فيمتلئ إعجابًا وروعةً...

وقد تتساءل ما الأمر هنا؟

الأمر -ملأ الله قلبك إيمانًا- أن الله تعالىٰ دلَّ عباده أن يلزموا هذا الدعاء بهذه الصيغة﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، فانظر -نضَّرَ الله وجهك- في هذا التعبير تجد أنه في الفاتحة لم يأت بصيغة: إلىٰ الصراط، أو للصراط، وذلك لنرتقي أربع درجاتٍ- رحمةً بنا-:

الدرجة الأولىٰ: الاهتداء إلىٰ الصراط ببيانه وتوضحيه، فتعرفنا عليه بذلك.

الدرجة الثانية: الاهتداء بالوصول إليه بعد بيانه، وهذه درجةٌ ثانية بعد الأولىٰ.

الدرجة الثالثة: الدخول فيه بعد الوصول إليه، وليس مجرد الوقوف عنده.

الدرجة الرابعة: الثبات علىٰ ما فيه من سبل السلام، ومسالك الاستقامة، وعدم الانحراف عنها، أو الخروج منها، وذلك يكون بعد الدخول فيه.

وصدِّق أو لا تصدق! لقد جُمِعت كل هذه المعاني الرائعة في حذف حرف الجر

بعد فعل الهداية في هذه الآية: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، فقد تعدىٰ الفعل ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾ بنفسه إلىٰ مفعولين، **وذلك لأن (هدىٰ) يأتي علىٰ ثلاث حالات:**

الحالة الأولىٰ: يتعدىٰ إِلَىٰ الْمَفْعُولِ الثَّانِي، وَهُوَ الْمُهْدَىٰ إِلَيْهِ بِإِلَىٰ، ومن ذلك قوله تعالىٰ ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [البقرة: ١٤٢]، ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴾ [النازعات: ١٩]، وفي هذه الحالة فإن المتعدي بـ(إلىٰ) يُسْتَعْمَلُ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ سَائِرًا فِي الطَّرِيقِ فدُلَّ عليه فقط؛ فالأصل أن (إلىٰ) لانتهاء الغاية المكانية والزمانية في مثل هذه الأحوال، فهو يصل إلىٰ بوابة الطريق، ويحتاج بعد ذلك إلىٰ هدايةٍ تاليةٍ بعد وصوله إليه ليدخل ويثبت عليه، ويأخذ بأحسن أجزائه، وأفضل نُظُمِه ومواضعه، ولذلك يأتي فعل الهداية متعديًا بـ(إلىٰ) إذا أريد التعريف المجمل بصراط الإسلام مقابل مناهج الشرك والضلال، فقوله -تعالىٰ ذكره- ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا ﴾ [الأنعام: ١٦١] أتىٰ (هدىٰ) متعديًا بـ(إلىٰ) ردًّا علىٰ المشركين الذين انحرفوا عن ملة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- حتىٰ كأنهم لم يروها، ولم يصلوا إليها، وفي الوقت ذاته يعتز النبي ﷺ بأنه هو الذي اهتدىٰ إلىٰ ذلك الصراط.

الحالة الثانية: يتعدىٰ إلىٰ المفعول الثاني، وهو الـمُهدَىٰ إليه بِاللَّامِ، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]، والمتعدي باللام يُستعمل في الوصول كالمتعدي بإلي، مع زيادة في الانجذاب إلىٰ الـمُهدىٰ له، ولذا يقول أهل الجنة: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣].

الحالة الثالثة: يتعدىٰ بنفسه إِلَىٰ المفعولين كما في هذه الآية ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ فالمفعول الأول: (نا)، والثاني: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ﴾، ففي الحالة الأولىٰ (المتعدي

بإلىٰ) يهدي إلىٰ الحق ويوصل إليه لكنه لا يجذب له بالضرورة، والحالة الثانية تعني وجود أمر زائد علىٰ الإيصال يتعلق بالترغيب في الوصول، والجذب له، وفي الحالة الثالثة: يدل عليه ويرغب فيه ويدخل فيه، ولذا كان من معاني ﴿ٱهۡدِنَا﴾ هنا الإلهام والتوفيق، ويشكل علىٰ هذا مثل قوله تعالىٰ ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ [البلد: ١٠]، وقوله: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣] حيث تعدىٰ الفعل هدىٰ هنا بنفسه، ولم يتضمن التوفيق بل مجرد البيان، ولكنك عند التأمل سترىٰ أن ما ورد في سورتي البلد والإنسان من التعدي للفعل بنفسه إنما كان ليبين الله أن مقدار توضيحه لنجدي الخير والشر قائم مقام حق اليقين، فقد بلغ إيضاح الله لسبيلي الخير والشر مقامًا عظيمًا في البيان لا يحتاج فيه إلىٰ مزيدٍ عليه.

فاستبان لنا أن الأعلىٰ رتبة من الحالات الثلاث هو الْمُتَعَدِّي بنفسه حيث يُسْتَعْمَلُ فِي الْهِدَايَةِ لِمَنْ لم يكن في الطريق ليحدث له الأمور الأربعة: معرفة الطريق، الوصول إليه، دخوله، الثبات عليه، والتوفيق لسلوك أفضل خصاله، وأجمل أجزاء كماله، وهو الذي سعىٰ إليه المتنافسون في الخيرات، واختار الله لهم أن يرددوه في سورة (الفاتحة) لتتحقق لهم الأمور الأربعة، فلذا لم يُعَدِّه بـ(اللام)، ولا بـ(إلىٰ)، فقال ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.

وهنا نجد جمال التصوير النبوي لـ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ مقابل إغراءات الإجرام الشهواني والفكري للانحراف عن الصراط، أو الصَّدْف والانجراف بعيدًا عنه:

صوَّر النبي ﷺ هذه الدرجات الأربع المتعلقة بالصراط المستقيم تصويرًا محسوسًا رائعًا بأبلغ لفظٍ، وأبين تمثيلٍ يبين الجمال في المقال، ويُقَرِّبُ المعاني للفكر والحس والتَصَوُّر والخيال، ويُظْهِرُ طريق الإسلام وغايته في الرحمة بالخلق، ودعوتهم إلىٰ المعبر الحقيقي ليبنوا الحياة الطيبة، ويجدوا طعم السعادة، فروىٰ

النواس بن سمعان الأنصاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «**ضرب الله مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلىٰ جنبتي الصراط سُوران، فيهما أبوابٌ مُفَتَّحَةٌ، وعلىٰ الأبواب ستورٌ مُرْخاةٌ، وعلىٰ باب الصراط داعٍ يقول: أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعًا، ولا تتفرجوا- أو قال: ولا تَعْوَجُّوا-، وداعٍ يدعو من جوف الصراط فإذا أراد أن يفتح شيئًا من تلك الأبواب قال: ويحك، لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، والصراط الإسلام، والسوران حدود الله تعالىٰ، والأبوابُ المفتحةُ محارم الله تعالىٰ، وذلك الداعي علىٰ رأس الصراط كتابُ الله عز وجل، والداعي فوق الصراط واعظُ الله في قلب كل مسلمٍ**»(١).

فانظر -ملأ الله قلبك يقينًا- كيف يُصَوِّرُ النبي ﷺ ماهية الصراط وحقيقته، وكونه نُصِب لإنقاذ البشرية، وإبعادهم عن المناهج الغويَّة، والمهالك الرَّدِيَّة، وتأمل كيف يُظهر حِرْصَ القائمَين علىٰ الصراط علىٰ مصالح الإنسانية.. فواحدٌ علىٰ بوابة الصراط يدعو إلىٰ سلوك سبيل السلامة بالدخول فيه، والثاني يحمي الداخلين فيه السائرين عليه من الزلزلة الفكرية، أو الاضطراب الشهواني عندما يحاولون فتح أبواب محارم الله، فيحذرهم أن تَجُرَّهم أنفسهم لمغادرته، أو تجاوز حدود السلامة فيه، فتخطفهم الطير أو تهوي بهم رياح الأهواء والمعاصي والبدع في مكانٍ سحيق.. أفلا ترىٰ الدعاية العظيمة أمام الصراط للبشرية بدعوتهم للدخول؟.. أما ترىٰ الحراسة القوية داخل الصراط لهم لئلا ينحرفوا؟.. وتأمل -تولاك الله- كيف ذكر النبي ﷺ العواصم من الانحرافات الداخلية التي قد تأخذ بالمرء بعيدًا عن جسر السلامة، وصراط الاستقامة.

---

(١) أحمد٤/ ١٨٢، وحسن الأرناؤوط إسناده.

البصيرة السادسة

﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يُقَدِّمُ الحلول للقضايا العالمية المثخنة بالظلم والعوج

فلننظر في الآية والأحاديث. ألم تر كيف وُصِف الإسلام بالصراط المستقيم دون أن يوصف بالطريق؟ ولعل ذلك لأمرين:

الأول: أن الاستقامة في الصراط تقتضي المساواة بين المتماثلين والتفرقة بين المختلفين، فإن أنت عكست تكون جعلت الحياة عوجًا، فالاستقامة تقتضي وجود خطٍ واحد، وليس خطين منكسرين.. هنا يصبح الطريق معوجا

الثاني: أن الصورة المنطبعة عن الصراط أنه جسرٌ خاصٌّ منصوبٌ، وعلىٰ جانبيه حافتان إن قصد السائرُ فيه أحدَهما سقط من الهاوية، فصار صراطُ الإسلام هو طريقَ الأمان من السقوط في البؤس والشقاء، وله حدودٌ معلومة يمنع تجاوزها؛ لئلا تخطف الإنسان الساقط الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيقٍ. ماذا يعني هذا بالنسبة للعالم؟

إن هذا هو الوصف الدقيق لتبعية الأمة للحلول الدولية أو المحلية البعيدة عن نور الاهتداء بالصراط المستقيم، فصار وصف الإسلام والقرآن والنبي ﷺ بالصراط حقيقيًّا رائعًا؛ فإنك تأمن من المهالك والمصائب وتصل إلىٰ بر الأمان، باتباع نظام الإسلام، واتباعك للقرآن، واقتدائك بالنبي ﷺ في كل صغيرةٍ وكبيرةٍ.

ويُصَوِّرُ النبي ﷺ العدل الذاتي الذي يوجد في الصراط المستقيم تصويرًا رائعًا، محذرًا من الاعتداءات الخارجية التي تحاول جذب السائرين عليه إلىٰ الطرق الإجرامية، أو المناهج الفسقية المدمرة للبشرية، فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: خط رسول الله ﷺ خطًّا بيده، ثم قال: «**هذا سبيل الله مستقيمًا**». قال: ثم خط عن يمينه

وشماله (خطوطًا)، ثم قال: «**هذه السبل ليس منها سبيلٌ إلا عليه شيطانٌ يدعو إليه**»، ثم قرأ ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ**﴾ [الأنعام: ١٥٣][(١)].

وبيَّن ابنُ القيم -رحمه الله- أن هذا العدل الذي يكتنزه صراط الله المستقيم دليلٌ علىٰ توحيد الله وعظمته يساوي في هذه الدلالة دليل الخلق فقال: «وضع في العقل من الإقرار بحسن شرعه ودينه الذي هو ظله في أرضه، وعدله بين عباده، ونوره في العالم، ما لو اجتمعت عقول العالمين كلهم فكانوا علىٰ عقل أعقل رجلٍ واحدٍ منهم لما أمكنهم أن يقترحوا شيئًا أحسن منه، ولا أعدل، ولا أصلح ولا أنفع للخليقة في معاشها ومعادها، فهو أعظم آياته، وأوضح بيناته، وأظهر حججه علىٰ أنه الله الذي لا إله إلا هو، وأنه المتصف بكل كمال، المنزه عن كل عيبٍ ومثالٍ»[(٢)].

ولذا أَكْثِرْ من قول ﴿ٱهْدِنَا﴾ شاعرًا بجمالها وظلالها وآفاقها وما ستقدمه لك، واشعر بأن هذا الدعاء يطوي في معانيه كلَّ دعاءٍ دعا به الصالحون.

وقد نال به المنطرحون أمام باب الله تعالىٰ أجمل العطاء:

منطرحًا أمام بابك الكبير
أصرخ في الظلام أستجير
يا راعي النِّمال في الرمال
وسامع الحصاة في قرارة الغدير
أصيح كالرعود في مغاور الجبال
كآهة الهجير[(٣)]

---

(١) أحمد١/ ٤٦٥، وحسن الأرناؤوط إسناده.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ٢٨١).

(٣) لبدر شاكر السياب: أمام باب الله.

البَصِيرَةُ السَّابِعَةُ

﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ يعني أن عودة أمة الإسلام إلى الصدارة العالمية يتم عبر القرآن، وهذا يقتضي محو أمية تلاوة القرآن، ووجوب نشر مؤسسات التعلم القرآني

تندهش عندما تجد الموفقين من أهل التفسير فسروا الصراط المستقيم بأنه القرآن الكريم(١)، واسمع إلىٰ ابن مسعود يصف ذلك علىٰ هيئةٍ مُصَوَّرَةٍ كأنك تشاهدها فيقول: (إِنَّ هَذَا الصِّرَاطَ مُحْتَضَرٌ تَحْضُرُهُ الشَّيَاطِينُ يَقُولُونَ: يَا عِبَادَ اللَّهِ هَذَا الطَّرِيقُ) أي يحاول شياطين الإنس والجن أن يوهموك أن الطريق الذي يزينونه هو الصراط المستقيم.. ماذا نصنع لهم؟ كيف ننجو من قدرتهم الفذة علىٰ تقليب الحقائق وخاصة في زمن السنوات الخداعات.. هنا يكمل ابن مسعود فيقول: (فاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ؛ فَإِنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ كِتَابُ اللَّهِ)(٢).. كأن ابن مسعود شعر بالاستبصار القرآني أن شياطين الإنس والجن سيحاولون إبعاد المسلمين عن القرآن الكريم..

ألا ترىٰ كم جربت أمة الإسلام من مناهج في قرونها المتأخرة؟ كم سلكت من طرق لتحقق التقدم والتنمية والعدل والريادة فكانت عاقبة أمرها خسرًا؟

وهنا نقرر بكل وضوح أن:

منهاج عودة أمة الإسلام إلىٰ الصدارة العالمية قائمٌ علىٰ دعوة إبراهيم عليه

---

(١) انظر: الطبري١/ ١٧١.

(٢) المعجم الكبير للطبراني (٨ / ١٣٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٦ / ٣٥٨): "رواه الطبراني عن شيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم وهو ضعيف"، وهذا -وإن كان فيه ما ترىٰ-، فيعضده ما رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٢٨٤) وقال: "هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي عن عبد الله بن مسعود في قوله عز و جل {الصراط المستقيم} قال: هو كتاب الله.

الصلاة والسلام، فالرجوع إلىٰ القرآن العظيم هو السبيل الوحيد الذي يحقق الانتصار الفردي والجماعي ضمن سنن المداولة والمدافعة؛ فإن قلَّبت الطرفَ -أيدك الله- في السنن الكونية التي تحكم التقلبات العالمية فستراها قائمةً علىٰ سنة المداولة ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وحتىٰ يعود المجد الحضاري للأمة المسلمة فإن سنة المداولة تفسرها سنة أخرىٰ هي سنة الدفع والمدافعة ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، فالمداولة بين الناس في الحضارة والسيادة لا تتم إلا وَفق المدافعة، وأعظم وسائل الدفاع والمدافعة تصحيح التصور والفكر والاعتقاد بالبراهين القرآنية.. هنا تعلم القيمة الذهبية للدعوة الإبراهيمية الصادقة.. اسمع إلىٰ إبراهيم وإسماعيل يبينان السبيل لإنقاذ البشرية من خلال دعوتهما الصادقة في قوله -تعالىٰ ذكره-: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]

إن السبيل الوحيد لتكوين أمة الإنقاذ التي تعين البشرية للخروج من محن الظلم المتتابعة القيام بالوظيفة الثلاثية ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾.. ومن أجل هذه الفكرة ذاتها تسمع الله يُجَدِّدُ ذكر هذه الوظيفة الثلاثية في مكانٍ متوسطٍ في سورة آل عمران.. حيث كانت السورة تعالج أسباب الانتكاسة العسكرية التي عرضت للمسلمين في أحد.. إذا بالقارئ يفاجأ بقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]..

فلِمَ يذكرُ هذه الآية أثناء الكلام عن معركةٍ عسكريةٍ؟ لا لشيء إلا ليبين أن الأمة لا يمكنها تحقيق انتصاراتٍ حقيقيةٍ في ميادين البناء، ولا في ميادين منع الاعتداء.. لا يمكنها إنقاذ نفسها ولا البشرية من طواحين الظلم المؤلمة إلا بالرجوع إلىٰ بصائر

القرآن المجيد في تشخيص الواقع ومعالجته.. أولم يقل الله-تعالىٰ جدُّه ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩]؟.

وهنا يأتي الصراط المستقيم الذي يمثله القرآن ليمثل جسر العبور إلىٰ الراحة الحقيقية، وليكون وسيلة النجاة من كل الآلام والشرور، والوظيفة الثلاثية تقتضي أول ما يقتضي محو أمية التلاوة عن الأمة المسلمة أولًا.. فكيف تزعم أنها تنتمي للقرآن وأكثر مثقفيها ومسؤوليها لا يجيد تلاوة القرآن.. بل ليس له حظٌّ يوميٌ مع هذه التلاوة المباركة..

يا أهل القرآن لستم علىٰ شيء حتىٰ تتلوا القرآن. إننا بحاجةٍ إلىٰ نهضة حقيقية لجعل التلاوة جزءًا من حياة كل فردٍ في الأمة الإسلامية وخاصة النخب المثقفة منهم.. ويصحب ذلك القيام بمحو أمية المعرفة للمعاني القرآنية العامة التي يكتسب المرء من خلالها الحكمة.. ويصحب ذلك إقامة السلوك القرآني بتزكية النفوس، وتطبيق القرآن في حياة الإنسان لتخضر الأرض اليبوس ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [البقرة: ١٢٩]..

يا أهل القرآن لستم علىٰ شيء حتىٰ تتعلموا القرآن، وتزكوا به مجتمعاتكم وأرواحكم وعقولكم.

البصيرة الثامنة

﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ يربط بين عالمي الغيب والشهادة، ويصل بين مرحلتي الدنيا والآخرة

أجل.. يا صديق -وفقك الله إلىٰ أقوم نهجٍ وأحسن طريقٍ- فضمن بناء الوعي الحقيقي في القرآن الكريم، ووفق الخطة القرآنية لبناء الحياة نجد أن المصطلح القرآني ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ يوجد في الخطوات العملية الدنيوية، كما يوجد في النتائج التي تبرز أمام كل إنسانٍ في عملية الحساب الأخروية، فالله سبحانه يقول عن الصراط الدنيوي: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، والنبي ﷺ يقول عن صراط الآخرة: «**فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ بِأُمَّتِهِ، وَلاَ يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلاَّ الرُّسُلُ، وَكَلاَمُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلاَلِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ. هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلاَّ اللَّهُ تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ**»(١).

ولذا فز -أعزك الله- في مسابقة عبور صراط الآخرة بالفوز بهدايات الصراط الدنيوي الفاخرة.

إنها مسابقةٌ معلومة الجوائز، بيِّنةُ المسافاتِ والتحدياتِ والمفاوِز.. فأما صراط الدنيا فواضحٌ، فهو باختصار كما وصفه الله ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ٧]، فما صراط الآخرة؟ وأما صراط الآخرة فوصفه النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بأنه جسرٌ «**يُجْعَلُ بين ظَهْرَي جهنَّم...مدحضةٌ مَزِلَّةٌ، عليه خطاطيفُ**

---

(١) البخاري (١ / ٢٠٤).

وكلاليبُ، وحسكةٌ مفلطحةٌ لها شوكةٌ عُقَيْفَاءُ تكون بِنجدٍ يُقال لها: السَّعدانُ» فهو جسر مرعب، ويسير المؤمنون عليه بتفاوتٍ -حسب أعمالهم الصالحة- «كالطَّرف، وكالبرق، وكالرِّيح، وكأجاوِيدِ الخيل والرِّكاب»، والنتيجة كما يصف النبي ﷺ لا تخلو من ثلاثةِ أحوالٍ: «**فناجٍ مُسلَّمٌ، وناجٍ مَخدوشٌ، ومَكدوسٌ في نار جهنَّم، حتَّىٰ يَمُرَّ آخِرُهُم يُسحَبُ سَحبًا**»[(١)]، فحسب تحقيق العبد لمقدار الأعمال الصالحة الإيجابية التي تقتضيها هدايات الصراط المستقيم في الدنيا يكون توفيق الله له في عبور صراط الآخرة المنصوب علىٰ ظهر جهنم، ويحدد هذه الحقيقة الحيوية الخالدة النبي ﷺ فيقول عن الناجين علىٰ صراط الآخرة: «تَجْرِىٰ بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ»[(٢)].

ألا يجب أن تعد النفس البشرية العدة المناسبة لمسابقة الصراط الدنيوي، والأخروي، وفي ذلك يقول ابن القيم: «فمن هُدِيَ في هذه الدَّار إلىٰ صراط اللَّه المستقيم، الَّذي أرسل به رُسُلَهُ، وأنزل به كُتُبَهُ، هُدِيَ هناك إلىٰ الصِّراط المستقيم، الـمُوَصِّل إلىٰ جنَّته، ودار ثوابه، وعلىٰ قدر ثُبُوت قدم العبد علىٰ هذا الصِّراط، الَّذي

---

(١) البخاري (٩ / ١٥٩). وقَوْله في الحديث: مدحضة: من دحضت رجله دحضًا زلقت، ودحضت الشَّمْس عَن كبد السَّمَاء زَالَت، ودحضت حجَّته بطلت. وقَوْله: مزلة من زلت الْأَقْدَام سَقَطت. وَقَالَ الْكرْمَانِي: مزلة بِكَسْر الزَّاي وَفتحهَا بِمَعْنىٰ المزلقة، أَي: مَوضِع تزلق فِيهِ الْأَقْدَام، وهما بِفَتْح الْمِيم ومعناهما متقاربان. وقَوْله: خطاطيف جمع خطَّاف بِالضَّمِّ، وَهُوَ: الحديدة المعوجة كالكلوب يختطف بهَا الشَّيْء، والكلاليب: جمع كلوب، وهي: حديدة معوجة الرأس، يعلق فيها اللحم، وترسل في التنور. والحسكة -بفتحات-: نبات ذو شوك، ينشبك به كل من مرَّ به، وربما اتخذ مثله من حديد، وهو من الآت الحرب. وقَوْله: مفلطحة أَي: عريضة. وقَوْله: عقيفاء أي: منعطفة معوجة. والسعدان: نبت له شوك عظيم، وهو أفضل مراعي الإبل، يضرب به المثل في طيب مرعاه، قالوا "مرعىٰ ولا كالسعدان". وكالطرف أي: كلمح الْبَصَر. والركاب: الْإِبل. ومخدوش: مخموش ممزوق. والمكدوس: المصروع، فالأقسام ثلاثة: قسم مُسلَّم لايناله شيء أصلًا، وقسم يخدش ثم يسلم ويخلص، وقسم يسقط في جهنم. نسأل الله السلامة.

(٢) مسلم (١ / ١٢٩).

نَصبهُ اللَّه لعباده في هذه الدَّار، يكون ثُبُوتُ قدمه علىٰ الصِّراط المنصوب علىٰ متن جهنَّم، وعلىٰ قدر سَيْرِهِ علىٰ هذه الصِّراط، يكون سَيْرُهُ علىٰ ذاك الصِّراط... ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠]، ولينظر الشُّبُهات، والشَّهوات الَّتي تَعُوقُهُ عن سيره علىٰ هذا الصِّراط المستقيم، فإنَّها الكلاليب الَّتي بِجَنبتي ذاك الصِّراط، تَخطفهُ، وتَعُوقُهُ عن المرور عليه، فإن كَثُرت هنا، وَقوِيتْ، فكذلك هي هناك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]»[١]:

واليوم يسعد مؤمن بيقينهِ — واليوم يشقىٰ الفاسق المتحللُ
واليوم يمتد الصراط، فمسرع — نحو النعيم، وزاحفٌ متمهلُ
ومحملٌ بالذنب زلت رجله — فهوىٰ، ونار جهنمٍ تستقبلُ

اللهم اهدنا الصراط المستقيم الذي به نسعد أعظم السعادة في ذلك اليوم العظيم.. ربَّنا نسألك أعظم التكريم.. اجعلنا برحمتك ممن يمر علىٰ صراط الآخرة كأسرع الأمرين من مرور البرق أو كالطرف.. آمين يا أرحم الراحمين.

(١) مدارج السالكين ١/ ٣٣.

الآية السّابعة من سُورَة الفاتحة
المَقَاصد العاصمة للصِّراط المستقيم

والآن تعال بنا -بعد تلك المقاصد الأولىٰ- لنرىٰ التحديد الدقيق العجيب في بيان صبغة الله التي يريد من البشرية أن يصبغوا أنفسهم بها؛ إذ ستفجؤك الآية السابعة المباركة ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾، فهي آيةٌ فريدةٌ في موضعها وألفاظها؛ فهي الآية العاصمة لسير العابدين علىٰ صراط الاهتداء المستقيم؛ **وستجد فيها مقصدين عاصمين:**

مقصدٌ يتعلق بالإثبات والتحديد لماهية الصراط المستقيم، وهو المقصد الثامن يبين الله فيه أن ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ الحقيقي هو الذي سار عليه المُنعَم عليهم من السابقين ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾فهذا المقصد يبين صلة السابقين باللاحقين في الحفاظ علىٰ حقيقة الصراط المستقيم وعدم تغييره، فيُعَرِّفَ الناس بحدود الصراط المستقيم.

ومقصدٌ يتعلق بالنفي للطرق الزائغة المجرمة التي يحاول دعاتها خلطها بالصراط المستقيم، وهو المقصد التاسع حيث يبين الله فيه ضرورة حراسة الصراط المستقيم من الخطرين الاستراتيجيين الموجودين علىٰ جانبي الصراط: خطر الوقوع في الغضب الإلهي، وخطر الضلالة المهلكة، وقد ذُكِرَ هذان الخطران في قوله تعالىٰ: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فهذا هو المقصد التعريفيّ العاصم للصراط المستقيم من هذين الانحرافين، **ومن هذين العدوين (الإستراتيجيين):**

الانحراف الأول: فعل ما يوجب الغضب الإلهي، والعدو الأول: (المغضوب عليهم) بصورةٍ كلية، وهم عدوٌ يعرف الحق.. كأنك ترىٰ (الصراط المستقيم)، وترىٰ المغضوب عليهم عن يمينه وعن يساره يحاولون إزاغة أصحابه بإسقاطهم في الأعمال التي تغضب الله رب العالمين.

الانحراف الثاني: فعل أهل الضلالة، والعدو الثاني: (الضالون) بصورةٍ كلية، وهم عدوٌ يريدون القيادة الفردية والعالمية، وتوجيه المجتمعات عبر عقليةٍ جاهلةٍ ضالةٍ عمياءَ بعيدةٍ عن التحقيق العلمي، والله يقول عنهم ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩]، والفرق الضالة فئاتٌ تاهت عن العلم الحق بسبب الجهل البسيط والمركب، إلا أنها تُصِرُّ علىٰ قيادة العالم وفق ضلالها، وهي تحسب أنها تحسن صنعًا، وهم أيدٍ يتحرك بها المغضوب عليهم.

فذكر الله في هذا المقصد العاصمِ فرقًا وأفرادًا يستنزلون الغضب الإلهي، وذلك بالعمل علىٰ الإضلال البشري.. ترىٰ المغضوب عليهم والضالين يسعون بإصرارٍ لتنفيذ الخطط الآثمة لتزييف الصراط المستقيم، وإدخال العالَم في الكفر والفسوق والعصيان.. فيحاولون إشاعة التكفير العالمي (إدخال الناس في الكفر)، والتفسيق العام، وإحداث العصيان والبدع الفاحشة التي لم يعهدها السابقون من الـمُنعَم عليهم، وانتهاج سبيل الغي، ونبذ النهج الرشد، بل محاربته، **وتصل هذه الفرق إلىٰ ذلك غالبًا عبر أمرين:**

الأمر الأول: التلبيس العلمي بتكوين ثقافةٍ يتم فيها لبس الحق بالباطل، أو التلبيس العملي بتعطيل العلم الحق من العمل.

الأمر الثاني: السيطرة علىٰ وسائل تكوين الأفكار، واللعب بمحركات التأثير علىٰ الرأي العام، وصنع القيادات المجتمعية التي تُسْهِمُ في تحقيق أهدافِها الكلية

أو الجزئية، وصناعةِ الوعي الذي يجلب الغضب الإلهي بالإفساد في الأرض وسفك الدماء، بدلًا من السلام الكوني الذي يحدث بالاستسلام للمنهاج العبادي التوحيدي كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

وهذان المقصدان (الثامن والتاسع) يشكلان الحدود الحقيقية التي تحمي مفاهيم الصراط المستقيم، وتوضحه أعظم توضيحٍ، وتحدده بأقوىٰ تصريحٍ؛ حتىٰ توفر لأصحابه الفلاح الفردي والجماعي، وتعصمَهم من الزلل والخلل في فهم طبيعة الصراط المستقيم، وفي الوقت ذاته يوفر هذان المقصدان الحماية والحصانة للصراط المستقيم من العبث واللعب والتحريف والتزييف، ويحفظان الكيانَ الإسلامي الذي يُمَثِّلُه في الحياة، ويحميانه من اختراق القوىٰ الإجرامية المحرفة أو المزورة أو المعتدية، حتىٰ لا يحصل الانحراف والانصراف عنه، أو الغلو والانجراف فيه.

المقصد الثامن

﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ الحقيقي هو الذي سار عليه الـمُنعَم عليهم من السابقين ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾

فهذا المقصد يبين طبيعة الصراط المستقيم، ويحميه من الاختراق الداخلي؛ ويصل السابقين باللاحقين في عدم تغيير حقيقة الصراط، فيفصل هذا المقصد في إيجازٍ مذهل ودقةٍ مدهشةٍ طبيعة صراط الإسلام الذي يحمي البشرية من الضياع والتيه، ومن البصائر التي يمكننا استنباطها من هذا المقصد:

المقصد الثامن: (الصراط المستقيم) الحقيقي هو الذي سار عليه الـمُنعَم عليهم من السابقين ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ فهذا المقصد يبين طبيعة الصراط المستقيم، ويحميه من الاختراق الداخلي؛ ويصل السابقين باللاحقين في عدم تغيير حقيقة الصراط

البصيرة الأولى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ تحديدٌ لماهية الإسلام يحمي من التحريف والضياع والتزوير والابتداع

البصيرة الثانية: قيادات المُنعَم عليهم على الصراط المستقيم بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم

البصيرة الثالثة: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ (الله) مصدر الإنعام الكلي

البَصِيرَةُ الأُولَىٰ

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ تحديدٌ لماهية الإسلام يحمي من التحريف والضياع والتزوير والابتداع

إنها (الفاتحة) المباركة.. تبين أن الإسلام عصيٌّ علىٰ المحاولات الشيطانية لتغييره، أو تحريفه، أو تزويره.. فلا تعجب لهذه القوة الفكرية المذهلة التي تقدمها (الفاتحة) لحماية الإسلام من الدخول في مصانع الإجرام العالمي الفكري ليخرج إسلامًا صنعه أصحاب الأهواء علىٰ أعينهم، كما حدث مع أهل الكتاب الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون..

فمعنىٰ ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أن الإسلام الذي يريده الله يتحقق بالسير علىٰ الصراط المستقيم وفق المنهج الذي سار عليه الـمُنعَم عليهم من قبل، دون اختراعٍ ديني أو تغييرٍ أو تزويرٍ في المصادر الأصلية للدين (الكتاب والسنة)، أو ابتداعٍ. ولكن من هم الـمُنعَم عليهم الذين تطلب منا (الفاتحة) اتِّباع خطواتِهم، والسير علىٰ صراطهم؟

الـمُنعَم عليهم هم الذين سَجَّلوا أقوىٰ الإنجازات البشرية باجتيازهم لاختبار الحياة الدنيا بالإيمان والعمل الصالح، وحصلوا علىٰ وسام الفلاح من الله -تعالىٰ ذكره-، وعندما تقرأ لفظة ﴿ صِرَٰطَ ﴾ في الكتاب والسنة فإنك تستحضرُ أمامك العظماء -سلوكًا، وقلوبًا، وطريقًا- الذين حددهم الله، فقال عنهم: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء: ٦٩].

لقد استبان من هم المنعم عليهم؛ فأول صنفٍ منهم الأنبياء.. أخبر الناشرين للكراهية من أهل الكتاب عن هذه المزية العظيمة للإسلام! إذ يأتي في مقدمتهم أولوا العزم من الرسل -عليهم الصلاة والسلام أجمعين-، وهم الذين وصلت البشرية عن طريقهم إلىٰ أعظم آفاق السعادة الدنيوية والأخروية، ولأن الأنبياء قدوتنا علىٰ الصراط المستقيم في المقام الأول فإن الله تعالىٰ ذكر مصطلح (الطريق) دون (الصراط) في سورة الأحقاف حيث قال الله تعالىٰ متحدثًا عن الجن: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، ولكن لماذا اختيار لفظة طريق دون مصطلح ﴿صِرَٰطَ﴾ هنا؟

إنها وحدة الصراط بين الأنبياء؛ فالله -جلَّ مجده- ذكر في بداية سورة الأحقاف أن النبي ﷺ لم يأت ببدعٍ من الأمر، بل سار علىٰ طريقة الأنبياء، واقتفىٰ أثر أعظم الخلق من الرسل السعداء، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩]، وكلمة (بدعًا) تدل علىٰ الشيء الجديد المغاير كليةً لما تقدم، أي قل يا محمد ﷺ: لستُ بالمختلف عن الرسل في الرسالة، ولا أتيتُ ببدعةٍ مخالفةٍ لما أتوا به في الدعوة إلىٰ التوحيد، ونزول جبريل -عليه السلام- عليَّ بهداية العبيد.

والسؤال الذي يطرح نفسه: إذا كان النبي ﷺ علىٰ طريق الأنبياء من قبل فلماذا يحاربه من يزعم أنه من أتباع إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ -عليهم الصلاة والسلام-؟

الآن انظر معي إلىٰ هذه اللطيفة التعبيرية القرآنية؛ فقد فهمت الجن هذه الجزئية التي يصم عنها بعض الإنس، فقالوا في آخر سورة الأحقاف: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]،

وناسب وصف الصراط بالطريق هنا ليبين أن ما جاء به محمد ﷺ قد طرقه الأنبياء من قبل، فالطريق هو السبيل المطروق، فتوافقت هذه الكلمة مع أول السورة علىٰ نسقٍ معجزٍ بديعٍ.

ولاحظ -وفقك الله- كيف بين الله ذلك في الفاتحة بدقةٍ، فقد كرَّر الله -تعالىٰ ذكره- لفظةَ الصراط مرةً أخرىٰ في الآية السابعة بعد الآية السادسة فقال: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ ثم قال ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾، وكلمة ﴿ صِرَٰطَ ﴾ الثانية بدلٌ أو عطف بيان من كلمة ﴿ٱلصِّرَٰطَ ﴾ الأولىٰ. وهنا قف لترىٰ البيان الدُّرِّيَ الآخاذ المتعلق بتكرار كلمة الصراط مع أن الإيجاز يقتضي أن يقال: (اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم المستقيم).. ترىٰ لماذا؟

عند التأمل ستذبلُ العبارة إن لم يزينها هذا التَّكرار، ويتساقط الجمال إن لم يتحلَّ الكلام بما في هذه الكلمات من البصر والذكر والمفاهيم الفكرية والاعتبار، ومن أعظم فوائد ذلك:

الفائدة الأُولَىٰ: معرفة الرجال بالحق لا معرفة الحق بالرجال:

فلا بد من الأمرين معًا: الحق الذي نجده في المنهج السوي (الكتاب والسنة المقبولة)، والرجال الذين طبقوها علىٰ هدىٰ مستقيم، والنظر إلىٰ أفعال الرجال يتم من خلال المنهج، فهو الحجة عليهم، إلا أنهم عندما يكونون من الأنبياء المعصومين -إذ ليس في الدين الحق معصوم غيرهم- تكون أفعالهم الحيوية تطبيقًا حقيقيًا لما أراد أن تُصبغ به الحياة، فإن كانوا من المنعم عليهم من غير الأنبياء فبهداهم يقتدي من يأتي بعدهم علىٰ أن ترد أفعالهم الحيوية، وأفكارهم التي عمروا بها الدنيا إلىٰ المنهج السوي، وهذا الذي ذكره الله في قوله -عزَّ وتقدَّس-: ﴿ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ

أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ١٣٥].

الفائدة الثانية: تحديد ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ بدقةٍ بأنه الصراط الذي سار عليه الـمُنعَم عليهم، وهم النبيون، وبعدهم الصحابة من المهاجرين والأنصار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فلا يسمح هذا المقصد في سورة الفاتحة بأمرٍ يخرج عن أصولهم الهادية، وبذا يمنع التغيير المبتدَع في قواعد الإسلام الدينية.

فانظر -كان الله بك حفيًا- لهذا الكلام المبهر المعجز كيف يأخذ أنفاسك، ويسيطر علىٰ عقلك حتىٰ لا تزيغ ولا تضل؛ فلحماية الصراط المستقيم من أن يقوم إنسانٌ أو جماعةٌ باختراع دينٍ أو عباداتٍ أو أصولٍ، كرر الله تعالىٰ كلمة الصراط ليحدد لهم بدقةٍ متناهيةٍ نوع الصراط الذي أرادهم أن يسيروا عليه، فهو صراطٌ مخصوصٌ بوصفٍ مخصوصٍ محددٍ، وكذلك لحماية صراط الإسلام من التغيير في بنيته أو أساسه؛ فالآية السادسة دلت علىٰ أن المقصود من الطَّلب في قوله تعالىٰ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ابتداءً هو كون المهدىٰ إليه وسيلةً للنَّجاة واضحةً سمحةً سهلةً، وأمَّا المقصود من الآية السابعة ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فهو كَوْنُ هذه الوسيلة هي سَبِيل السعداء الـمُنعَم عليهم أي: طرائق تفكيرهم ومناهج حياتهم، وهذا أمرٌ تفصيليٌّ إضافيٌّ يزيد علىٰ ما قبله، وله أَلَقُهُ ووقعه ولذّته، وكلمة ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ الأولىٰ تدل علىٰ الهدف والغاية إجمالًا بالوصول إلىٰ الصراط المستقيم، فيتشبع بهذه الغاية القلب والعقل، فيهواها ويفكر فيها، ويهيم بها طلبًا للاستقامة والنجاة من الاعوجاج، ثم تأتي كلمة ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ الثانية لتزيد الشوق إليها؛ إذ تبين أنه قد سارت علىٰ هذا الصراط أجيال المفلحين، ومجموعات الفائزين الذين حققوا الإنجازات العليا في الحياة.

وبذا يستبين الطريق الواضح لمفهوم العبادة الشاملة لجميع مجالات الحياة دون اختراعٍ فيها أو ابتداعٍ:

فالعبادة المطلوبة في الأمور التعبدية المحضة، أو في المجالات الاجتماعية، أو في المجالات الاقتصادية، أو في المجالات السياسية، هي ما كان داخلًا ضمن الصراط المستقيم، وهو الصراط ذاته الذي سار عليه من أنعم الله تعالىٰ عليهم من السعداء السابقين، وفي مقدمتهم خاتم النبيين ﷺ، وصحابته رضي الله عنهم، ابتداءً بالخلفاء الراشدين.

ومن هنا نعلم لماذا قرن النبي ﷺ بين سنته وسنة الخلفاء الراشدين التي لا تخرج عن سنته، وبين التحذير من الابتداع، وبيَّن النبي ﷺ وهو يخبر عن المستقبل القادم بتعليم الله له أن رياح الاختلاف العاتية ستهب علىٰ الأمة لصرفها عن الصراط المستقيم، وأنَّ نجاتها فيه لا في غيره، حيث يحكي العرباض بن سارية، فيقول: صلَّىٰ بنا رسول اللَّه ﷺ ذات يومٍ، ثمَّ أقبل علينا، فوعظنا موعظةً بليغةً، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائلٌ: يا رسول اللَّه كأنَّ هذه موعظة مُودِّعٍ فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «**أوصيكم بتقوىٰ الله، والسمع والطاعة وإن كان عبدًا حبشيًا؛ فإنه من يعش منكم يرىٰ بعدي اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فان كل محدثةٍ بدعة، وإن كل بدعةٍ ضلالة**»[1].

وهنا يكون في مقام الحقيقة الذي يؤكد أن العبادةَ الشرعيةَ والاستعانةَ الحقيقيةَ هي التي تكون علىٰ منهج الصواب، فلا تصيب الخير إلا أن تكونَ سائرةً علىٰ

(١) أحمد(٤/ ١٢٦) برقم١٧١٨٥، وقال الأرناؤوط: حديث صحيح، ورجاله ثقات.

الصراط المستقيم الذي سار عليه أَرْبَابُ الصَّفَاءِ الذين عَلِمنا أن الله أنعم عليهم، فننظر صنيعهم، ونقتدي بهديهم، ونبتعد عَنْ طريق أَرْبَابِ الشقاء والضلال والْجَفَاءِ، وبذا يكمل الرقي الإنساني، ويوجد الكمال البشري، وتحلو الحياة الإنسانية.

هنا تعلم لماذا أدرك فريدريك دني Denny أن القرآن يشكل عماد المحافظة على الإسلام ببناء الصراط المستقيم، فقال: «إن هذا الشعور للقوة الضمنية للقرآن كانت أحد الأسباب الرئيسة في انتشار الإسلام، وفي تمسك المسلمين بالصراط المستقيم أيضًا، طالما أن القرآن نفسه هو الذي يعطي لهذا الدين خصائصه»[(١)].

الفائدة الثالثة: من فوائد تكرار الصراط الزيادة في التحبب طلبًا للإجابة، وذلك لأهمية المطلوب:

فإنَّ الكريم إذا قلت له: أعطِني كما أعطيت فلانًا؛ كان ذلك أنشط لكرمه، فيقول السَّائلون: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾..إنه الصِّراط الَّذي هديت إليه عبيدك السابقين من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، مع ما في ذلك من التَّعريض بطلب أن يكونوا لاحقين فِي مرتبة الهدىٰ بأولئك الـمُنعَم عليهم، وتوطئةً للتبري من أحوال الأشقياء من المغضوب عليهم والضالين[(٢)]، ولاحظ أنه قال: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾. فكأنه قال بعدها: اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم، وبذا نعلم أن البلاغة ليست هي الاختصار، بل كما قيل: أن تقول فلا تخطئ، وتجيب فلا تبطئ، مع الإسهاب في مكانه، والاختصار في بيانه، ولو حُذفت كلمة (صراط) الثانية لما كان للعبارة ذلك الألق والروعة والبهجة لفظًا ومعنًى، ومثل ذلك تكرير الفعل في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان: ٧٢] وقوله: ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ

---

(١) نقل ذلك جيفري لانج في كتابه الصراع من أجل الإيمان، ص٨١ عن كتاب فريدريك دني: الإسلام.

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٩٢).

أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ [القصص: ٦٣][(١)].

الفائدة الرابعة: للجمع بين العلم والتربية، أي للجمع بين الإطار النظري والعملي في الدعاء والواقع:

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٩٢). قال العلامة ابن عاشور: وللتكرير مواقع يحسن فيها، ومواقع لا يحسن فيها، قال الشيخ عبد القاهر في خاتمة "دلائل الإعجاز": إنّ الذوق قد يدرك أشياء لا يُهتدىٰ لأسبابها، وأنّ بعض الأئمة قد يعرض له الخطأ في التأويل. "ومن ذلك ما حكي عن الصاحب أنّه قال: كان الأستاذ ابن العميد يختار من شعر ابن الرومي، وينقط علىٰ ما يختاره، قال الصاحب فدفع إليّ القصيدة التي أولها:

أَتَحْتَ ضلوعي جمرةٌ تتوقّدُ علىٰ ما مضىٰ أم حسْرة تتجدّدُ

وقال لي: تأمّلها، فتأمَّلتها فوجدته قد ترك خير بيتٍ فيها لم ينقِّط عليه وهو قوله:

بجَهْلٍ كجهل السيفِ والسيفُ منتضًىٰ وحِلْمٍ كحلم السيف والسيفُ مُغْمَدُ

فقلت: لِمَ تركَ الأُستاذُ هذا البيت؟ فقال: لعلّ القلم تجاوزه، ثم رآني من بعد فاعتذر بعذر كان شرًّا من تركه؛ فقال: إنّما تركته لأنّه أعادَ السيف أربع مرات، قال الصاحب: لو لم يعده لفسد البيت. قال الشيخ عبد القاهر: والأمر كما قال الصاحب. ثم قال ما قاله أبو يعقوب: إنّ الكناية والتعريض لا يعملان في العقول عمل الإفصاح والتكشيف؛ لأجل ذلك كان لإعادة اللفظ في قوله تعالىٰ: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، وقوله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ [الإخلاص: ١، ٢] عمَل لولاه لم يكن. وقال الراغب: قد استكرهوا التكرير في قوله:

(فما للنَّوىٰ جُذّ النَّوىٰ قُطِع النَّوىٰ) حتىٰ قيل: لو سلّط بعير علىٰ هذا البيت لرَعىٰ ما فيه من النَّوىٰ. ثم قال: إنّ التكرير المستحسن هو تكرير يقع علىٰ طريق التعظيم، أو التحقير، في جمل متواليات، كلّ جملة منها مستقلة بنفسها، والمستقبح هو أن يكون التكرير في جملة واحدة، أو في جمل في معنىٰ، ولم يكن فيه معنىٰ التعظيم والتحقير. فالراغب موافق للأستاذ ابن العميد، وعبدُ القاهر موافقٌ للصاحب بن عباد. قال المرزوقي في شرح الحماسة عند قول يحيىٰ بن زياد: ولَمَّا رَأيتُ الشيبَ لاح بياضُه ... بمَفرِقِ رأسي قُلتُ للشيب: مرحبا ...» كان الواجب أن يقول: قلت له: مرحبًا ، لكنّهم يكرّرون الأعلام وأسماءَ الأجناس كثيرًا ، والقصد بالتكرير التفخيم».

واعلم أنّه ليس التكرير بمقصور علىٰ التعظيم، بل مقامه كلّ مقام يراد منه تسجيل انتساب الفعل إلىٰ صاحب الاسم المكرّر، كما تقدّم في بيتي الحماسة: « اللؤم أكرم من وبر» إلخ.

وقد وقع التكرير متعاقبًا في قوله تعالىٰ في سورة آل عمران(٧٨): ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٨]». التحرير والتنوير (٣/ ١١٨).

الإطار النظري بسؤال الاهتداء في قول راحم الأرض والسماء ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، والإطار التربوي العملي ببيان الحقيقة العملية للاهتداء، فهو الاهتداء بصراط السابقين الـمُنعَم عليهم من الرفعاء والسعداء﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾، بدلًا من الاقتصار علىٰ النظرية دون التطبيق، كما قال محمد البشير الإبراهيمي -رحمه الله تعالىٰ-: «العلم الخالي من التربية ضرره أكثر من نفعه، وما أصيب المسلمون في عزّتهم إلاّ يوم فارقت التربيةُ الصالحةُ العلمَ، وكم شقيَ أصحابُ العلمِ المجرّدِ بالعلمِ وأشقوا أممهم، والسعادة غايةٌ لا يُسلك إليها عن طريق العلم وحده من غير أن تصاحبه التربية...وظيفة النبوّة التي بيّنها الوحي في آية ﴿وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]»(١).

(١) الآثار لمحمد البشير الإبراهيمي ٤/ ١٧٣.

البصيرة الثانية

قيادات الـمُنعَم عليهم على الصراط المستقيم بعد الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- هم: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

تبين لنا (آية الصراط) هذه البصيرةَ الهاديةَ للسير في الصراط المستقيم دون ضلالٍ أو خللٍ، وتقوم بوضع درعٍ عاصمٍ للأمة الإسلامية من الانحراف والغلو والزلل؛ فيحدد الله لنا القياداتِ التي نقتفي أثرها، ونهتدي بنورها، بأنهم الأنبياء، ولكن من ذا يتلوهم في المنزلة القيادية الهادية لهذه الأمة؟

إنهم الذين يُبصروننا بالمنهج النبوي الذي نسير فيه دون انحرافٍ، أو جفاءٍ، أو غلوٍّ واعتداءٍ، إنهم لنا المصابيح في الظلماء، تضيء لنا الطريق؛ فلا نخطئ في قراءة التنزيل، ولا نُحَرِّف أو نَضِلُّ في التأويل، ومنهاجُ النبوة الذي أوصله النبي ﷺ للعالمين هو القرآن المجيد؛ حيث بلَّغه لفظًا لفظًا وحرفًا حرفًا، وكذلك بيَّن لنا القرآنَ المجيدَ من خلال سنته وسيرته في فهمه وتطبيقه، ولا يمكن معرفة كل ذلك إلا من خلال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. والصحابة ثلاث فئات:

الفئة الأولىٰ: آل البيت من أزواج النبي ﷺ، فقد نقلن لنا سيرةَ النبي ﷺ وسنَنَه في التعامل داخل البيت، وفي الجو الأسري الزوجي، وفي النواحي الاجتماعية والتعليمية البيتية لنقتدي به، ونهتدي بهديه ﷺ.

الفئة الثانية: آل البيت من قرابته وأصهاره ﷺ، فقد نقلوا لنا سيرته ﷺ وسننه في التعامل مع أولاده وذوي أرحامه وخاصته من أقربائه، لنقتدي به، ونهتدي بهديه ﷺ.

الفئة الثالثة: بقية الصحابة، الذين نقلوا لنا سيرته ﷺ وسننه في التعامل مع العالَم خارج بيته ﷺ في النواحي السياسية والاقتصادية والعلاقات المحلية والدولية، لنقتدي به، ونهتدي بهديه، وبذلك نسير علىٰ صراطِ أعظمِ مَنْ أنعم الله -عزّ وجلّ- عليهم، وهو النبي ﷺ من خلال نقل أزواجه، وأقربائه، وسائر أصحابه -رضي الله عنهم أجمعين-، ومن أعظم نماذجهم: أهل بدر المذكورون بالثناء في سورة الأنفال، وأهل بيعة الرضوان المذكورون بالثناء في سورة الفتح، يتقدمهم الأربعة الراشدون الذين جمعوا بين القرابة والمصاهرة والصحبة.. فتركوا نعيم الدنيا ليبنوا للناس دنياهم، وعزفوا عن ترف القصور ليشيدوا -من المعارف الحقة والتقدم الإنساني- إلىٰ الله تعالىٰ الجسور، وهم من ترك الراحة الشخصية ليؤسسوا طريق النجاح لكل البشرية، وعلىٰ الرغم من تعرض ثلاثةٍ منهم للاغتيال إلا أن أيًّا منهم لم يتخذ قواتٍ خاصةً مهمتها التدمير والاقتتال من أجل سلامته، وقد ذكر النبي ﷺ ما ينتظرهم من الدرجات العلىٰ والفوز العظيم، فعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أهل الدرجات العلىٰ ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم، وأنعِما**»[١].

فهذا الاتصال الفكري للسلف بالخلف، والخلف بالسلف يساعد علىٰ الثبات علىٰ النص مع المرونة في تنزيله علىٰ الوقائع المختلفة. والآية السابعة من آيات سورة (الفاتحة) بذا من أهم العواصم الثقافية الحافظة لدين الأمة، ومن خلال ذلك يتبين أهم سببٍ يدفع مجرمي العالم للتهجم علىٰ الصحابة الكرام (من أهل البيت وبقية الأصحاب) رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ولذا بيَّن الله تعالىٰ من يستحقون رضوانه، وأنهم ثلاثة أصناف فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم

---

(١) الترمذي٥/ ٦٠٧، وقال: «حديث حسن»، ورواه أحمد٣/ ٩٨، وفي فيض القدير شرح الجامع الصغير (٤ / ٥٣٩): (وإن أبا بكر وعمر منهم، وأنعما) بكسر العين كلمة مبالغة في المدح، والمعنىٰ: لو فضل الرجال رجلًا رجلًا فضلهم أبو بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

بِإِحْسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾[التوبة: ١٠٠]، فشرط في التابعين للمهاجرين والأنصار أن يتبعوهم (بإحسان)، وهذه الكلمة العظيمة تضم عدة مفاهيم من أهمها:

المفهوم الأول: الإحسان في ذكرهم، فجاء عن ابن عبَّاسٍ -رضي اللَّه عنهما-: (يريد: يذكرون المهاجرين والأنصار بالْجَنَّة والرَّحمة والدُّعاء لهم، ويذكرون محاسنهم) أي بإحسان القول فيهم، والحكم المشروط بشرطٍ ينتفي عند انتفاء ذلك الشَّرط، فوجب أنَّ من لم يُحْسن القول في المهاجرين والأنصار لا يكون مستحقًّا للرِّضوان من اللَّه تعالىٰ[١].

المفهوم الثاني: الإحسان في اتباعهم، فهم غير معصومين من الخطأ، فيحسن المتبع في اتباع منهجهم، ويعرض عما وقعوا فيه بحكم الطبيعة البشرية، مع إمساك اللسان عن الطعن والتجريح.

لعلنا أدركنا كيف تبني الفاتحة عقولنا علىٰ معرفة التحالف الدنس بين المغضوب عليهم والضالين من المعتدين من الكفار والمنافقين والمبتدعين لتركيز جهودهم ضد كل من يعظم صراط المنعم عليهم.

إن الطاعنين يريدون اختراع دينٍ جديدٍ غير الذي نقله الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، وساروا عليه مهتدين مقتدين بمربيهم ﷺ، فما الطعن فيهم إلا محاولةٌ مجرمةٌ آثمةٌ لتدمير المنهج الإسلامي، وتغيير معالمه الثقافية، ونُظُمه العقدية، والاجتماعية، والسياسية من خلال إيجاد الشك في نَقَلَة القرآن الكريم وحامليه رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، ومن خلال إخفاء كيفية تطبيق النبي ﷺ للقرآن الكريم.. فهذه الآية المباركة أعظم الآيات في بيان مكانة أهل البيت وبقية الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، ولله درُّ إقبال -رحمه الله تعالىٰ- حين قال:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٦/ ١٣٠).

كم زُلزِلَ الصخر الأشمُّ فما وهىٰ من بأسنا عزم ولا إيمانُ
لو أن آساد العرين تفزَّعت لم يلق غيرَ ثباتنا الميدانُ
توحيدك الأعلىٰ جعلنا نقشه نورًا تضيء بصُبحه الأزمانُ
فغدت صدور المؤمنين مصاحفًا في الكون مسطورٌ بها القرآنُ

وجوب البحث عن المُنعَم عليهم لمصاحبتهم:

أقبل بقلبك لتنعم بالنظر في لفتةٍ قرآنيةٍ فريدةٍ أخرىٰ! فقد أمر الله تعالىٰ نبيه ﷺ في الدنيا بصحبة الصادقين؛ ليسعدَ به عند حلول الظُّلم والزيف الثقافي، فقال -تعالىٰ جده-: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ ﴾ [الكهف: ٢٨]، واشتاق ﷺ إلىٰ صحبتهم في الأخرىٰ كما أُمر بصحبتهم في الدنيا، فعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا قال النبي ﷺ لما حضرته الوفاة: «أسأل الله الرفيق الأعلىٰ الأسعد»(١)، فيا لذة معرفتهم.. ويا لَسعادة صحبتِهم.. ويا لَهناء قربهم..

سروري من الدهر لقياكمُ ودار سلامي مغناكمُ
وأنتم مدىٰ أملي ما حييت وما طاب عيشيَ لولاكمُ
جنابكم الرحب مرعىٰ الكرام فلا صوَّح الدهر مرعاكمُ
إذا ازدحمت في فؤادي الهموم أعلل قلبي بذكراكمُ
وأستنشق الريح من أرضكم لعليَ أحظىٰ بِرِّياكمُ(٢)

(١) أحمد٦/ ١٢٠، وصححه الأرناؤوط بطرقه محسنًا هذا الإسناد.
(٢) صوّح: أي لا تشقق ولا يبس، والمقصود دعاء بالخصب. انظر: العين (٣/ ٢٦٩).

البصيرة الثالثة

﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿ٱللَّهُ﴾ مصدر الإنعام الكلي

نعم! الإنعام بأسس السعادة إنما يكون من ذي الجلال والإكرام؛ فقد أسند الله -تعالىٰ مجده- فعلَ الإنعام بالهداية إليه -جل في علاه-في قوله: ﴿أَنْعَمْتَ﴾، فهو الذي أنعم علىٰ هؤلاء الأقوام الذين اهتدوا بالسير علىٰ الصراط المستقيم، فلم يهتدوا بجهدهم، ولا بأفعالهم، ولا بقوتهم، ولا بذكائهم بل بنعمة ربهم، وآلاء سيدهم ومولاهم وخالقهم، والنعمة هي المنفعة الحسنة الَّتي لم يشُبها ما يكدِّرها، ولا تكون عاقبتها سُوأىٰ، وهي المفعولة علىٰ جهة الإحسان إلىٰ الغير، فهي شاملةٌ لِخيرات الدُّنيا والآخرة، خالصة من العواقب السَّيِّئة[(١)]، وكل ما يصل إلىٰ الخلق من النَّفع ودفع الضَّرر فهو من اللَّه كما قال -تعالىٰ ذكره-: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وهنا أطلق الإنعام ولم يقيده بنعمةٍ معينةٍ ليشمل كل إنعام، **ولكن الأنواع الكبرىٰ للنعم -من حيث جهة الوصول- ثلاثة:**

أحدها: نعمةٌ تفرَّد الله بإيجادها: كالخلق من العدم، والإعداد بوسائل الإدراك، والتغذية، والبيئة السكنية اللازمة للحياة، وهداية البيان، وهداية التوفيق.

وثانيها: نعمةٌ وصلت من جهة غير اللَّه في ظاهر الأمر، وحقيقتُها أنها من الله؛ لأنَّه تعالىٰ هو الخالق لتلك النِّعمة، والخالق لذلك المُنعم، وهو من ألهم قلب ذلك المُنعم ليعطي ذلك الإنعام، فيكون الشكر لله، ولذلك العبد كما قال -تعالىٰ ذكره-: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]..فلله الحمد أولًا وآخرًا.. فهو الذي ألهم قلب المنعم من البشر ليؤدي تلك النعمة، وأعطاه القوة والتوفيق في ذلك

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٩٢).

الأداء، ولذا روىٰ الدينوري: أن مُحَمَّد بن واسعٍ دخل علىٰ قُتيبة بن مسلمٍ فقال له: «أَتيتُك في حاجةٍ رَفَعتُها إلىٰ اللَّه قبلك، فإن تقضها حمدنا اللَّه وشكرناك، وإن لم تقضها حمدنا اللَّه وعذرناك»(١).

وثالثها: نِعَمٌ وصلت من اللَّه إلينا بسبب طاعتنا، وهي أيضًا من اللَّه تعالىٰ، لأنَّه لولا أنَّ اللَّه سبحانه وتعالىٰ وفقنا للطاعات لما كانت تلك المكافآت، كما قال ابن رواحة رضي الله عنه:

والله لولا اللهُ ما اهتدينا ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا
فأنزلن سكينةً علينا وثبِّتِ الأقدامَ إن لاَقينا(٢)

وقد تتساءل هنا: ما أعظمُ النعم؟

قلِّب الطرف يمينًا وشمالًا لترىٰ بعد أن تقوم بكل الحسابات بعقلٍ متجردٍ أن أعظم النعم نعمةُ الهداية إلىٰ الصراط المستقيم؛ وتتحقق هذه الهداية بمعرفة الحق لتقديسه وتعظيمه، ومعرفة الخير لأجل العمل به ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧].

ويدخل في هذه الهداية:

الهداية للأُخُوَّةِ والاتحاد.. فانظر كيف أشاد الله بها في قوله: ﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، كما يدخل في هذه الهداية اقتران الأقوال الخيرة بالأفعال الإيجابية المصدقة للأقوال، وبذا يظهر الصدق الحياتي في حياة الإنسان مهما كانت التبعات، وقد شعر الصادق العالي الجناب من أولي الألباب كعب بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بذلك فقال: (فواللَّه ما

(١) المجالسة وجواهر العلم٨/ ١٨.

(٢) البخاري٤/ ٣١.

أنعم اللَّه عليَّ من نعمةٍ قطُّ بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول اللهِ ﷺ أن لا أكون كَذَبْتُه فأهلك كما هلك الَّذين كذبوا؛ فإنَّ اللَّه قال للَّذين كذبوا حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحدٍ فقال تبارك وتعالىٰ: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ﴾[1] الحديث.

إنها الظلال الجميلة لإسناد فعل الإنعام إلىٰ الله؛ لتُذَكِّرَ كل غافل بأنه لولا الله لما كانت أفعالٌ خيرة، ولا ذكريات جميلة، ولا كانت حياة، ومن نشيد الصالحين:

لك الحمد مولانا علىٰ كل نعمةٍ ومِن أعظم النعماء قولي: لك الحمدُ
فلا حمد إلا أن تمنَّ بنعمةٍ تعاليتَ أن يقوىٰ علىٰ حمدك العبدُ

(١) البخاري ٦/ ٨.

المقصد التاسع

حراسة الصراط المستقيم من الخطرين الاستراتيجيين الموجودين على جانبي الصراط: خطر الوقوع في الغضب الإلهي، وخطر الضلالة المهلكة ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾

البلاغة القرآنية هنا تصل إلىٰ الغاية بجعل هذا المقصد يرسم الحدود الحصينة التي تحمي أصحاب الصراط المستقيم من السقوط عن هذا الجسر المنصوب (الصراط المستقيم).. وفي هذا المقصد البصائر الإستراتيجية الخطيرة الآتية:

المقصد التاسع:	حراسة الصراط المستقيم من الخطرين الاستراتيجيين الموجودين على جانبي الصراط: خطر الوقوع في الغضب الإلهي، وخطر الوقوع في الضلالة المهلكة ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ (الفاتحة: ٧) لحماية الصراط عن اليمين والشمال من الاختراق الخارجي، والداخلي
البصيرة الأولى	﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ ولا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ليست تزكية للمسلمين بل هو تحذير لهم من أنفسهم قبل غيرهم، فيجب أن يجتنبوا مواقع الغضب والضلالة، فالأوصاف تتحقق بالأعمال والاكتساب لا بالادعاء والانتساب
البصيرة الثانية	﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ﴾ تشير إلى الصفات الخطيرة التي تستنزل الغضب الإلهي
البصيرة الثالثة	﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ تعني وجوب حماية أصحاب الصراط المستقيم من الوقوع في الخسارة في القرارات المصيرية من خلال معرفة صفات الضالين
البصيرة الرابعة	تغاير النفي في ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ يبين اختلافًا واتفاقًا بين الفئتين، مما يكشف لنا طبيعة التحالفات ضد أهل الصراط المستقيم
البصيرة الخامسة	(الصراط) يبين الحلفاءَ والأعداء الإستراتيجيين لأمة الصراط المستقيم في الواقع العالمي
البصيرة السادسة	تقترن أفعال قيادات المغضوب عليهم والضالين بالوحشية
البصيرة السابع	التناقض بين الأقوال والأعمال ينافي مبدأ الاستقامة في (الصراط المستقيم)
البصيرة الثامن	آيتا الصراط تمثلان دستورًا كاملًا للمعرفة العليا والعمل الأقوم

البصيرة الأولى

﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ليست تزكية للمسلمين بل هو تحذير لهم من أنفسهم قبل غيرهم، فيجب أن يجتنبوا مواقع الغضب والضلالة، فالأوصاف تتحقق بالأعمال والاكتساب لا بالادعاء والانتساب

فهذا المقصد يحمي حدود الصراط المستقيم عن اليمين والشمال من الاختراق الخارجي، والداخلي معـًا.. لقد عرفت من قبل الصراط المستقيم فدخلته.. والآن احترس! هناك من سيحاول تضليلك وإبعادك عنه.. لا تحسبن الاختراق الخارجي والداخلي لصراطك المستقيم الذي تسير عليه قاصراً علىٰ أعدائك الذين يحيطون بك أو بأمتك.. بل قد يكون الاختراق الخارجي والداخلي حاصلاً بسببك دون سواك.. لذا جاء التحذير من المغضوب عليهم والضالين بصفاتهم لا بأجناسهم، فقد ترتكب أنت ما يوجب الغضب، وقد تقترف ما يسبب الضلالة.. وسترىٰ في هذا المقصد أن هذه الجملة المباركة ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ تعصمك من شرور نفسك، وشرور من حواليك، وتحميك كما تحمي أمة الصراط المستقيم من المتربصين الذي ودوا لو تكفرون.

إن الله -جلَّ في علاه- لو أراد أن يكون معنىٰ (المغضوب عليهم والضالين) محصورًا في اليهود والنصارىٰ لكان الأكثر بيانـًا أن يقول: غير اليهود ولا النصارىٰ.. لكنه سبحانه أراد ألا يزكي المسلمون أنفسهم، وألا يظنوا أن الانتساب إلىٰ الإسلام كافٍ عن أعمالهم.. ولذا ذكر المجرمين لا بالجنس بل بالوصف فقال: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ليحذر المسلمين أن يستنزلوا الغضب الإلهي بفعل

ما يوجبه، أو أن يقعوا في الضلالة بفعل ما يقتضيها.. واقتصار المفسرين -رحمهم الله- علىٰ التمثيل النبوي بمن يدخل في معنىٰ الآية يجعل بعضًا من المسلمين العاصين عندما يقرؤنها كالمزكين لأفعالهم غير عابئين بذنوبهم.. فترىٰ بعض المسلمين ربما وقعوا في الربا، واقترفوا الفواحش، وظلموا حقوق العباد ثم هم يقرؤون هذه الآية كأنهم لا يسمعون؛ لأنهم يظنون أنفسهم لم يدخلوا فيها.. أهكذا يكون الأمر؟ كلا ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣]..

فهل أتاك نبأ الفرق المغضوب عليها التي تذكرها الفاتحة في معرض الإنذار والتحذير؟ إنهم أصلٌ للفِرَقِ الَّتِي تعمَّدت الإجرام، واستمرأت العصيان عن عمدٍ، أو عن تأويلٍ بعيدٍ جدًّا، وَأما الضالون فجنسٌ للفِرَقِ الَّتي أخطأت الدِّين عن سوء فهمٍ، وقلَّة إصغاءٍ(١)، وقد آن الأوان أن نبرز كلا الفرقتين بالتمثيل الشخصي ليستبين للعيان من هم؟

اشتُهِر أن أبرز النماذج الواقعية للمغضوب عليهم والضالين اليهود الذين يتلاعبون بالتوراة، ويحرفونها، ويصنعون لهم دينًا يوافق أهواءهم وشهواتهم، والنصارىٰ الذين لا يُحَكِّمون الإنجيل المنزل عليهم من الله تعالىٰ حيث قال عنهم النبي ﷺ لعدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فإن اليهود مغضوبٌ عليهم، وإن النصارىٰ ضُـلَّالٌ**»(٢).. نعم! إن الـمُصِرِّين علىٰ اتباع ما حرَّفه الأحبار والرهبان من الفريقين الكتابيين يدخلون في المغضوب عليهم والضالين، فاليهود ضالون أيضًا كما هم مغضوب عليهم، والنصارىٰ مغضوب عليهم كما هم ضالون، وهذا ما فهمه الطبري

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٩٦).

(٢) الترمذي٥/ ٢٠٤، وقال: "حسن غريب".

ببصيرةٍ نافذةٍ -كعادته- حيث قال: «كلا الفريقين ضُلال مغضوبٌ عليهم... ولم يسمِّ واحدًا من الفريقين إلا بما هو له صفةٌ علىٰ حقيقته، وإن كان له من صفاتِ الذمّ زياداتٌ عليه»[١]، ولكن الله وصف كلاً من الفريقين بالصفة الأبرز، وإن وجدت الصفة الأخرىٰ فيه.

وإن تعجب فعجبٌ إقرار المحرفين من اليهود والنصارىٰ بوجود هاتين الصفتين فيهم بما يمكن التعبير عنه بما يسميه النصارىٰ الخطيئة الأصلية، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ خَرَجَ إِلَىٰ الشَّامِ يَسْأَلُ عَنِ الدِّينِ وَيَتْبَعُهُ، فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ الْيَهُودِ فَسَأَلَهُ عَنْ دِينِهِمْ فَقَالَ: إِنِّي لَعَلِّي أَنْ أَدِينَ دِينَكُمْ؛ فَأَخْبِرْنِي. فَقَالَ: لاَ تَكُونُ عَلَىٰ دِينِنَا حَتَّىٰ تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ غَضَبِ اللهِ. قَالَ: زَيْدٌ مَا أَفِرُّ إِلاَّ مِنْ غَضَبِ اللهِ، وَلاَ أَحْمِلُ مِنْ غَضَبِ اللهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَأَنَّىٰ أَسْتَطِيعُهُ؟ فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَىٰ غَيْرِهِ. قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا. قَالَ زَيْدٌ: وَمَا الْحَنِيفُ؟ قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا، وَلاَ نَصْرَانِيًّا، وَلاَ يَعْبُدُ إِلاَّ اللَّهَ. فَخَرَجَ زَيْدٌ، فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ النَّصَارَىٰ، فَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَقَالَ: لَنْ تَكُونَ عَلَىٰ دِينِنَا حَتَّىٰ تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ لَعْنَةِ اللهِ. قَالَ: مَا أَفِرُّ إِلاَّ مِنْ لَعْنَةِ اللهِ، وَلاَ أَحْمِلُ مِنْ لَعْنَةِ اللهِ، وَلاَ مِنْ غَضَبِهِ شَيْئًا أَبَدًا. وَأَنَّىٰ أَسْتَطِيعُ؟ فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَىٰ غَيْرِهِ؟ قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا. قَالَ: وَمَا الْحَنِيفُ؟ قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا، وَلاَ نَصْرَانِيًّا، وَلاَ يَعْبُدُ إِلاَّ اللَّهَ. فَلَمَّا رَأَىٰ زَيْدٌ قَوْلَهُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ -عَلَيْهِ السَّلاَمُ- خَرَجَ فَلَمَّا بَرَزَ رَفَعَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُ أَنِّي عَلَىٰ دِينِ إِبْرَاهِيمَ[٢].

أتريد أن تتشبع من القوة الإعجازية في الوصف الإلهي للغضب علىٰ المحرفين من اليهود، والضُّلَّال أتباعهم من عميان النصارىٰ؟ اسمع القصة الآتية الواردة في

---

(١) تفسير الطبري١/ ١٩٥.

(٢) البخاري (٥/ ٥٠).

سفر التكوين؛ فهي ستبين لك صورةً من أشنع صور سوء الظن بالله، حينما يظن الإنسان به الصفات البشرية.. بل استمع إلىٰ شيءٍ تقشعر منه الأبدان، يترتب عليه بناء طريقة تفكيرٍ فاسدةٍ في النظرة للوجود والتعامل مع الناس:

«**٣٢: ٢٤** فبقي يعقوب وحده، وصارعه إنسان حتىٰ طلوع الفجر

٣٢: ٢٥ ولما رأىٰ انه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه، فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه

٣٢: ٢٦ وقال: أطلقني لأنه قد طلع الفجر، فقال: لا أطلقك إن لم تباركني

٣٢: ٢٧ فقال له: ما اسمك؟ فقال: يعقوب

٣٢: ٢٨ فقال: لا يدعىٰ اسمك في ما بعد يعقوب، بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت».

هذه القصة الغريبة تدل علىٰ صراع إسرائيل مع رب إسرائيل الذي بعد هزيمته بارك إسرائيل! ألا ترىٰ سوء هذه الخرافة الموهمة لحيازة يعقوب -عليه السلام- البركة لا بالاختيار الإلهي بل بالغلبة -ولِمَن-؟ والغش والتزوير والاحتيال -وعلىٰ مَن-؟ هنا تعلم النفسية المتطرفة لمن يبني تصرفاته العالمية بناءً علىٰ مثل هذه الأساطير السيئة؟ ربما عرفت بذلك مدىٰ استحقاق المحرفين للغضب، وأدركت مدىٰ استحقاق وصف الضلالة لمن يتبعهم تبعية عمياء علىٰ إثبات مثل هذه القصة دون أن يعقب أو يناقش، بل يقيم السياسات العالمية بناءً علىٰ هذه الخرافات.. والقصة توضح لك تمام التوضيح لماذا يظهرون التدين والاهتمام الهائل ببناء المعابد من الكنائس والكُنُس، وهم في الوقت ذاته الذين يقومون بتوفير الأجواء اللازمة والغطاء الدولي المناسب لسفك الدماء والإفساد في الأرض.. ترىٰ ما هذا

النوع من التدين؟ ولكن ليس ذلك غريبًا علىٰ من تلاعب بالنصوص، واخترع له دينًا قابلًا للتطور، به يتلاعبون، له ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٤، ٢٥].

فإن كان النبي ﷺ قد ذكر أن المحرفين من اليهود مغضوب عليهم، وأن النصارىٰ الذين لا يُحَكِّمون الإنجيل ضُلَّال، فهل قصد النبي ﷺ هنا حصر المغضوب عليهم والضالين فيهم؟ ألا يدخل في ذلك بعض المسلمين؟

ها هنا تأتي أصول التفسير لتبين أن هذا النوع من التفسير النبوي إنما هو تفسيرٌ بضرب أبرز مثالٍ علىٰ المغضوب عليهم، والضُّلال، والتفسير بضرب المثال لا يقتضي الحصر في المقال، فليس المراد من هذا الوصف دينَ اليهودية والنصرانية؛ إذ لَو كان المراد دين اليهُوديَّة ودين النَّصرانيَّة لكان الدُّعاء تحصيلًا للحاصل؛ فإنَّ الإسلام جاء ناسخًا لهما، بل المراد مَن أحلَّ منهم غضب الله عليه بأفعاله المجرمة، واستحق بجدارةٍ وَسْمَ الضلال بسلوكياته الآثمة، والحكم يدور مع الوصف حيث دار، ولذا يدخل في المغضوب عليهم والضالين فئات أخرىٰ، ومنها: إبليس وذريته من الغاوين، حيث قال الله لكبيرهم: ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الحجر: ٣٤، ٣٥] ، واللعنة تتضمن ضلال الملعون والغضب عليه، ومن فئات المغضوب عليهم والضالين: المشركون الوثنيون، وفِرقُ الكفر والفسوق والعصيان من سائر الأجناس والأديان، ولكننا نريد التأكيد علىٰ دخول فئة خطيرة في المغضوب عليهم والضالين:

إنها قوىٰ النفاق المجرمة الخائنة التي توالي أعداء الأمة الإسلامية، وتعمل علىٰ تدمير قوة المسلمين من الداخل، وهم المتآمرون الذين أبان الله حرصهم الشديد

علىٰ فعل ما يغضبه، فقال عنهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٨].. إنهم من شابه اليهود والنصارىٰ من المسلمين، ومن أبرز من ينتمي إليهم قوىٰ الضلال والفسق التي تستنزل الغضب الإلهي في المجتمعات الإسلامية.. ألا ترىٰ أنه ينطبق عليهم بوضوحٍ تامٍّ قول الله -تعالىٰ جده-: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾ [النساء: ٦٠، ٦١] ؟، وربما -تساءلت محقًا عن سبب إفراد هذه القوىٰ بالذكر؟ وذلك لتستوعب العقلية المسلمة أنهم دخلوا في المغضوب عليهم والضالين. وائذن لي لتنصت معي إلىٰ المستشرق الإنجليزي توماس ستيرنز إليوت (Thomas Stearns Eliot) (ت ١٩٦٥): «أليس ما نسميه ثقافة شعبٍ ما، ودين هذا الشعب مَظهرين مختلفين لشيءٍ واحدٍ؟ إذ الثقافة في جوهرها تجسيد لدين الشعب»(١)، وقال: «وحين ندافع عن ديننا فلا بد لنا في معظم الأمر من أن نكون مدافعين عن ثقافتنا في الوقت نفسه، فإننا نكون مطيعين لغريزتنا الأساسية في المحافظة علىٰ وجودنا»(٢)، وقال في كلام شديد الخطورة: «السير إلىٰ الإيمان الديني عن طريق الاجتذاب الثقافي هي ظواهر طبيعية، كما أنها مقبولة»(٣)، وذلك يعني -بوضوحٍ- أن قوىٰ التغريب هم الطلائع الأولىٰ والكتائب الخفية للتنصير الذي يعني قيام جحافل التغريب بمهمة إدخال الناس في طوائف المغضوب عليهم

---

(١) ملاحظات نحو تعريف الثقافة لإليوت ص٤١، ترجمة شكري عياد، وهذا المـنَظِّر المتعصب المسيحي إليوت حاز علىٰ جائزة نوبل في الأدب في ١٩٤٨م.

(٢) المرجع السابق ص١٠٩.

(٣) المرجع السابق ص١١٥.

والضالين. انظر لهذه النتيجة الرهيبة التي توصلنا إليها سورة الفاتحة**!!**.

وهنا يأتي التحذير العظيم للأمة الإسلامية في هاتين الكلمتين: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، وهو تحذيرٌ مزدوج:

فهو تحذيرٌ من عدوٍّ خارجي ينتمي إلىٰ المغضوب عليهم والضالين من أعدائهم المتربصين.

وهو تحذيرٌ من عدوٍّ داخليٍّ؛ إذ قد تزين لهم أنفسهم الوقوع فيما يغضب الله، أو يُضل المسير، وقد يوجد فيهم من يدخل في المغضوب عليهم والضالين.

عندها -أيدك الله- ربما تساءلت: هل يمكن أن يدخل بعضُ المسلمين في أمم المغضوب عليهم والضالين؟

فانظر للأحداث الحيوية منك وحولك بالمنظار القرآني؛ إذ ربنا ذكر المغضوب عليهم والضالين، فحيث فعل أحدٌ ما يستوجب الغضب والضلالة حلَّ عليه، فالعبرة بالأفعال والخصال لا بالنسب والحسب، فهذه الآية السابعة العظيمة تُبيِّن للمنتسبين إلىٰ الأديان أن المطلوب منهم: البحث عن كيفية الفوز بالإنعام ليكونوا من المُنعَم عليهم، واجتناب مواطن الغضب والضلال، فلا يظنن أحدٌ أن الجنسية الدينية تمنحه العصمة عن المساءلة؛ فإن الأكرم هو الأتقىٰ؛ ولذا جاء الوصف للسعداء والأشقياء في سورة الفاتحة وَفق نتيجة أعمالهم، **فمن أمثلة المغضوب عليهم والضالين ممن ينتمي إلىٰ المسلمين:**

المثال الأول: قاتل المؤمن عمدًا مغضوبٌ عليه، ولو انتسب إلىٰ الإسلام كما قال -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ [النساء: ٩٣]، وقد أدخل النبي ﷺ في الضُّلال قاتل النفس فقال:

«فلا ترجعوا بعدي ضلالًا يضرب بعضكم رقَابَ بعضٍ»(١).

المثال الثاني: الكاذبة علىٰ زوجها في اللعان مغضوب عليها، فاسمع إلىٰ ربك يبين ذلك: ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٩].

المثال الثالث: الفارُّ من المواجهة الحربية مغضوبٌ عليه.. إنه خاذل الصفوف المؤمنة، وربما وقعت الهزيمة بسببه، والله -جلَّ مجده- يبين نزول الغضب علىٰ فاعل ذلك، فيقول: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦].

المثال الرابع: موالي المعتدين ضالٌّ، ولو كان ينتسب إلىٰ الأصحاب والآل، فقد قال -تعالىٰ عزُّه-: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

المثال الخامس: يدخل في الضالّين كلُّ عاصٍ مخالفٍ للقرآن؛ واسمع إلىٰ هذه الحقيقة القرآنية التي تبني الفهم الحقيقي لتلاوة القرآن: ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢].

إنه القرآن: من تلاه ليهتدي ببيانه ونظمه وتعليماته فهمًا وعملًا فهو الذي يبني مجده، ومصالح نفسه، ومن تلاه أو سمعه ثم اتخذه وراءه ظهريًا، فلم يمتثله ولم يعمل به فقد ضلَّ سواء السبيل، فما أكثر الضُّلَّال الذين هجروا العمل بالقرآن!! وقد قال فيهم محمد سالم ولد عدود رحمه الله:

شكا دين الهدىٰ مِمَّا دهاه ... بأيدي جامدين وملحدينا
شبابٌ يحسبون الدين جهلًا ... وشِيبٌ يحسبون الجهل دينا

ولأن العبرة بالأعمال، لا بالانتساب والتفاخر والادعاء بالأقوال قال سفيان بن

---

(١) البخاري ٥/ ٢٢٤.

عيينة: «من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا ففيه شبه من النصارىٰ»، فمجرد انتساب المؤمنين لأمة خير النبيين ﷺ لا يعني الحصول علىٰ بطاقات الفوز، ولا أوسمة الفلاح في عليين ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

البصيرة الثانية

﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ تشير إلى الصفات الخطيرة التي تستنزل الغضب الإلهي

ذكر الله هذا العدو الخطير للصراط المستقيم ولأصحابه ليعصمهم من التلبيس العلمي والعملي، وكأنه بذلك يبني الجدار المشيد علىٰ جانبي الصراط من اليمين ومن اليسار لحماية السائرين في الصراط، ونستنبط هذا المقصد من قوله تعالىٰ ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ ، فهذه الكلمات الثلاث تشير إلىٰ أشخاصٍ وفِرَقٍ تحاول إنزال الغضب الإلهي علىٰ العالم البشري بالتلبيس العلمي والعملي.. يحارب هؤلاء المجرمون بقوةٍ لتكوين ثقافةٍ يتم فيها لبس الحق بالباطل، وإخلاء العلم الحق من المؤمن العامل، وَوُسِمتْ بالمغضوب عليهم؛ لأنها تستنزل غضب الله تعالىٰ ببشاعة جرائمها، ومخالفتها لأهداف الاستخلاف البشري القائم علىٰ إعمار النفوس والأرض بمنهاج العبادة التوحيدي لتحقيق الحياة الطيبة في الدارين الأولىٰ والأخرىٰ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ٧﴾ [الكهف: ٧] ، وقال: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] ، وبدلًا من ذلك قامت فرق ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ بما تساءلت الملائكة عن وقوعه من الجنس البشري، وهو سفك الدماء والإفساد في الأرض.

وقد أبانت لنا بصائر القرآن صفات هذه المخلوقات، فلا تقف عند هذا الوصف ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ لتظن أنه وصفٌ دينيٌّ محضٌ، بل إن وقوع البشرية في الأعمال التي تغضب الرحمن يعود عليها بالدمار، ويملأ العالم بالجور والطغيان، وإذا كان المغضوب عليهم يُعرَفون بصفاتهم، فمعنىٰ ذلك أنهم قد ينتمون إلىٰ أي أمةٍ من الأمم، سواء أكانوا مسلمين أم كانوا كافرين.

وأهم صفاتهم المقترنة باستنزال الغضب الإلهي حسبما ورد في القرآن:

البصيرة الثانية: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ﴾ تشير إلى الصفات الخطيرة التي تستنزل الغضب الإلهي

الصفة الأولى: الطغيان ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ (طه: ٨١)

الصفة الثانية: الحسد، وصنع البرامج التكفيرية والتفسيقية التي تصد عن سبيل الله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ... أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ النساء: ٥٢ - ٥٤

الصفة الثالثة: الدفاع عن الباطل والقوانين المحلية والدولية الظالمة التي يلهو بها وحوش البشر ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ الشورى: ١٦

الصفة الرابعة: نقض العهد وخلف الوعد ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ طه: ٨٦

الصفة الخامسة: الافتراء ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ آل عمران: ٧١

الصفة السادسة: سوء الظن بالله سبحانه وتعالى ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ الفتح: ٦

الصفة السابعة: صناعة الحركات السرية العاملة على صناعة برامج الإفساد العالمي ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ... ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ محمد: ٢٦ - ٢٨

الصفة الأولىٰ: الطغيان:

الطغيان تجاوزُ الحد، وتَعَدِّي الضوابط الحيوية القويمة، وهو يسبب آفات الإسراف والتبذير، ويؤدي إلىٰ استباحة العدوان.. تأمل ذلك في قول مالك الملك -تعالىٰ جده- مبينًا النفسية المريضة للطغاة التي توبقهم في الغضب والهلاك: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِيۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ [طه: ٨١]، ويترتب علىٰ الطغيان:

عدم العمل بالعلم: فانظر إليهم وهم يسمعون كلام الله -جلَّ في علاه-.. أتراهم يقولون: سمعنا وأطعنا؟ أتراهم يتلقونه بالتعظيم والمحبة والتكريم؟.. لا! بل لا ترىٰ منهم إلا التولي بالجسد، والإعراض بالقلب، والاغترار بما عندهم من التفوق، أو التقدم، أو المال والولد، وقد وصف الله إعراضهم فقال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [البقرة: ٨٣] ، فهم يعرفون الحق والباطل، ويميزون بين العدل والظلم، ولكنها معرفةٌ مجردةٌ دون عمل.

الهوىٰ في الاختيار من التعليمات والتشريعات، والاستكبار عن الاستسلام لله: فدينهم قائم علىٰ التشهي والرغبات، فيعملون بما شاؤوا، ويتركون ما شاؤوا، بل ربما عملوا بنقيض ما أُمِروا به.. إنهم عُبَّاد الذات، وأتباع الشهوات، وظهر عليهم التعالي والاستكبار ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ [البقرة: ٨٧].

الصفة الثانية: الحسد، وصنع برامج الفِسْقِ التي تصد عن سبيل الله:

هؤلاء المغضوب عليهم قومٌ كشف الله دخائل أسرارهم، وبين رغبتهم العارمة في أن يروا المؤمنين مرتدين.. هذا أعظم ما يريدون تحقيقه من إنجازات في الحياة؛ ولذا ينشئون المؤسسات، ويصنعون القيادات التي تسهم في تكفير المسلمين وتفسيقهم (إدخالهم في الكفر والفسوق) ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ

ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩]. لقد أشعل الحسد نيران قلوبهم، فصاروا يحبون الاعتداء علىٰ المسلمين أولًا، وعلىٰ سائر المستضعفين ثانيًا، ولكن التعبير القرآني دقيقٌ في وصف رغبتهم في تكفير المؤمنين؛ إذ وصف الله ذلك بالود فقال: ﴿ وَدَّ ﴾ أي رغب رغبةَ محبةٍ، ولذا تراهم يؤمنون بالجبت والطاغوت، ويؤيدون الحركات الوثنية، ولا ينفعهم علمهم بأن ذلك كفر صريح ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٥١]، وهنا استحقوا ما هو أسوأ من الغضب وهو اللعنة، فقال الله سبحانه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ٥٢-٥٤]، وتنفيذًا لهذا (الود) وتطبيقًا لمقتضيات الحسد سخروا لذلك مؤسساتهم الدولية، ومكاتبهم الاستشارية، واستثماراتهم الخاصة، وجعلوا كل إمكانياتهم لتحقيق تلك الغاية علىٰ أساس الخداع والمكر كما قال تعالىٰ عنهم: ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

ولماذا يحسُدون المؤمنين وربما كانوا أقل منهم مالاً ومتاعًا؟ إنه حسدٌ علىٰ طهارة المؤمنين، وتطبيقهم لميثاق ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥].. إنه حسدٌ سببه أن يوجد علىٰ الأرض دليلٌ متحركٌ علىٰ أن الحق في غير منهج المغضوب عليهم والضالين.

الصفة الثالثة: الدفاع عن الباطل والقوانين المحلية والدولية الظالمة التي يلهو بها وحوش البشر:

كشف عن ذلك هود -عليه السلام- عندما جادله قومه مستندين إلىٰ شرعيتهم

المجرمة، وقوانينهم الظالمة، فقال: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِي أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [الأعراف: ٧١]، فذكر أن الغضب وقع عليهم بسبب القوانين التي اخترعوها ليُسَوِّغوا بها كل إثمٍ وعدوانٍ، ولم يكتفوا بذلك حتىٰ أقاموا المنابر الإعلامية والمؤسسات الحقوقية للدفاع عن هذه القوانين المجرمة. ألم ترهم يحاجُّون في الله؟ ويحاولون أن يظهروا بحججهم في العالم ليسوغوا في أفعالهم كل مأثمة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورىٰ: ١٦].

الصفة الرابعة: نقض العهد، وخلف الوعد:

إنها صفة ملاصقة لأكاذيبهم، فقال -تعالىٰ ذكره- مبينًا لها علىٰ لسان موسىٰ -عليه السلام-: ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ [طه: ٨٦]، فإخلاف الموعد من أبرز ما يؤدي إلىٰ غضب الله -تعالىٰ وتقدس-، ولا يخفاك أن هذه الصفة متأصلةٌ عند بعض اليهود خاصة قياداتهم[(١)]، ثم سرت إلىٰ بعض إلىٰ المسلمين ضمن ما سرىٰ من أمراض الأمم.. وبعض المسلمين ربما استسلم لمنام لذيذٍ يتوهم فيه أن المغضوب عليهم فقط هم اليهود، ثم يقترف خطاياهم، ويأتي السيء من صفاتهم تاركًا المجاهدة لطبيعة النفس الأمارة بالسوء.. لا تفعل ذلك -أيها المؤمن بالفاتحة- فإن الله لو أراد الغضب علىٰ جنس بعينه لحدده هنا، ولكنه

---

(١) فإسحاق رابين مثلاً كان يتهرب من استحقاقات الاتفاقات بينه وبين طرفٍ فلسطيني، ورفع شعاره المعروف بـ «أن لا مواعيد مقدسة لديه»، وفي المقابل يحفظ لنا التاريخ قصة اليهودي الجاهلي السموأل (شُمُوئيل أو صموئيل) بن عُريض بن عادياء الأزدي الذي يضرب له المثل، فقيل فيه: أوفىٰ من السموأل، حيث أسلم ابنه للقتل مقابل الوفاء لامرئ القيس بما التزمه له في قصة مشهورة، وقال: وفيت بأدرع الكندي إني إذا ما خان أقوامٌ وفيت.

لم يفعل بل قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ ليشمل كل من يقترف ذلك ولو ادعىٰ أنه مسلم ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥٣].

الصفة الخامسة: الافتراء:

فهم الذين يُشيعون الكذب في العالم، ويجعلون الأكاذيب صناعة يضللون بها الإنسانية من خلال الإعلام والثقافة والتربية، وقد بين الله أن غضبه سينال المفترين فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، فانظر كيف أحال الإعلام المعاصر الافتراء إلىٰ صناعةٍ مؤسسيةٍ تُبرز أكثر الناس همجيةً وإجرامًا علىٰ أنهم أصحاب الحق الحصري في الكلام عن مصائر الشعوب، وتبرز أكثر الناس انحلالًا وإفسادًا علىٰ أنهم نجوم العالم، ونماذج الاقتداء ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١]، ومن أبشع الافتراء محاولة صنع إسلامٍ يجافي الصراط المستقيم، كالذي تروج له مؤسسة راند (RAND Corporation) حيث نشرت في نهاية شهر مارس من عام ٢٠٠٧م (ربيع الأول ١٤٢٨هـ) بعنوان (بناء شبكات مسلمة معتدلة) Building Moderrate Muslim Networks، يقدم توصيات محددة وعملية للقيام بعملية افتراء (إسلام) يناسبها، وليس هو الصراط المستقيم الذي أنزله الله -تعالىٰ مجده-. وهنا تبرز أهمية هذه المقاصد الثلاثة العاصمة المبينة لحقيقة الصراط المستقيم.

الصفة السادسة: سوء الظنِّ بالله سبحانه وتعالىٰ:

يا لجمال البناء القرآني للنفس المسلمة الواثقة بنصرة الله وتوفيقه وبركته.. إن ظنَّ السوء بالله يكون بالتفكير بعدم الثقة بنصره لأوليائه، أو بإقراره الظلم في

العالم، وذلك ما تظنه أحزاب البغي المتحالفة من المشركين والمشركات وأوليائهم المنتمين للطابور الخامس من المنافقين والمنافقات.

وقد بين الله شأنهم، وفضح مؤامراتهم، وخيَّبَ ظنهم بأنه لن ينصر المؤمنين اغترارًا بشدة مكرهم وتنوع قواتهم العاملة علىٰ دمار الإنسانية فقال تعالىٰ: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

الصفة السابعة: صناعة الحركات السرية العاملة علىٰ صناعة برامج الإفساد العالمي:

ذكر الله مؤامراتهم ومؤتمراتهم السرية، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦ - ٢٨].

وأول من اتسم بهذه السرية من المغضوب عليهم محرفو اليهود؛ فهم الذين وصفهم الله بالشياطين ذاكرًا اجتماعاتهم السرية مع القوىٰ الإجرامية والمنافقة في قوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، ووصف شدة تكتمهم المعلوماتي، وتشاورهم علىٰ الإضلال الخارجي فقال: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ٧٦] ، وهذه الصفة لها تأثيراتها الرهيبة علىٰ الواقع العالمي؛ إذ أفرزت العديد من الحركات السرية التي تتدثر بدثار البراءة وهي تتسم بأشد أنواع النفاق العالمي، ولا هدف لها سوىٰ إشاعة البرامج الإفسادية الكفرية. لا تحزن ولا

تخف من ذلك، فأنوار المعرفة القرآنية تكشف ذلك بدقةٍ تحذيريةٍ فائقةٍ ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٨، ٨٩].

البصيرة الثالثة

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ تعني وجوب حماية أصحاب الصراط المستقيم من الوقوع في الخسارة في القرارات المصيرية من خلال معرفة صفات الضالين

هذه الجملة المباركة ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ تعصمُ الصراط المستقيم من الضالين الذين يريدون القيادة العالمية لتوجيه المجتمعات عبر عقليةٍ جاهلةٍ عمياءَ ضالةٍ بعيدةٍ عن التحقيق العلمي، وكذلك العصمة من كل من ضلَّ شعر أم لم يشعر، والله يقول عنهم: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩].

ماذا يعني قوله تعالىٰ ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؟

إنه يعني التحذير التام.. نعم! احذر أيها اللبيب. احذر أيها العالَمُ المسكين؛ فإن الضالين قد يكونون أفرادًا.. قد يكونون أصحابًا.. قد يكونون أعداءً.. قد يكونون فِرَقًا.. قد يكونون مجموعات عملٍ تقدم الخدمات الاستشارية.. احذر منهم؛ فقد تاهوا عن العلم الحق بسبب الجهل المركب، لكنهم يصرون علىٰ أخذ زمام المبادرة، فقد يكون أحدهم صاحبًا لك، أو قد يصرون علىٰ قيادة العالم ولكن وفق ضلالهم.. وقد يعلمون بجهلهم، وربما لا يعلمون؛ فيحسبون أنهم يحسنون صنعًا.. يسعون غالبًا -بعلمٍ أو بغير علمٍ- لتنفيذ الخطط الآثمة التي أعدتها فرق ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ لتزييف الصراط المستقيم، وإدخال العالَـم في الكفر والفسوق والعصيان، وانتهاج سبيل الغي، ونبذ النهج الراشد، بل ومحاربته.

إنها (الفاتحة) العظيمة تحفظ أهل الصراط المستقيم من الوقوع في الوادي السحيق للكفر والعصيان، وتحمي الأمة من أن تقع في الخسائر العظيمة، والهزائم المتلاحقة، فالضلال حالةٌ خطيرة تصيب الإنسان أو الجماعات أو الدول تؤدي إلىٰ **الخسار والهلاك؛ إذ له معنيان:**

المعنىٰ الأول: التيه وسُلُوكُ الطَّرِيقِ الخطأ، سَوَاءٌ عَلِمَ بِذَلِكَ السالك أَمْ لَمْ يَعْلَمْ، وهذا المعنىٰ هو المرحلة الأولىٰ من الضلال، حيث يحدث الضياع في فهم الحياة، فيكونون كما قال الله -جل ذكره- عن قوم تائهين ظنوا أنهم أخطأوا هدفهم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ [القلم: ٢٦]، يتيه الضالون كما قيل:

ألم تسأل فتخبرك الديارُ ... عن الحي المضلَّل: أين ساروا

المعنىٰ الثاني: الهلاك، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] أي: هلكنا، وأكل لحومَنا الدودُ.

ما العلاقة بين المعنيين؟ المعنىٰ الثاني هو المرحلة النهائية، وهو نتيجة المرحلة الأولىٰ من الضلال التي يعبر عنها المعنىٰ الأول، فينتج عن الضلال الفكري التيه والأخطاء الفادحة في التَصوُّر، والاعتقاد، والرأي، والحياة العملية، وعدم التوجه إلىٰ الخير جهلًا أو عمدًا.

فاجتناب الضلال هو العاصم الثالث من الانحراف والانجراف أثناء السير علىٰ الصراط، وبذا ترىٰ أن قوله تعالىٰ ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ يرسم لنا وسائل الحماية من أن يكون الإنسان من القَتَلة الضالين.. والحماية من أن ينتمي إلىٰ أتباع الشهوات الضالين.. الحماية من أن يكون من العاقِّين الضالين.. الحماية من الضلالات الفكرية، والضلالات الإعلامية، والضلالات الثقافية.. الحماية من الوعي الضال الزائف الذي تمارسه المحافل الدولية لصناعة وعيٍ في العالمين غير وعي (الفاتحة).

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ تعني الحماية من أن يكون الإنسان من الفاسدين الضالين المتلاعبين بالثروات الخاصة والعامة.. الحماية من أن يكون من تجار الحروب المجرمين الضالين.. تعني الحماية من مصانع الضلالة في القلوب، والمناهج والدروب.

وحالة (الضلال العالمي) هي حالة كثيرٍ من صناع القرار الديني والسياسي من أهل الكتاب الذين يضللون الرأي العام العالمي، فترىٰ مقلديهم علىٰ آثارهم يعمهون، ومنهم قومٌ من المسلمين تولوا قومًا غضب الله عليهم، ولكن قوله ﴿وَلَا

﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ يدل أيضًا علىٰ تحذير كل فردٍ منا من صحبة هؤلاء التائهين الهالكين.. ترىٰ كيف يصنع من اتخذ قرناء فزينوا له ما بين يديه وما خلفه من سوء العمل، وأنزلوا بأفعاله وحياته الزلل، والخطايا الاجتماعية، والنكبات الاقتصادية؟ وهذا يستدعي معرفة صفات الضالين بالنظر في ورودها مقترنة لهذه الصفة، فأهم صفات الفرق الضالة النفسية والفكرية والعملية:

البصيرة الثالثة: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ تعني وجوب حماية أصحاب الصراط المستقيم من الوقوع في صفات الضالين، ومن أبرزها

الصفة الأولى: عدم الرجوع إلى المصدر الإلهي للأفكار والبناء ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ البقرة: ١٩٨

الصفة الثانية: الكفر والازدياد من الأعمال الكفرية ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ آل عمران: ٩٠

الصفة الثالثة: اليأس والجزع من الوصول إلى الحلول التي يجدها المرء في رحمة الله الواسعة ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ الحجر: ٥٦

الصفة الرابعة: الإصرار على التكذيب الجزئي أو الكلي لآيات الله ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ المؤمنون: ١٠٥، ١٠٦

الصفة الخامسة: المسارعة إلى النصرة غير المتزنة ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ الشعراء: ٢٠

الصفة السادسة: المسارعة إلى حياكة المؤامرات، ووصف المُنعَم عليهم بالضلالات الفكرية والثقافية والعملية ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ المطففين: ٣٢

الصفة الأولىٰ: عدم الرجوع إلىٰ المصدر الإلهي للأفكار والبناء؛ إذ هناك مصدران لبناء الأفكار:

إما المصدرية الإلهية، وإما مصدرية العقليات الضالة التائهة التي تتزين بزخرف العلم والتفكير، وهي تأخذ البشرية بعيدًا عن نور الوحي.. هاهنا ينبعث نور القرآن المبين في وظيفةٍ تذكيرية للمؤمنين بمعنىٰ الإسلام فيقول الله: ﴿ **وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ** ﴾ [البقرة: ١٩٨]، ولذا طلب إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- الهدايةَ ذات المصدرية الإلهية؛ حتىٰ لا يقع في فخ مصدرية الضلالة، فقال: ﴿ **لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ** ﴾ [الأنعام: ٧٧]، ومنَّ الله علىٰ نبينا محمد ﷺ بأن استنقذه من حيرة الضلالة، فقال: ﴿ **وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ** ﴾ [الضحىٰ: ٧]، فالضالون قومٌ تائهون، هالكون، ساروا علىٰ عمىٰ، أو رأوا الهدىٰ فاستحبوا العمىٰ علىٰ الهدىٰ، واخترعوا لهم أديانًا، وعباداتٍ، وعقائد، ونظمًا، ومعاملاتٍ، وقوانين، ودساتير، وشرائع محليةً، وأعرافًا دوليةً من تلقاء أنفسهم، علىٰ غير علمٍ ولا هدىً، فهلكوا وأهلكوا.. نادِ هؤلاء الحيارىٰ والتائهين السكارىٰ، وقل لهم: ﴿ **يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ** ﴾ [المائدة: ٧٧].

الصفة الثانية: الكفر والازدياد من الأعمال الكفرية، فقد وصف الله -تعالىٰ سلطانه- الضالين بذلك فقال: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ** ﴾ [آل عمران: ٩٠].

ومن الازدياد في الكفر نصرة التقاليد المحلية والدولية المجرمة المحاربة للدين القويم كما قال تعالىٰ عن الظالمين -واصفًا سرعتهم في اقتفاء آثار أسلافهم من

القوى الظالمة-: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٦٩ - ٧١].

الصفة الثالثة: اليأس والجزع من الوصول إلىٰ الحلول التي يجدها المرء في رحمة الله الواسعة، وذكر الله هذه الصفة للضالين في قوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

إن الضالين تاهوا عن أقرب شيء إليهم! ألا هو رحمة الله ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦].

الصفة الرابعة: الإصرار علىٰ التكذيب الجزئي أو الكلي لآيات الله، فقد خاطب الله قومًا أشقياء، فقال لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٥]، فقاموا يقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، ولذا خاطب الله أصحاب المصير المظلم بأبرز صفةٍ فيهم وهي التكذيب الكلي أو الجزئي لآياته فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٥١].

إن هذا البيان القرآني يرسل أنواره إلىٰ الجهات الإسلامية ليحذروا في تعاملاتهم الشخصية والدولية من الوقوع في براثن مصادقة المكذبين لآيات الله.. فماذا يريدون من مصادقة قوم عموا وصموا وكذبوا بكلام الله؟.

الصفة الخامسة: المسارعة إلىٰ النصرة غير المتزنة، فقد نصر موسىٰ -عليه الصلاة والسلام- رجلًا مضطهدًا، ولكنه استعجل، ثم ندم، وبين أن ذلك الاستعجال كان نوعًا من الضلالة اقترفه قبل أن يعرف الحق، ويبصر النور، فقال: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠].

الصفة السادسة: المسارعة إلىٰ حياكة المؤامرات، ووصف المُنعَم عليهم بالضلالات الفكرية والثقافية والعملية: فالذين أجرموا يتآمرون علىٰ القوىٰ الخيرة في المجتمع، ثم يقلبون في وسائل إعلامهم المتاحة المفاهيم، فيتهمون المؤمنين بالضلالة، ويصف الله ذلك، فيقول: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢]، ولذا يسارعون إلىٰ إنشاء المؤسسات التي تعمل علىٰ النشر العالمي للضلالة العامة في الأمم، ويغلفون ذلك باسم التنوير والاعتدال، أو الثقافة والفن؛ فيفشون الضلالة باسم محاربة الضلالة ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٤٨].

وَالضلال مراتب كثيرة فلَهُ -كما يقول الطاهر بن عاشور-: «عَرْضٌ عَرِيضٌ، وحلْبٌ مخيضٌ»، وخبرٌ ينبئك حال صاحبِه عن العقل التائه والقلب المريض، فقد ترىٰ الضلال في ترك السنن والآداب والواجبات، وقد ترىٰ الضلال في التساهل في العبادات، وقد ترىٰ الضلال في التجاذبات السياسية، وقد ترىٰ الضلال في عزل نور القرآن عن الأحكام القضائية، وقد ترىٰ الضلال في الأكاذيب الفردية، أو التلاعبات الإعلامية، أو الافتراءات الصحفية.. والاستمرار في اتباع طريق الضلال يؤدي إلىٰ حالة خطيرة هي حالة الْخَتْم وَالطَّبْع وَالْأَكِنَّة التي تنذر بعدم إمكانية تغيير الفساد في القلوب؛ لأن النور قد حُجب عنها؛ جزاءً وفاقًا علىٰ الإصرار علىٰ السير في طريق الضلال والذنوب.

البصيرة الرابعة

تغاير النفي في ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ يبين اختلافًا واتفاقًا بين الفئتين، مما يكشف لنا طبيعة التحالفات ضد أهل الصراط المستقيم

ألم يأتك نبأ القرآن المجيد إذ يظهر لك المعاني المتعددة من خلال حرفٍ واحدٍ أو حرفين؟ تأمل هذه البصيرة التي نفهمها من الدقة العجيبة للتعبير القرآني في أداتي النفي في قوله تعالىٰ: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، إذ نلحظ أن الله تعالىٰ نفىٰ طريق المغضوب عليهم بأداة النفي ﴿غَيۡرِ﴾ في قوله ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾، ونفىٰ طريق الضالين بأداة أخرىٰ هي (لا) فقال: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فلم يقل: (غير المغضوب عليهم وغير الضالين -أو- غير المغضوب عليهم والضالين)،

وهذا التغاير في استخدام أداة النفي أمرٌ مدهشٌ يفتح آفاقًا في استنباط الفرق بين التعبيرين، فمما يستنبط من ذلك أن (لا) تحقق الوظيفتين الآتيتين:

الوظيفة الأولىٰ: بيان عَظَمة الصراط الذي يسير عليه الـمُنعَم عليهم؛ ولذا أكَّد النفي بكلمة (لا)، وقد تقول: كيف ذلك؟ يبين ذلك قول بعضهم: (لا) زائدةٌ، وليست زائدةً بمعنىٰ أنه لا وظيفة لها.. بل لها وظيفة رائعة، هي: بيان إرادة شدة التوكيد بإضافتها، فكأنه أراد أن يقول: غير المغضوب عليهم والضالين، ولكن لغرض شدة التوكيد أضاف (لا) قبل الضالين، وبذلك أيضًا يتم الـمحافظة علىٰ لغةٍ عربيةٍ صحيحةٍ، حيث يُدخِلُها بعض عرب اليمن علىٰ الإثبات، لا لنفيه، بل لقصد توكيده توكيدًا مُشعِرًا بقوة المعنىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] يريد أن تسجد.

وكما قال الأحوص:

ويَلحينَنِي في اللَّهْوِ أن لا أُحِبَّه ... وللَّهْوِ داعٍ دَائِبٌ غَيرُ غافل[١]

يريد: وَيلحينني في اللهو أن أحبه، ومثله قول جرير:

ما كان يَرضَىٰ رسول الله فِعلهُمُ ... وَالطَّيِّبَان أبو بكرٍ ولا عُمرُ

الوظيفة الثانية: ليبين الاختلاف والاتفاق بين المغضوب عليهم والضالين:

فأما الاختلاف بين الجهتين فيدل عليه الإتيان بأداة نفيٍ مختلفةٍ لكل من الفريقين؛ وهذا من جواهر اللغة القرآنية؛ إذ يسير المغضوب عليهم في طريقهم عارفين بالإجرام الرهيب الذي يسببونه للعالم كحال إمامهم إبليس، أما الضالون فما أكثر من يحسب منهم أنه يحسن بإجرامه صنعًا، وما أكثر ما يعرضون عن الحق أمامهم ظانين أنهم علىٰ الصراط المستقيم، فلا يتوبون ولا هم يذكرون.

وأما الاتفاق فلأنه لو كان التعبير (غير المغضوب عليهم وغير الضالين) لتوهم السامع أن المغضوب عليهم والضالين أمتان لا تلتقيان، والأمر ليس كذلك، بل هما يلتقيان في أمور مشتركة كثيرة، بل يشتركان في كثيرٍ من الصفات، ولكن بقدرٍ مناسبٍ لكلٍّ منهما، فالمغضوب عليهم ضالون، والضالون مغضوب عليهم مع غلبة أحد الوصفين أحيانًا، وهما يلتقيان عند العمل الجماعي المشترك بينهما في محاولة زحزحة الـمُنعَم عليهم من دائرة الإنعام إلىٰ دائرة الغضب والضلالة.

مآسي العالم المعاصر سببها الخرافات التي تحكم عقول المغضوب عليهم والضالين:

أنزل الله الكتب، وفي مقدمتها القرآن والتوراة والإنجيل، لينظم حياة الناس،

(١) يلحينني: يلمنني.

ويزكي عقولهم وقلوبهم وحياتهم، وتحريف كلامه يؤدي إلىٰ تكوين نفسيات مريضة تبغي الحياة عوجًا، ثم يصبح بعضها قيادات للمغضوب عليهم وللضالين، فيتلاعبون بما أنزل الله في القرآن والتوراة والإنجيل وسائر الكتب، ويصنعون خرافات يفسدون بها الأرض والإنسان، وخذ مثال ذلك في قصة وردت في سفر التكوين توهم أن الحسد الباطل مشروع، وألا بأس بالاحتيال والخداع والكذب للحصول علىٰ البركات الإلهية:

«٢٧ : ١ وحدث لما شاخ إسحق، وكلت عيناه عن النظر أنه دعا عيسو ابنه الأكبر وقال له: يا ابني فقال له: هأنذا

٢٧ : ٢ فقال: إنني قد شخت ولست أعرف يوم وفاتي

٢٧ : ٣ فالآن خذ عدتك جعبتك وقوسك واخرج إلىٰ البرية وتصيد لي صيدًا

٢٧ : ٤ واصنع لي أطعمة كما أحب وأتني بها لآكل حتىٰ تباركك نفسي قبل أن أموت.

٢٧ : ٥ وكانت رفقة سامعة إذ تكلم إسحق مع عيسو ابنه، فذهب عيسو إلىٰ البرية كي يصطاد صيدًا ليأتي به

٢٧ : ٦ وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة: إني قد سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلًا.

٢٧ : ٧ ائتني بصيد واصنع لي أطعمة لآكل، وأباركك أمام الرب قبل وفاتي.

٢٧ : ٨ فالآن يا ابني اسمع لقولي في ما أنا آمرك به.

٢٧ : ٩ اذهب إلىٰ الغنم وخذ لي من هناك جديين جيدين من المعزىٰ فأصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب

٢٧: ١٠ فتحضرها إلىٰ أبيك ليأكل حتىٰ يباركك قبل وفاته.

٢٧: ١١ فقال يعقوب لرفقة أمه: هوذا عيسو أخي رجل أشعر، وأنا رجل أملس.

٢٧: ١٢ ربما يجسني أبي فأكون في عينيه كمتهاون، وأجلب علىٰ نفسي لعنةً لا بركةً.

٢٧: ١٣ فقالت له أمه: لعنتك علي يا ابني. اسمع لقولي فقط واذهب خذ لي.

٢٧: ١٤ فذهب وأخذ، وأحضر لأمه، فصنعت أمه أطعمة كما كان أبوه يحب.

٢٧: ١٥ وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التي كانت عندها في البيت، وألبست يعقوب ابنها الاصغر.

٢٧: ١٦ وألبست يديه وملاسة عنقه جلود جديي المعزىٰ.

٢٧: ١٧ وأعطت الأطعمة والخبز التي صنعت في يد يعقوب ابنها.

٢٧: ١٨ فدخل إلىٰ أبيه وقال: يا أبي. فقال: هأنذا. من أنت يا ابني؟

٢٧: ١٩ فقال يعقوب لأبيه: أنا عيسو بكرك، قد فعلت كما كلمتني، قم اجلس وكل من صيدي لكي تباركني نفسك.

٢٧: ٢٠ فقال إسحق لابنه: ما هذا الذي أسرعت لتجد يا ابني. فقال: إن الرب إلهك قد يسر لي.

٢٧: ٢١ فقال إسحق ليعقوب: تقدم لأجسك يا ابني، أأنت هو ابني عيسو أم لا؟

٢٧: ٢٢ فتقدم يعقوب إلىٰ إسحق أبيه فجسه، وقال: الصوت صوت يعقوب، ولكن اليدين يدا عيسو.

٢٧: ٢٣ ولم يعرفه لأن يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه فباركه.

٢٧: ٢٤ وقال: هل أنت هو ابني عيسو فقال: أنا هو.

٢٧: ٢٥ فقال: قدم لي لآكل من صيد ابني حتىٰ تباركك نفسي، فقدم له فأكل، وأحضر له خمرًا فشرب.

٢٧: ٢٦ فقال له إسحق أبوه: تقدم و قبلني يا ابني.

٢٧: ٢٧ فتقدم وقبله، فشم رائحة ثيابه، وباركه، وقال: انظر رائحة ابني كرائحة حقل قد باركه الرب.

٢٧: ٢٨ فليعطك الله من ندىٰ السماء، ومن دسم الأرض، وكثرة حنطة وخمر

٢٧: ٢٩ ليستعبد لك شعوب، وتسجد لك قبائل. كن سيدا لأخوتك، وليسجد لك بنو أمك، ليكن لاعنوك ملعونين، ومباركوك مباركين.

٢٧: ٣٠ وحدث عندما فرغ إسحق من بركة يعقوب، ويعقوب قد خرج من لدن إسحق أبيه، أن عيسو أخاه أتىٰ من صيده.

٢٧: ٣١ فصنع هو أيضًا أطعمةً، ودخل بها إلىٰ أبيه وقال لأبيه: ليقم أبي ويأكل من صيد ابنه حتىٰ تباركني نفسك.

٢٧: ٣٢ فقال له إسحق أبوه: من أنت؟ فقال: أنا ابنك بكرك عيسو.

٢٧: ٣٣ فارتعد إسحق ارتعادًا عظيمًا جدًا وقال: فمن هو الذي اصطاد صيدًا وأتىٰ به إلي فأكلت من الكل قبل أن تجيء، وباركته، نعم ويكون مباركًا.

٢٧: ٣٤ فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخةً عظيمةً ومرةً جدًا وقال لأبيه: باركني أنا أيضًا يا أبي.

٢٧: ٣٥ فقال: قد جاء أخوك بمكرٍ، وأخذ بركتك...

القصة أطول من ذلك، والاختلاق واضح فيها..

قارن هذا الكلام الغريب على مقام النبوة مع قوله -تعالى عزه- ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ [ص: ٤٥ -٤٧]، إلا أن النص التوراتي المفبرك يوضح -بجلاء- النفسياتِ المعاصرةَ لمتطرفي اليهود والنصارىٰ عندما يجمعون بين ما يظهرونه تدينًا، وبين شتىٰ صنوف الإجرام والطغيان، وتوضح لماذا استنزلوا الغضب الإلهي، كما تبين أسباب ما آلَ إليه العالم من مآسٍ في ظل الهيمنة القيادية لهم.

البصيرة الخامسة

﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ يبين الحلفاءَ والأعداء الإستراتيجيين للأمة المسلمة في الواقع العالمي

انظر لهذه الخطة القرآنية التي تفصلها الفاتحة في واقع الأمة الإسلامية!

لقد فصَّلَ الله -تعالىٰ جدُّه- في الآية السابعة (آية الصراط) التقسيمَ العالميَّ الحقيقيَّ لواقع الناس بعيدًا عن حدود التراب والجنس ليستبين للأمة خريطة حلفائها وأعدائها، **فأظهرت الآية أن العالم ينقسم إلىٰ ثَلَاث أمم:**

الأمة الأولىٰ: الـمُنعَم عليهم، وهم المشار إليهم بقوله ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾.. فهم يشكلون الأمة، ويجب عليهم أن يتحالفوا، ويعقدوا أواصر الأخوة والتناصر فيما بينهم، **وهم من الناحية الزمنية ينقسمون إلىٰ فئتين:**

الفئة الأولىٰ: الذين مضوا علىٰ الصراط المستقيم، وهم القيادات العظيمة الذين اخضرت بهم العدالة في الأرض فازدهرت وأزهرت.. إنهم من قال الله تعالىٰ عنهم وعن أمثالهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠].

الفئة الثانية: الذين يسيرون علىٰ منهج المتقدمين في صفاتهم وأفعالهم؛ فهم علىٰ آثار من سبقهم يسيرون، وبهداهم يهتدون، ويدخل فيهم اليهود والنصارىٰ الذين مدحهم الله بقوله ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، فهؤلاء هم الحلفاء الإستراتيجيون لإخوانهم من سائر الأمة الإسلامية، وعلىٰ هذا فالآية توضح -بجلاءٍ- من ينبغي أن يتم معهم التحالف والتعاضد والتناصر.. تبين من ينبغي أن نقيم معهم المعاهدات الإستراتيجية، ونُنَسق المصير المشترك.

أتعلم -أعزَّك الله- ماذا يعني مخالفة مبدأ التناصر مع مَن أنعم الله عليهم؟

إن ذلك يعني أننا هجرنا أهم المقاصد التي أقامت صرحها الفاتحة، وذلك يؤدي إلىٰ ترك أهم عوامل بقاء الإنعام الإلهي.. وماذا تتوقع عندما يسحب الإنعام الإلهي من الأمة؟ يضيع النجاح الفردي والفلاح الجماعي، وتكون النتيجة ما تراه اليوم مما (لست أذكره.. فقل خيرًا.. ولا تسأل عن الخبرِ).

الأمة الثانية: المغضوب عليهم، وبعضهم يمثل الصنف الأول من أعداء الأمة الإستراتيجيين، وبعضهم تائه يحتاج إلىٰ من يأخذ بيده إلىٰ الصواب.

الأمة الثالثة: الضَّالّونَ، وبعضهم يمثل الصنف الثاني من أعداء الأمة الإستراتيجيين، وبعضهم تائه يحتاج إلىٰ من يأخذ بيده إلىٰ الصواب.

وغالبًا ما يتم التنسيق والتحالف والتناصر بين المغضوب عليهم والضالين من خارج الأمة الإسلامية، ومن داخلها بغية تدمير الإسلام أو حصاره، وسترىٰ التصريح التام بالتحالف بين فرق المغضوب عليهم والضالين في قوله -جلَّ مجده-: ﴿ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [المائدة: ٥١]، وينضم إلىٰ هذا الحلف الدنس من ينتمي إلىٰ المغضوب عليهم والضالين من المنافقين الذين حذر الله الصف الإسلامي من ولائهم للمجرمين فقال: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩].

ومرجع هذه الفرق الثلاث إلىٰ أصول المعاصي الثلاث مقاومةً أو استجابةً، وأصول المعاصي الثلاث: الهوىٰ، والشهوة، والغضب، فالـمُنعَم عليهم جاهدوا هذه المعاصي وقاوموها، والمغضوب عليهم والضالون استجابوا وانقادوا لها.

وربما سألت الآن عن البصيرة القرآنية الفريدة التي أثارها تقديم ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ﴾ علىٰ ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ في قوله تعالىٰ ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾..

إنها المعجزة القرآنية! سترىٰ ملمحًا جديدًا من ملامح الإعجاز القرآني الفريد في بناء العقلية المسلمة:

فسبب هذا الترتيب بين فرق الأشقياء في قوله -عزَّ ذكره-: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ أنه قدَّم ذِكْرَ القياديِ علىٰ التابع، وأبرز الأسوأ علىٰ السيء؛ فإن الضال المغضوب عليه أسوأ من الضال الذي لم يصل إلىٰ درجة الغضب، إلا أن المغضوب عليهم غالبًا هم سادة الشر وقادته، أما الضالون فتائهون هائمون يقودهم المغضوب عليهم، وبعضهم يشعرون ولا يستطيعون التحرر بعد أن كبلتهم خطاياهم، وأوبقهم تواطؤهم علىٰ الإجرام، وبعضهم لا يشعرون، والواقع العالمي يشهد بصدق الآية وبينتها المعجزة؛ فإن محرفي اليهود من أبرز فئات المغضوب عليهم، وينقاد لإجرامهم الضالون من متطرفي النصارىٰ، والمنافقين، وبعض الذين في قلوبهم مرض من المسلمين، وإذا كان محرفو اليهود بمحافلهم السرية والعلنية يمثلون العقل المُدَبِّر؛ وتشاركهم جحافل من المنافقين؛ فإن الذي يمثل اليد الضاربة لهم هم حشود الضالين من النصارىٰ والوثنيين والمنافقين وفرق الإجرام الباطنية وغلاة المبتدعة، ويساندهم -بوعيٍ أو بغير وعيٍ- ضُلَّال المسلمين.. إنهم الذين يسعون في الأرض فسادًا.. فهل صحت فيهم مقولةٌ تنسب إلىٰ أحد قيادات الإفساد العالمي (الدكتور أوسكار ليفي) حين قال:(نحن اليهود لسنا إلا سادة العالم ومفسديه، ومحركي الفتن فيه وجلاديه)؟[1].. ألا إنه لا يكون محرفو اليهود سادةَ

(١) مقدمة كتاب بروتوكولات حكماء صهيون ترجمة محمد خليفة التونسي.

العالَم -وقد ضُربت عليهم الذِلة أينما ثُقفوا- إلا لأن حبل الله قد مُدَّ لهم، وسخر لهم حبل الناس ليبتليهم ويبتلي بهم الناس، وليتحقق فيهم الإعلان الإلهي: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء: ٧].

البصيرة السادسة

تقترن أفعال قيادات المغضوب عليهم والضالين بالوحشية

إنه الإسلام الذي جاء رحمةً للعالمين لا يذكر هذه الصفات المجرمة للمغضوب عليهم والضالين لأنهم عصوا الرحمن فقط، بل لأن هذا العصيان يؤدي إلىٰ الإجرام الممنهج علىٰ بني الإنسان، فقد ذكر الله أن المغضوب عليهم والضالين قومٌ ظهر منهم البغي فقال تعالىٰ: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠]، وبين الله أن بغيهم يربو وينمو ويفشو حتىٰ يصبح اعتداءً ممنهجًا مدمِرًا ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١]، فانتقلوا من مرحلة البغي إلىٰ مرحلة الاعتداء علىٰ الحقوق (حقوق الخالق وحقوق المخلوقين)، فانظر لترتيب جرائمهم التي أحلَّتْ عليهم غضب الله -تعالىٰ جدُّه-.. وتأمل فيها كيف جاءت وَفق تحليلٍ لنفسياتهم العفنة وأهوائهم المتقلبة:

فهم كفروا بآيات الله، وبادروا فقتلوا الأنبياء، وهم خيرة الخلق الذين يقيمون في البشرية العدل والحق، وأما سبب وصولهم إلىٰ هذا المستوىٰ من الإجرام فبينه الله في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ فذكر الله أنهم بدؤوا بعصيانه، واجترؤوا علىٰ العدوان علىٰ بعض الخلق، وإصرارهم علىٰ ذلك أوصلهم إلىٰ الكفر وقتل الأنبياء، فبدأ بذكر أبشع النتائج وعطف عليها الأساس الذي تساهلوا في فعله، فصارت قلوبهم شديدة السواد، لا نقاء فيها ولا صفاء، وهذا يولد القسوة المجرمة التي لا تبالي برؤية الأطفال وهم يقتلون أو يحرقون، ولا تحرك ساكنًا وهي ترىٰ مئات الآلاف

تباد.. إنها قسوة المغضوب عليهم والضالين الذين وصفهم الله بقوله: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤].. نعم يَجترئُ القلب القاسي علىٰ أسوأ أنواع الاعتداء علىٰ الأبرياء، ويجعل ذلك برنامجًا أساسيًا في حياته؛ بل يُكَرِّس حياته لذلك، فيصبح مسخًا كاذبًا لا حياة فيه.. لا ينقذ الأبرياء، ولا يدافع عن الضعفاء، وتكون الغاية عنده تبرر الوسيلة حلالًا أو حرامًا، ثم يتطور به الأمر فيقتل الرضع، ويحرق الأطفال، ويهتك الأعراض، ويدمر الأراضي. والأدهىٰ من ذلك أنه يستمتع بذلك كله، بل ربما جعلها مهمةً مقدسةً يقيم لها المؤسسات الأمنية والعلمية والاستشارية حتىٰ يصبح حال أصحابه كما قال الله -عزَّ وجل-: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨ - ٨٠].

الإعجاز في وصف مجرمي اليهود بأنهم مغضوب عليهم:

سبق ذكر الآيات القرآنية التي بين الله فيها إنزال غضبه علىٰ المعتدين من بني إسرائيل بسبب جرائمهم المتتابعة في حق أنفسهم وجرائمهم في حق العالم، والعجيب أننا نجد في (كتابهم المقدس) وصفًا دقيقًا لإنزال غضب الله علىٰ بني إسرائيل في مواضع كثيرة، فمنها:

في سفر العدد:

٢٥: ٣ وتعلق إسرائيل ببعل فغور، فحمي غضب الرب علىٰ إسرائيل

٢٥: ٤ فقال الرب لموسىٰ خذ جميع رؤوس الشعب، وعلقهم للرب مقابل الشمس، فيرتد حمو غضب الرب عن إسرائيل

وفي سفر العدد أيضًا:

٣٢: ١٠ فحمي غضب الرب في ذلك اليوم وأقسم قائلا:

٣٢: ١١ لن يرىٰ الناس الذين صعدوا من مصر من ابن عشرين سنة فصاعدًا الأرض التي أقسمت لإبراهيم وإسحق ويعقوب؛ لأنهم لم يتبعوني تمامًا.

٣٢: ١٢ ما عدا كالب بن يفنة القنزي ويشوع بن نون؛ لأنهما اتبعا الرب تمامًا

٣٢: ١٣ فحمي غضب الرب علىٰ إسرائيل وأتاههم في البرية أربعين سنة، حتىٰ فني كل الجيل الذي فعل الشر في عيني الرب

وفي سفر القضاة:

١٠: ٦ وعاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني الرب، وعبدوا البعليم، والعشتاروث، وآلهة آرام، وآلهة صيدون، وآلهة مواب، وآلهة بني عمون، وآلهة الفلسطينيين، وتركوا الرب ولم يعبدوه

١٠: ٧ فحمي غضب الرب علىٰ إسرائيل، وباعهم بيد الفلسطينيين وبيد بني عمون.

وبعد هذا النقل ينبغي أن نقرر حقيقةً لا تخطئها العين في التوراة الحالية؛ إذ نجد غضب الرب علىٰ بني إسرائيل قد تكرر كثيرًا في التوراة الحالية، حتىٰ تتعجب من عدد الجرائم الجماعية التي يقوم بها الإسرائيليون، وترىٰ من خلالها تلك النفسيات المريضة المتمردة التي لا هم لها إلا استجلاب غضب الله، وهي ذاتها التي تتباهىٰ بإنشاء المؤسسات الإجرامية التي تفسد في الأرض، وتسفك الدماء.

الإعجاز في وصف التائهين من النصارىٰ بالضالين (دعوةٌ مشفقة للنصارىٰ لتصحيح المسار):

حقًّا إن القرآن الكريم تنزيلٌ معجزٌ من حكيمٍ حميدٍ؛ إذ لا يمكن أن يُدْرِكَ حكمة هذا الوصف ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ الملصق بالنصارىٰ قبل غيرهم إلا من كان له اطلاعٌ واسعٌ، ومعرفةٌ دقيقةٌ بتاريخ نشوء المسيحية، وتطورها في عهدها الأول، وانحرافها عما بناه لها مؤسسها المسيح -عليه الصلاة والسلام-، فقد جاء المسيح بمعالم واضحة تؤسس لدين قيم يتبع ملة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، ويجدد شريعة موسىٰ -عليه الصلاة والسلام- حيث قال الله حاكيًا عنه: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٥٠ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥٠، ٥١].

وكذا ورد في الإنجيل الموجود الآن حيث جاء في إنجيل متىٰ ٥: ١٧:

(لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس، أو الأنبياء، ما جئت لأنقض، بل لأكمل).

وما هو إلا زمنٌ يسير حتىٰ ضل كثيرٌ من أتباع المسيح عن سواء السبيل، واتبعوا ملة بولس وسموه الرسول، ووضعوا له في الكتاب المقدس أربع عشرة رسالة، ولنأخذ علىٰ ذلك شهادة العالم المسيحيِّ Ernest de Bunsen: «إن العقيدة والنظام الديني الذي جاء في الإنجيل ليس الذي دعا إليه السيد المسيح بقوله وعمله. إن مرد النزاع القائم بين المسيحيين اليوم وبين اليهود والمسلمين ليس إلىٰ المسيح، بل إلىٰ دهاء بولس Paul ذلك المارق اليهوديِّ والمسيحيِّ، وشرحه للصحف المقدسة علىٰ طريقة التجسيم والتمثيل»[(١)].

يا حسرةً عليهم! لقد اخترع هؤلاء الضالون عقيدةً خرافيةً امتزجت فيها ظلام الأساطير اليونانية الوثنية وخرافاتها بنور التوحيد الذي جاء به المسيح -عليه الصلاة

---

(1) Islam or True Chistianity P128

بواسطة مقدمة أبي الحسن الندوي -رحمه الله تعالىٰ- لكتاب العلامة محمد تقي العثماني: ما هي النصرانية، وتذكر للعالم المذكور آراء عنصرية متعصبة لا تعنينا؛ إنما يعنينا شهادته علىٰ عقيدة بني قومه.

والسلام-؛ فأنتج عقيدةً ذات صورة مروعةٍ مخيفةٍ بنتها علىٰ أفكارٍ رهيبةٍ، كفكرة الخطيئة الأصلية، ورتبت عليها صكوك الغفران، والتلاعب الضخم بالإنسان (المسيحيِّ) الذي يريد التدين، ولكنه يريد في الوقت ذاته أن يحطم العالم بنزواته وشهواته وتحكمه وسيطرته، فيفعل في البشرية ما شاء، ويكفيه الاصطفاء الكنسي الذي أعطىٰ لأرباب الكنيسة سلطة إلهية شركية زعموا فيها: «أن النخوة الإنسانية خلقت قوة الملوك، وأن رحمةَ الله خلقت القديسين»(١). وانظر المآسي العالمية كيف تنبع بإشراف تحكم (رؤوس الضالين) في أعلىٰ هيئةٍ أممية.

انظر بعينيك في عالم الواقع المعاصر البائس الذي خلقته سيطرة المغضوب عليهم والضالين لترىٰ كيف بلغ الضلالُ (المسيحيُّ) مداه بقبول الكنائسِ التحريفَ الدائمَ للكتابِ المقدَّس مما جعل أذكياء النصارىٰ لا يستطيعون صبرًا علىٰ هذا التحريف المتجدد؛ فقد كتب إسحاق نيوتن رسالته (وصف تاريخي لتحريفين مهمين للكتاب المقدس)، وبالإنكليزية An Historical Account of Two Notable Corruptions of Scripture)، وطبعت بعد موته ب ٢٧ سنة، وأهم التحريفين المذكورين هو التحريف الذي أريد منه تثبيت بدعة التثليث الكفرية، حيث وجد في نسخة الملك جيمس في يوحنا ٥: ٧ «فإنَّ هنالك ثلاثة شهودٍ في السَّماء، الآب والكلمة والرُّوح القدس، وهؤلاء الثَّلاثة هم واحدٌ».

كشف نيوتن هذا التحريف الخبيث بالرجوع إلىٰ المخطوطات اليونانية واللاتينية الأصلية حيث لم توجد هذه الفقرة، وبين أن «النسخ الأثيوبية والسريانية والعربية والأرمنية والسلافية التي ما زالت تستعمل في عدةِ أممٍ شرقيةٍ -أثيوبيا، ومصر،

(١) وانظر: الفتنة الدجالية ص٥٦، وما بعدها، ومعلوم أن الوصف اللائق بأتباع عيسىٰ -عليه الصلاة والسلام- إنما هو (النصارىٰ) وليس المسيحيين، ولكن هذا واحد من التحريفات الكثيرة التي أعيد بها صناعة الديانة التي جاء بها عيسىٰ -عليه الصلاة والسلام-.

وسوريا، والعراق، وأرمينيا، وموسكو، وغيرها- لا تعرف هذه القراءة»، وأوضح أن الكاردينال غونزالو سيسنيروز أول من وضعها في النص اليوناني سنة ١٥١٥م[١].

فلماذا لا يكشف أرباب كبار القسيسين عن مثل ذلك أمام الرأي العام (المسيحيِّ)؟!

هناك اختراقٌ أخطر حققه من ينتمي إلىٰ فئة (المغضوب عليهم) من الصهاينة الذين يسعون في الأرض فسادًا، أو سيق إليهم علىٰ طبقٍ من ذهبٍ يزيدك وعيًا بسبب وصف المنحرفين من النصارىٰ بالضلالة، ففي عام ١٥٢٣م أصدر مارتن لوثر مؤسس الفرقة البروتستانتية المسيحية كتاب (المسيح ولد يهوديًا) ليؤسس عقيدةً رهيبةً تجعل كل الأحداث العالمية رهنًا لخرافاتٍ يهوديةٍ متعصبة، ويتم بها التلاعب بالعقلية النصرانية للأسف الشديد؛ فقد كان من ضمن المفاهيم الجديدة التي أكدها لتكون أهم همٍّ مسيحي (رجوع المسيح)، وهي عقيدةٌ يتفق عليها المسلمون والنصارىٰ، ولكن شرط المجيء الثاني له -حسب التصور المسيحي الجديد- إقامة دولة لليهود في فلسطين، وكل من يساعد علىٰ ذلك يكون له نصيب في ملكوت الرب، وكل من يعرقله يبوء بغضبه، وصارت هذه الفكرة المركزية أهم أساس للسياسة الغربية البروتستانتية في بريطانيا والولايات المتحدة، ثم تبعها علىٰ عمىٰ الدول الكاثوليكية، وكلهم يتكلم عن حمل شرف إعادة إسرائيل إلىٰ أرض أجدادهم، لأن وجودهم هناك هو الذي سيمهد للمجيء الثاني للرب المسيح، وأكد بنيامين نتنياهو عندما كان مندوبًا لإسرائيل في الأمم المتحدة أن هذه العقيدة -الضلالة الكبرىٰ- هو المحور الذي أدار عقل أبرز قيادات المسيحية المعاصرة: كاثوليك وبروتستانت ثم أرثوذكس

(١) انظر: (An Historical Account of Two Notable Corruptions of Scripture)، والكتاب صغير الحجم مصور علىٰ الشبكة الالكترونية باللغة الإنجليزية وفق طبعته القديمة، وربما الوحيدة.

حيث قال: «إن كتابات المسيحيين الصهيونيين من الإنكليز والأمريكان أثرت بصورة مباشرة علىٰ تفكير قادة تاريخيين، مثل لويد جورج، وآرثر بلفور، وودرو ولسون، في مطلع هذا القرن. إن حلم اللقاء العظيم أضاء شعلة هؤلاء الرجال، الذين لعبوا دورًا رئيسيًا في إرساء القواعد السياسية والدولية لإحياء الدولة اليهودية»، ولقبهم بـ«المسيحيين الصهيونيين»، واستمر الأمر علىٰ اعتماد سياسة مركزية القضية الصهيونية في الاعتقاد المسيحي الضال حتىٰ اعتنق تلك القضية رؤساء أمريكيون، ومنهم «ريغان» و«البوشان» الكبير ثم الصغير، ومن قبلهم أصدر الرئيس ترومان بيانًا طالب فيه بإدخال مئة ألف يهودي فورًا إلىٰ فلسطين، وكان له دور مشهود بجانب اليهود في حرب ١٩٤٨م الذي قال عن نفسه: «إنني كورش.. إنني كورش» إشارة إلىٰ مقارنته نفسه بالزعيم الفارسي الذي أعاد اليهود إلىٰ فلسطين بعد التدمير الأول الذي حدث لدولتهم..وهكذا أدارت الصهيونية المعاصرة العقلية المسيحية الضالة حول هذه الفكرة الرهيبة: وجود إسرائيل تحقيق للنبوءات التوارتية، وهو تسريع لعودة المسيح، والعالم يقترب من نهايته من خلال معركة هرمجدون التي سيموت فيها الملايين!!![(١)]. تخيل هذا الضلالات التي سببت الشقاء العالمي هي التي يدير المغضوب عليهم والضالون سياستهم المعاصرة عليها.

كم يشعر المرء بالأسىٰ علىٰ العقليات النصرانية (المسيحية)! فهي تهرب من ضلالةٍ لتقع في ضلالة أكبر.. هربت من ضلالة البابوية المنحرفة لتتمحور حول الضلالة الصهيونية! انظر إليهم يضيفون علىٰ الضلالات البولسية الضلالات اللوثرية! مالهم يجعلون حياتهم الفكرية والدينية تتمحور حول (البولسية) في القديم و(اللوثرية) في القريب، ليصنعوا لهم ديانةً مزيفةً ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا۟

(١) يراجع كتاب النبوءة والسياسية لجريس هالسيل، فقد تحدثت عن ذلك تفصيلاً، وقد عملت فترة في المكتب البيضاوي، فحديثها يتسم بالرصد الواقعي.

يَفۡتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٤].. كم سببت قيادات الضالين من إفسادٍ عالمي لأقوامهم ثم للعالم من بعدهم ﴿ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٤ - ٥٦]

وإذا كان المعتدون من اليهود والنصارىٰ يشكلون قيادات الفرق المغضوب عليها والضالة، فإن من يتولاهم من المنافقين والذين في قلوبهم مرض يأخذون الحكم ذاته، وهم يشتدون في الاعتداء علىٰ غيرهم من العالم خاصة علىٰ أهل الإسلام لإثبات الولاء الشيطاني، ويبالغون في ذلك ليصلوا حدًّا لا يُعْهَد من المعتدين من أهل الكتاب، وهذا نجده واضحًا في الفرق الخائنة والمجرمة عبر التاريخ؛ إذ هدموا من المساجد، وأحرقوا من الأطفال، وهتكوا من الأعراض، وقتلوا من الرجال أضعاف ما يذكر عن أسيادهم ﴿ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ۝١٧٤ وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ﴾ [الصافات: ١٧٤، ١٧٥].

البصيرة السابعة

التناقض بين الأقوال والأعمال ينافي مبدأ الاستقامة في ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾

يظهر بناء التربية القرآنية لهذه البصيرة في النفس المسلمة بصورةٍ مدهشةٍ في الإعجاز البياني الواضح من عدم إضافة الصراط للمغضوب عليهم والضالين:

ففي قوله تعالىٰ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ نسجل ملاحظةً واضحة أن الله بين أن للمنعم عليهم صراطًا مستقيمًا هو الصراط الذي تكمن طموحات السعداء في سلوكه، لكن البيان القرآني ذكر المغضوب عليهم والضالين دون أن يذكر لهم صراطًا ولا طريقًا، وذلك لتوضيح أمورٍ خطيرة تكشف نفسيات فرق المغضوب عليهم وفرق الضلالة:

الأمر الأول: أنه لا يوجد صراطٌ تسير عليه هذه الفرق المجرمة المستكبرة، بل هي تعبد أهواءها وذواتها ومصالحها المتغيرة حسب أمزجتها، والله يفضح هذه النفسيات فيقول عنها: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وهذا التصوير لنفسياتهم يوضح لنا تغير أمزجتهم وتحريفهم الدائم لكتب ربهم.

الأمر الثاني: أن الذي تسير عليه هذه الفرق المجرمة يأخذ طابع التناقض بين الأقوال والأفعال، بين النظريات والممارسات.. إنه يأخذ طابع المخالفة الدائمة للصراط المستقيم مهما كانت هيئة المخالفة؛ فإذا كان الصراط المستقيم يقتضي العفة والطهارة والزواج؛ فإن المغضوب عليهم والضالين يعملون علىٰ إشاعة الفاحشة والعلاقات الجنسية خارج الزواج، ويسخرون المؤسسات الدولية لذلك.. ألا ترىٰ جهودهم المعاصرة المتباهية في ذلك؟! وهكذا في الأمور المالية والسياسية،

والله تعالىٰ يوضح هذه الطبيعة المنتكسة المقلوبة لعقل المغضوب عليهم والضالين في تصويرٍ بليغٍ فيقول: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الملك: ٢٢].. هم يمشون في الحياة.. لكن.. أتراهم في سيرهم يمشون علىٰ الصراط المستقيم؟ كلا! بل يريدون مخالفة أصحاب الصراط المستقيم حتىٰ لو اقتضىٰ الأمر أن يسيروا مكبين علىٰ وجوههم.. ولنا أن نتساءل بعد هذا: كيف يحاول بعض من ينتمي إلىٰ الصراط المستقيم أن يلتمسوا الحلول لقضايا المستضعفين، أو لنصرة المظلومين، أو لإحلال العدل العالمي عند المغضوب عليهم والضالين؟.

الأمر الثالث: إن وجد لهم طريقٌ يسيرون عليه فهو ليس بطريقٍ حقيقيٍّ لأنه معوج، ولذا أرادوا إدارة الحياة وفق فهمهم المعوج الشديد التغير.. ها هنا تعلم أن الله لم يذكر طريقًا للمغضوب عليهم والضالين لأنهم قد قسموا أنفسهم إلىٰ مجموعات إجرامية قذرة لتصيير الحياة المستقيمة معوجة في كل قضية، وانظر إلىٰ التفصيل المدهش لذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ [الأعراف: ٨٦]، فهم ينشئون مجموعات لتحريف النظم العبادية الشعائرية والمعاملاتية، ويؤسسون جمعياتٍ سياسيةً ليجعلوا القضايا العادلة دائمة الاعوجاج، وينشئون مجموعات ثقافية لإيجاد الاعوجاج في القضايا الثقافية.. وهكذا..

هل رأيت دقة التعبير القرآني هاهنا؟

هل لاحظت كيف ترسم لنا الفاتحة المباركة الخريطة الإنسانية في جانبها المظلم الممثل في فرق المغضوب عليهم والفرق الضالة؟.

البَصِيرَةُ الثَّامِنَةُ

آيتا الصراط تمثلان دستورًا كاملًا للمعرفة العليا والعمل الأقوم

الآن تعال إلىٰ ملمحٍ جديدٍ ترسمها لنا الفاتحة المباركة ضمن خطتها في بناء الحياة وفق معاني كلماتها ونظمها المدهش الرائع، فهاتان الآيتان ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ تبنيان المجتمع والطبيعة بالخبرات الضخمة، والخصال الخيرة الرفيعة، وتدلان علىٰ أن بناء النَّفس الإنسانيَّة إنما يتم بالمعرفة المبصرة، والممارسة الصادقة **وفق درجتين:**

الدرجة الأولىٰ: أن يحاول تحصيلهما بالفكر والنَّظر والاستدلال، والاستهداء لأقوم الأمور، ويدل عليه قوله ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾.

الدرجة الثانية: أن تصل إليه خبرات المتقدِّمين، فتستكمل نفسه صفاتها الرائعة اقتداءً بالصالحات والإيجابيات، وتركًا للقبائح والسلبيات. وخبرات المتقدمين **تنقسم إلىٰ ثلاث مجموعات:**

المجموعة الأولىٰ: الخبرات التي يجدها المرء من أَنْوَارِ الصالحين وهم نُـخَب المجتمعات وصفوتهم، ويمثلون الطَّائفة المحقَّة الَّتي جمعت بين العقائد الصَّحيحة والأعمال الصَّائبة، ويدل عليه قوله: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾.

المجموعة الثانية: الخبرات التي يجتنبها مما وجده من ظلمات المجرمين الَّذين أخلُّوا بالأعمال الصَّحيحة ابتداءً، ثم حرفوا لأجلها العقائد والتَّصَوُّرات الصحيحة، وهم المغضوبُ عليهم.

المجموعة الثالثة: الخبرات التي يجتنبها مما وجده من ظلمات المجرمين الذين أخلُّوا بالعقائد الصَّحيحة ابتداءً، ثم أوجدوا لأجلها أعمالًا باطلةً مبنيةً علىٰ باطلٍ، وهم الضالون.. ستجدهم يحاولون أن يظهروا صحة أعمالهم ببعض التزيين، والعقلاء يعرفون كذبهم.

ونلاحظ هنا الفضل الإلهي الغامر؛ إذ نسب الله الإنعام إليه في حالة السعداء فقال: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ لبيان أن الخير كله بيده، وهو يفيضه علىٰ عباده، فهو الذي هدانا فدلنا علىٰ الصراط المستقيم، ثم هدانا فوفقنا للسير فيه، ولولا فضل الله علينا ورحمته لَكُنَّا من المغضوب عليهم أو من الضالين.. ولتثبيت ذلك في حنايا نفوسنا، وأفكار عقولنا علمنا النبي ﷺ اللجوء إلىٰ الله في كل جزئيةٍ من جزئيات الحياة، فعن علي بن أبي طالب أحد عظماء الدنيا من خريجي بيت النبوة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان من دعاء النبي ﷺ في استفتاح الصلاة: «اللَّهمَّ أنت الملك لا إله إلَّا أنت. أنت ربِّي وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعًا، إنَّه لا يغفر الذُّنوب إلَّا أنت. واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلَّا أنت، واصرف عنِّي سيِّئَها، لا يصرف عنِّي سيِّئها إلَّا أنت. لبَّيك وسعديك، والخير كلُّه في يديك، والشَّرُّ ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركتَ وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك»[(١)]. ونسبة الإنعام إليه لتعليمك كيف تطلب الفلاح، فتعتاد -أيدك الله- نسبة التوفيق في الإنجاز الفردي والجماعي إلىٰ إنعام المنعم سبحانه، فلولا فضله لما كان توفيق ولا نجاح، وقد نقل ابن تيمية عن سهل بن عبد الله التُّستَري -رحمهم الله- قال: إذا عمل العبد حسنة وقال: يا رب.. أنت -بفضلك- استعملتَ، وأنت أعنتَ، وأنت سَهَّلتَ. شكر الله تعالىٰ له ذلك، وقال له: يا عبدي.. بل أنت أطعتَ،

(١) مسلم (٢/ ١٨٥).

وأنت تقربتَ. وإذا نظر إلىٰ نفسه وقال: أنا عملتُ، وأنا أطعتُ، وأنا تقربتُ. أعرض الله تعالىٰ عنه، وقال: يا عبدي.. أنا وفقتُ، وأنا أعنتُ، وأنا سَهَّلتُ. وإذا عمل سيئةً وقال: يا رب.. أنت قَدَّرتَ، وأنت قضيتَ، وأنت حكمتَ. غضب المولىٰ عليه، وقال له: يا عبدي.. بل أنت أسأتَ، وأنت جهلتَ، وأنت عصيتَ. وإذا قال: يا رب.. أنا ظلمتُ، وأنا أسأتُ، وأنا جهلتُ. أقبل المولىٰ عليه وقال: يا عبدي.. أنا قضيتُ، وأنا قَدَّرتُ، وقد غفرتُ، وحلمتُ، وسترتُ[(١)].

وفي المقابل جعل الله الغضب مبنيًّا لما لم يُسَم فاعله فقال: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ لأن الله لا يرضىٰ لعباده الكفر، ولا المعاصي مما يسبب الغضب.

ومع أن الله -جلَّ في علاه- نسب الإضلال الجزائي إليه في مواضع أخرىٰ كقوله تعالىٰ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، إلا أنه هنا نسب الضلالة إلىٰ أصحابها في (الفاتحة) التي تقدم البصائر الكلية الإسلامية فقال: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ لأنها اختيارهم، فأصرُّوا علىٰ سلوك طريق الضلالة، ونبذ العلم، والسير علىٰ جهالة..

وسبب عدم نسبة الغضب، وعدم نسبة الإضلال إليه سبحانه: ما يُحدِثه ذلك من ترغيب هؤلاء الشاردين عنه، عسىٰ أن يرجعوا إلىٰ الطريق الصحيح، حيث أشار إلىٰ ذلك بجعل الغضب عليهم دون نسبةٍ إليه، فكأنه غضبٌ جزائيٌ طارئٌ يمكن إزالته بإزالة سببه، ومثله الضلالة فهم الذين ضلوا، ولو رجعوا إليه لهداهم سواء السبيل ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٧١].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ ٢/ ٣٢٨، وكلام سهل -رحمه الله- افتراضيٌ نابع من نظره في الأدلة والأحاديث الصحيحة، وليس دليلًا بذاته.

فنسأل الله تعالىٰ أن يمدنا بفضله، ورحمته، وكرمه، وإحسانه بالإنعام، والإكرام، ويحمينا بالفاتحة تلاوةً، وفكرًا، وعملًا من طريق المعتدين من المغضوب عليهم والضالين الظُّلَّام، لكي لا نكون جزءًا من برامجهم، ولا نصنع صنيعهم، ولا نوافقهم علىٰ طريق المعاصي والإجرام.

وخلاصة ذلك أن هناك أمران: علم وعمل أو رؤية وإرادة أو بصيرة وسلوك؛ فمن علم وعمل فأولئك المنعم عليهم، ومن علم وعاند العمل أو عاداه فقد نَسَّب نفسه إلىٰ المغضوب عليهم، ومن أتبع هواه -الذي قد يسميه دينًا- بغير علم فأولئك هم الضالون.. يصدق ذلك علىٰ من انتسب إلىٰ جميع الأمم، ومنهم المسلمون واليهود والنصارىٰ.. فـ ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴾ [النساء: ١٢٣].

المقصد العاشر

مبدأ الأمة الواحدة هو وسيلة أصحاب الصراط
المستقيم لتحقيق النصر الجماعي، والحماية
لأفراد الأمة، ونستنبط هذا من التعبير الجماعي
المميز في قوله ﴿نَعۡبُدُ، نَسۡتَعِينُ ، ٱهۡدِنَا﴾

فهذا مقصدٌ تعريفيّ بوسيلة فوز أصحاب الصراط المستقيم، فبعد المقاصد السابقة لا بد أن يأخذك التفكير، وتستولي عليك الإثارة العلمية.. فقد لاحظت أن تلك المقاصد ببصائرها وتفاصيلها ترسم حياة المجد لمن يستقيم عليها، والسؤال الأهم يظل قائمًا: كيف السبيل لتحقيق خطة الحياة المسلمة علىٰ الوجه الأمثل؟ وما الوسيلة لمنع اعتداءات المغضوب عليهم والضالين الذين يبغون الحياة عوجًا علىٰ الصالحين الذين يريدون أن يستقيموا علىٰ الطريقة السوية؟..

أراد ربُّك -جلَّ وعزَّ- ألا تخلو الفاتحة المباركة من بيان أن أعظم وسائل النصر والحماية من كيد الشيطان وأوليائه من المغضوب عليهم والضالين هو تطبيق مبدأ (الأمة الواحدة).. إنها الكيفية الوحيدة التي تكفل لأصحاب الصراط المستقيم أن يتفوقوا في إقامته، وينجحوا في الحفاظ علىٰ كيانهم في ظل هدايته.. وذلك يتم عبر بناء النفس المسلمة علىٰ هذا المبدأ الأساسي لنشر رسالة الرحمة العالمية (مبدأ الأمة الواحدة) لتحقيق النصر الجماعي، فلا يتَصَوَّرُ المسلم أنه بمفرده يمكن أن يحقق النشر العالمي لمبادئ رسالة الرحمة العالمية، ونستنبط هذا المقصد من موضعين في (الفاتحة) المباركة:

الموضع الأول: التعبير بالصيغة الجماعية في ثلاث كلماتٍ في (الفاتحة) المباركة هي ﴿نَعۡبُدُ، نَسۡتَعِينُ، ٱهۡدِنَا﴾ الواردة في قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.

الموضع الثاني: من التقسيم الثلاثي للعالم في قوله تعالىٰ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وسنفصل ذلك في البصائر الآتية:

المقصد العاشر: مبدأ (الأمة الواحدة) هو وسيلة أصحاب الصراط المستقيم لتحقيق النصر الجماعي، والحماية لأفراد الأمة، ونستنبط هذا من التعبير الجماعي المميز في قوله ﴿نعبد، نستعين، اهدنا﴾

البصيرة الأولى

مبدأ (الأمة الواحدة) يمثل سلاح البناء الحقيقي والردع الوقائي للمعتدين

البصيرة الثانية

أهم آثار التقسيم الإلهي الثلاثي للعالم: الوحدة الزمانية والمكانية بين أصحاب الصراط المستقيم

البصيرة الثالثة

فقه التعايش ملازم لفقه الحذر والتحذير من المغضوب عليهم والضالين

البصيرة الأولى

مبدأ (الأمة الواحدة) يمثل سلاح البناء الحقيقي والردع الوقائي للمعتدين

قل لي -أيدك الله- ماذا تجد في التعبير بالصيغة الجماعية في هذه الكلمات الثلاث في (الفاتحة) المباركة «نعبد، نستعين، اهدنا»؟.

كلها وردت بنون الجماعة مع أن القارئ واحد، وكلها أفعال تدل علىٰ الجهد المقدم من قارئها. ألا يبرز عندك السؤالُ المهيِّجُ للأفكار: لماذا وردت هذه الأفعال بنون الجماعة مع أن القارئ واحد؟

الجواب واضحٌ: إنه غرس مبدأ الوحدة الإيمانية شعوريًا ونفسيًا، والآن استحضر صورة المصلي -أيّدك الله- وهو يقول: (نعبد، نستعين، اهدنا) هكذا بنون الجماعة، ولا تصح الفاتحة منه إلا كذلك.. لترىٰ أنه عندما يفعل ذلك فإنه ينطق باسم الجماعة.. تخيل ذلك! كل فردٍ ينطق باسم الجماعة مما يمثل سلاح ردعٍ وقائيًّا لحماية الأمة ذات المصالح المشتركة المتعددة، فما بال كثيرٍ من المسلمين الآن يقرؤون (الفاتحة) ولكنهم يسارعون في خصومة إخوانهم ومُوادَّة أعدائهم؟.

ثم انظر -بعد ذلك- إلىٰ تلك الآيات المباركات التي يحويها القرآن المجيد، وتأمل بين يديك في النصوص النبوية، والأحكام التشريعية المستنبطة منها، وقلِّب فيها لترىٰ بناءَ الحسِّ الجماعيِّ جزءًا أساسيًا من النظام العباديِّ الإسلاميِّ؛ فالصلاة ينبغي أن تكون في جماعة، وكلما كثرت الجماعة كان أحب إلىٰ الله تعالىٰ، فانظر أثر ذلك في بناء النبي ﷺ لنفسيات الأمة المنقذة للعالم حتىٰ قال: «وإن صلاة الرجل مع الرجل أزكىٰ من صلاته وحده، وصلاته مع الرجلين أزكىٰ من صلاته مع الرجل، وما

كثر فهو أحب إلىٰ الله –عز وجل–»[(١)].

وهل الزكاة إلا أحد أهم أركان النظام العبادي الاجتماعي الإسلامي؟ وهل المقصود منه إلا تغطية الاحتياجات الضرورية والحاجية لسائر المسلمين؟

والحجُّ.. ألا ترىٰ أنه عبادةٌ جماعيةٌ تتدرب فيها قطاعاتٌ واسعةٌ من الأمة الإسلامية علىٰ العمل المشترك مع حفظ الأخلاق الجماعية، والمودة البينية ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٩٧] ونقِّب في أتمِّ العبادات أجرًا خارج الصلاة –فيما عدا الفرائض العينية– لتجد أن الأتم أجرًا ما تعلق بصالح الجماعة، أي: ما كان نَفْعُه متعديًا.

ألا يأخذك الإعجاب بهذا النظام القرآني الفريد؟ إنك ترىٰ عَظَمَة بناء النفس الإنسانية في التربية القرآنية وتلمس كيف تُضعِفُ التربية القرآنية النفسَ الفردية التي قد تحمل معنىٰ الأنانية والذاتية والمصالح الشخصية؛ وتبني الشعور بالجماعة، وما يستلزمه ذلك من محبةٍ وتضحياتٍ وصبر، وفي قول الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، يجمع الله بين توحيد الكلمة من خلال الجامعة التي تجمع أمة الإسلام، وكلمة التوحيد بعبادة رب الأنام، ولذا قيل: ادعوا الله بألسنةٍ لم تعصوا الله بها بأن يدعو بعضكم لبعضٍ، لأنَّك ما عصيت الله بلسان أخيك، وهو ما عصىٰ الله بلسانك.

وكما تتكرر (الفاتحة) في قراءة المصلين؛ يتكرر قول المصلي في التشهد: «**السلام علينا وعلىٰ عباد الله الصالحين**»، لأهدافٍ رائعةٍ، منها هذا البناء للحس الجماعي.

---

(١) أبو داود(١ / ٢٠٧)، أحمده/ ١٤٠، وفي نصب الراية (٢ / ٢٤): "قَالَ النَّوَوِيُّ فِي "الْخُلَاصَةِ": إسْنَادُهُ صَحِيحٌ، إلَّا أَنَّ ابْنَ بَصِيرٍ سَكَتُوا عَنْهُ".

والنون أبلغ في الثَّناء من (أَعْبُدَ وَأَسْتَعِينَ) لا من حيث تعظيم المرء نفسه، بل من حيث تعدد من يثني علىٰ الله -تعالىٰ ذكره-، لِئَلَّا تخلو المناجاة عن ثناءٍ أيضًا بأنَّ المحمود المعبود المستعان به قد شهد له الجماعات وعرفوا فضله، وآمنوا بعظمته(١)، واستقاموا في صفٍّ واحدٍ علىٰ طاعته، والتأمتْ قلوبهم علىٰ محبته.

ذلك كان شعاعًا من خبر بناء الحس الجماعي في النفسية المسلمة من خلال النظام العبادي الشعائري، أما النظام العبادي المعاملاتي بمجالاته: الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية فكلُّه تفصيلاتٌ تنظيمية لمبادئ الأمة الواحدة من السوق الاقتصادية المشتركة، إلىٰ التحالفات السياسية، إلىٰ الجيوش العسكرية الموحدة.. والآن تعال إلىٰ التطبيق النبوي الفريد لترىٰ أن الحس الجماعي الذي تبنيه آيات الفاتحة قد بناه النبي ﷺ في الواقع الحضاري للمسلمين عندما أسس لهم دولةً مستقلةً، وجعل من أهم المواد الدستورية فيها: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم، يسعىٰ بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد علىٰ من سواهم، يَرُدُّ مُشِدُّهم علىٰ مُضْعِفِهم، ومُتَسَرِّيهم علىٰ قاعدهم**»(٢).

وبناءً علىٰ هذا الحس الجماعي الذي ترسم خطاه الأساسية (الفاتحة) المباركة

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٨٦).

(٢) أبو داود (٢ / ٨٩)، وفي غريب الحديث للخطابي (١/ ٥٥٣) بيان للكلمات: فمعنىٰ: (يسعىٰ بذمتهم أدناهم) أي: يسعىٰ بأمانهم، ومعنىٰ: (يرد مشدهم) يريد: أن القوي يشارك الضعيف فيما يغنمه، ومعنىٰ: (ومُتَسَرِّيهم عَلَىٰ قاعدهم): أن الخارج في السَّرية يَرُدُّ عَلَىٰ القاعد ما يُصيبه منِ الغنيمة، وهذا في السَّريّة يبعثُهم الإمامُ وهو خارجٌ إلىٰ بلاد العدو فإذا غَنِموا شيْئًا كَانَ ذَلِكَ بَيْنَهُمْ وبين أهلِ العَسكْر عامةً؛ لأنهم رِدء لهم.

نظر عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ الأمة علىٰ أنها كتلة واحدةٌ زمانا ومكانًا، فقعَّد للقوة الاقتصادية والحركة الاستثمارية فيها بما لا يؤدي إلىٰ التفاوت المالي الضخم بين أفرادها، وقال: (أما والَّذي نفسي بيده لولا أن أترك آخر النَّاس ببَّانًا -أي: فقراء- ليس لهم شيءٌ ما فُتحت عليَّ قريةٌ إلَّا قسمتها كما قسم النَّبيُّ ﷺ خيبر، ولكِنِّي أتركها خزانةً لهم يقتسمونها)[1].

ولأن الله تعالىٰ أسس في الفاتحة المحكمات القطعية الأساسية لبناء الأمة الإسلامية، ومنها بناء حس الأمة الواحدة؛ فإن سور القرآن الكريم بعد (الفاتحة) مليئةٌ بتربية الحس الجماعي الإسلامي، وحسبنا أن نضرب مثلًا بأن الله ذكر مبدأ الأمة الواحدة باعتباره مادةً تعليليةً مقاصديةً -وهو يبين أحكام النكاح في سورة النساء- فقال: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾[النساء: ٢٥]، وهذه الجملة المباركة تدل علىٰ عدة مفاهيم، منها:

المفهوم الأول: الإيمان جعلكم أمة واحدة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] وَقَولُهُ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد فَصَّلَ الله هذا البعد الاستراتيجي الأخطر في الواقع العملي -وهو يبين لنا موازين التحالفات العالمية- بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

وهنا نذكر كيف اعتزَّ هنري كيسنجر بقدرة (الولايات المتحدة الأمريكية) الفائقة في هزيمة (أعدائها؟)، وجلبهم بعد الهزيمة ليتحاكموا إلىٰ مؤسساتٍ من صنعها، مشيرًا إلىٰ عقلية قومه الفريدة ضمن حوارٍ دار بينه وبين رئيسه هاري ترومان سأله

---

(١) البخاري (٥ / ١٧٦).

فيه: عن أهم الإنجازات التي يفتخر بها[١].

إنه يعبر عن عبقرية الولايات المتحدة التي صنعت باتحادها الحقيقي العادل نسبيًا عظمة القيادة للعالم. فمتىٰ سيكون عند الأمة التي تدعو بأن تُهدىٰ صراط المنعم عليهم هذه القوة الفذة؟

المفهوم الثاني: المجتمع المسلم قائم علىٰ هويةٍ واحدةٍ واضحةٍ هي الهوية الإيمانية، وكل فردٍ فيه جزء من الآخر، فهو بعض من الآخر، وهذه البعضية في بناء الحس الجماعي تدل علىٰ شدة اهتمام النظام الإسلامي ببناء الوحدة الإسلامي لدرجة وضع هذا التشبيه.

كيف ترىٰ -بعد ذلك- في واقع الأمة؟ بدلًا من الانصياع إلىٰ الوصف الشرعي لتقسيم الناس إلىٰ غلاة وجفاة، وبينهما أصحاب الصراط المستقيم (السوي) ننجر وراء التقسيمات التي ترسمها مؤسسات المغضوب عليهم والضالين. وها هنا يغرس الشيطان رايته، ويلعب بالمسلمين كأن لم يشعروا قطُّ بمعنىٰ الحس الجماعي لبعضهم.

ومن الملحوظات التربوية التي نلمحها ضمن هدايات أفعال الحس الجماعي في الفاتحة (نعبد، نستعين، اهدنا) أن انحراف بعض المسلمين عما تبنيه الآية من الحس الجماعي يبلغ أشده عندما يقوم أحدهم بالكلام عن نفسه بصيغة الجماعة لا كما تبني الآية، بل بعكسها فيتحدث عن نفسه تعظيمًا لها فيقول: فعلنا، واخترنا، وكتبنا... اللهم ألهمنا رشدنا، وقنا شرورَ أنفسنا.. يا أرحم الراحمين.

---

(١) ذكر ذلك الحوار في مقدمة كتابه (النظام العالمي World Order) ص١، ونقل عن رئيس الولايات المتحدة Harry S. Truman قوله: "That we totally defeated our enemies and then brought them back to the community of nations. I would like to think that only America would have done this".

ذلك (الأمر الذي يشكل أكبر مصدر للفخر) أننا هزمنا أعداءنا تمامًا ثم أعدناهم إلىٰ المجتمع الدولي!.

إنني أحب التفكير أن ذلك لا يحدث إلا في أميركا فقط.

البَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ

أهم آثار التقسيم الإلهي الثلاثي للعالم: الوحدة الزمانية والمكانية بين أصحاب الصراط المستقيم

التقسيم الإلهي الثلاثي للعالم في قوله تعالىٰ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ ؛ تقسيمٌ سياسيٌ بامتياز يحقق المصالح الإسلامية، ويضمن إقامة الحياة المسلمة؛ فإن أعظم النعم الإيمانية الأخوة الحقيقية لأصحاب الصراط المستقيم.. إنها الأخوة التي تجمع بين الماضي والحاضر والمستقبل، فهي أخوةٌ مكانية تخترق الأمكنة، وزمانية تجمع المسلمين من لدن آدم -عليه السلام- إلىٰ الصحابة الكرام رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، إلىٰ قيام الساعة يظللها قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

ماذا تجد من إشاراتٍ في وصف الصراط المستقيم بأنه صراط الذين أنعم الله عليهم؟

إنها إشاراتٌ قويةٌ إلىٰ طبيعة الحماية القوية التي يتمتع بها من ينتسب إلىٰ الصراط المستقيم؛ حيث أَلَّفَ الله بينهم علىٰ اختلاف الحدود الزمانية والمكانية، وحماهم من أن يخترقهم غيرهم من الفرق الأخرىٰ، ومن هنا نعلم أن أبشعَ هدفين استطاعت قوىٰ الاستعمار المستكبرة تحقيقهما الهدفان العظيمان التاليان:

الهدف الأول: تفتيت الوحدة الإسلامية المكانية بين ما سُمِّيت بعد ذلك (دولًا إسلامية) حيث أغلق الذين ينتسبون إلىٰ الصراط المستقيم الحدودَ في وجه بعضهم، وفي الوقت ذاته طبَّعت قوىٰ الاستكبار من المغضوب عليهم والضالين أذهان المنتسبين إلىٰ الصراط المستقيم علىٰ فتح أبوابهم وحدودهم أمام الغزو الثقافي الأممي الرهيب القادم من غيرهم، وبذا تكون الأمة قد ارتكبت عكس ما أراده

الله منها حينما قَسَّم الفرق العالمية إلىٰ (أصحاب الصراط المستقيم، والمغضوب عليهم، والضالين).

الهدف الثاني: تفتيت الوحدة الثقافية الزمانية مع التراث الإسلامي السابق الذي أنار العالم رحمةً وحكمةً وعلمًا، وصار الانتساب إلىٰ السابقين من عباقرة هذه الأمة تهمةً يتم التبرؤ منها لتكون النتيجة أن يقوم كثيرٌ ممن ينتسب إلىٰ الصراط المستقيم بمقاطعة تحكيم الشريعة، والتراث الإسلامي الزاخر الأصيل.

يا طِيْبَ عهدٍ كانت عهود الإنارة العالمية الحقيقية لنا فيه عندما كان هذا التقسيم الإلهي الثلاثي للواقع العالمي (الـمُنعَم عليهم، المغضوب عليهم، الضالون) هو السائد المهيمن علىٰ التفكير المسلم، حيث كان يهرب المضطهدون من اليهود وغيرهم في العالم إلىٰ أحضان المسلمين المحكمين للشريعة الإسلامية.. ما بال الحشود الغافلة من أمتنا استبدلت الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير، فصارت تصف تلك العهود الإسلامية التي أشرقت علىٰ العالم بعهود الظلام؟.

لقد نجح الاستدمار الحديث (يسمونه الاستعمار) في تعطيل هذا المفهوم الكبير الذي أوجدته آيتا ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ إلىٰ درجةٍ مدهشةٍ مبكيةٍ مضحكةٍ حيث ترىٰ الدول التي تسمي نفسها مستقلة تجتمع في تحالفٍ قويٍ مع المغضوب عليهم والضالين ممن قَتَّل من أبنائها الملايين، وتغلق حدودها مع من ينتسب إلىٰ الصراط المستقيم من الأطفال والنساء والرجال من المسلمين الذين لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلًا.

ما نتيجة عدم تطبيق هذا التقسيم القرآني للحلفاء والأعداء؟

النتيجة التيه والهلاك والضياع الرهيب الذي نعيشه ضمن أروقة مجالس الإخافة الدولية، ومؤسسات شيطنة حقوق المرأة، ومتاهات التفرج علىٰ الإبادات الجماعية

لعدم وجود شرعية دولية إلا الشرعية التي لم تعرف البشرية شرعية عنصرية شريرة مثلها.. إنها شرعية (الفيتو) العنصرية المتوحشة؛ حيث صار مستضعفو العالم من المسلمين وغيرهم فريسةً لأبشع الأعداء، كما هي الحالة المعاصرة التي وصفها النبي ﷺ بقوله: «يوشك الأمم أن تداعىٰ عليكم كما تداعىٰ الأكلة إلىٰ قصعتها» فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء -ما يحمله السيل من وسخ- كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن**» فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»[(١)].

لقد قال ابنٌ مِنْ أبناء هذه الأمة متوجعًا:

أماه.. أعرف أن تاجك قد نقشت عليه قرانًا وسنة

أماه.. أعرف أن في أحشائك الحرّىٰ ملايين الأجنة

أماه.. لا أخشىٰ عليك العقم، لكني أحس بما يدس لكبت أنفاس الأجنة

وأرىٰ حواليك الذئاب نيوبهن مكشرات كالأسنة...

للحق تكبيلٌ، وتنكيلٌ، وللنزوات إطلاق الأعنة

أماه.. ما سفحت دموعي كثرةُ الأعداء إن نبحت عليك...

أو أرسلت جند الضلالة والهوىٰ منها إليك

أو أعلنت -وبكل أسلحة الدمار- ونفذت حربًا عليك...

لكن ما يدمي ضميري أن يقوم بنوك بالتدمير فيك.

---

(١) أبو داود (٢ / ٥١٤)، وجوَّد الهيثمي إسناده، والغثاء ما يحمله السيل من وسخ.

البَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ

فقه التعايش ملازم لفقه الحذر والتحذير من المغضوب عليهم والضالين

في فقه (آيتي الصراط) نستنبط بصائر قرآنية ثرية تبنيها آية السعداء والأشقياء في العقلية المسلمة، ومن ذلك أن الـمُنعَمَ عليهم من أهل الصراط المستقيم يجب عليهم الحذر والتحذير من الفرق المغضوب عليها والضالة التي تتسبب في استجلاب غضب أرحم الراحمين، أو تُوقِع الأمة في الضلالات الفكرية والاعتداء دون اعتبارٍ للجنسية الدينية، فقد وصف الله صراط الـمُنعَم عليهم بأنه ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾..إنها الواقعية الرائعة للقرآن الكريم.. لم يجعلنا نعيش في فخاخ الأحلام، وشباك الأوهام، فمن الحقائق الكونية الواضحة وجود المجرمين والمعتدين والمفسدين من المغضوب عليهم والضالين؛ ليتم الاختبار في دار الدنيا بكيفية تفاعل الأخيار مع شر الأشرار ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢٠]، وهذه البصيرة القرآنية تعني أن يوجد فقه التعايش جنبًا إلىٰ جنبٍ مع فقه الحذر والتحذير:

ففي فقه التعايش يتعايش أهل الصراط المستقيم مع غيرهم في ظل ضوابط: العدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربىٰ، وترك الفحشاء، والمنكر، والبغي. وفي فقه الحذر والتحذير تقتضي سورة (الفاتحة) إيجاد آليات فرديةٍ وجماعيةٍ للحذر والتحذير من الفرق المجرمة المغضوب عليها والضالة. وهذه الأولية نلاحظها بينةً في وصف الله -عزَّ جاره- للمجرمين بأنهم مغضوبٌ عليهم أو ضالون، وهذا الوصف وصفٌ لمبدأ فعلهم ونتيجته في الوقت ذاته، فقد عصوا فَضَلُّوا، واستحقوا الغضب النازل عليهم، ثم عموا وصموا أكثر، ولأنهم مغضوب عليهم وضالون فقد

حُرِموا التوفيق للتوبة، فهم من الغضب والضلال ينطلقون ليزدادوا غضبًا وضلالًا.

الآن استرجع الذاكرة التاريخية لترىٰ بوضوح أن الكليات الجامعية والمؤسسات الثقافية المنبثقة عن الإرساليات التنصيرية في لبنان ومصر قد أدت دورًا وظيفيًا قذرًا في الفصل بين المسلم التركي والمسلم العربي باسم القومية والحرص علىٰ اللغة العربية أو الهوية العربية.. لم تحارب الظلم الذي قد يوجد عند العرب، وقد يوجد عند الأتراك، وقد يوجد عند المسلمين، وقد يوجد عند النصارىٰ، بل صارت تحارب الجنسية ذاتها للتفريق بين أصحاب الصراط المستقيم (المسلمين)، فجعلت الأتراك في جهةٍ، والعرب في جهةٍ أخرىٰ، والأكراد في جهةٍ ثالثةٍ... ثم خطت خطوةً أخرىٰ -بعد فصل العضو التركي المسلم عن الجسد الإسلامي العام- ففرقت بين العرب ذاتهم باسم الهويات الترابية الضيقة التي عبرت عنها حدود سايكس بيكو المشؤومة، ولكن أسوأ الخطوات في خطة الفصل بين أصحاب الصراط المستقيم هي: خطوة الشرخ الرهيب الذي أحدثه (الضالون) الذين يعيشون داخل الجسد الإسلامي، وهم ثلاث فئات: المنافقون، والذين في قلوبهم مرض، والمرجفون في الأمة الإسلامية.. حاول الضالون أن يصنعوا (إسلامًا) مغايراً للإسلام الذي ارتضاه الله.. إنه (إسلام) يختلف عن الإسلام الذي نقل مصادره النظرية والعملية محمدٌ رسول الله ﷺ والذين معه من الآل وسائر الأصحاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وتطورت حركات الضالين في الداخل الإسلامي بصورةٍ وبائيةٍ، ورعايةٍ من قيادات المغضوب عليهم والضالين في الخارج تحت شعار حماية الإقليات؛ حيث وجدت فيها كنزًا استراتيجيًا رهيبًا يقوم بالتدمير السرطاني للأمة المسلمة.. لم يتنبه أصحاب الصراط المستقيم إلىٰ خطورة كل هذه الشروخ العنصرية والشقوق الحدودية العنصرية التي حولتهم من أمةٍ واحدةٍ إلىٰ أممٍ، لقد قسّمت آيتا الصراط العالم تقسيماً منطقياً، فأبىٰ المغضوب عليهم والضالون إلا

التلاعب لإبطال هذا التقسيم القرآني، فظهر في الأمة الانحراف الجزئي التدريجي عن منهج الصراط المستقيم، وعن الوحدة التي فرضتها آية الصراط بين المنتسبين إلىٰ المنعم عليهم.

وإن تعجب لذلك فازدد يقينًا بدينك وإيمانك عندما تعلم أن النبي ﷺ قد أشار إلىٰ وقوع هذه الأمة في الفتنة المفرقة لأصحاب الصراط المستقيم؛ حيث سأل ربه أن لا يسلط بعض أمته علىٰ بعض.. فما النتيجة؟ اسمع إلىٰ النبي ﷺ: « **إِنَّ اللَّهَ زَوَىٰ لِيَ الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّى لأُمَّتِى أَنْ لاَ يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لاَ يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لاَ يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَنْ لاَ أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لاَ أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا -أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا- حَتَّىٰ يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِى بَعْضُهُمْ بَعْضًا**»[(١)].

هذا التذكير النبوي بالمأساة القادمة بين الأمة يقتضي الحذر من أن يكون أحدٌ طرفًا فيها.

والآن أخبرني -أيدك الله-: كيف ترىٰ آيتي الصراط المستقيم بعد ذلك؟ ألم تَرَ إلىٰ آيتي (الصراط المستقيم) كيف أنتجت لنا بصائر يمكن أن نسميها (فقه آيتي الصراط)؟ ومن هذا الفقه القرآني لها أن نقوم بإنشاء الهيئات العلمية المختصة التي تمنع وقوع الأمة في فخاح المغضوب عليهم والضالين، ويأتي في مقدمة هذه الهيئات: مؤسسات العلم الشرعي التي تقوم بالتخلية والتحلية، والتصفية والتزكية، وتنمي حاسة الحذر من المزالق الفكرية الضالة، وتربي علىٰ كيفية التعامل

---

(١) مسلم (٨/ ١٧١).

الشرعي مع الذين في قلوبهم مرض، والمرجفين وقوىٰ النفاق دعوةً، وإصلاحًا، أو ردعًا ومجاهدةً وكفاحًا، وذلك لحماية الثابتين علىٰ الصراط المستقيم من الغلو والانجراف فيه، أو الزلل والانحراف عنه كما قال -جلَّ مجده-: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢]، ولذا بين النبي ﷺ لحذيفة بن اليمان السبيل العاصم من حالة الفتنة التي يسيطر فيها الشر علىٰ مقاليد الأمور، وذلك لما سأله فقال: يا رسول الله أبعد هذا الخير شر؟ فقال: «**يا حذيفة تعلَّم كتاب الله واتَّبع ما فيه**» ثلاث مرارٍ. قلت: يا رسول الله، أبعد هذا الخير شرٌّ؟ قال: «**يا حذيفة تعلَّم كتاب الله واتَّبع ما فيه**» ثلاث مرارٍ. قلت: يا رسول الله، أبعد هذا الشَّرِّ خيرٌ؟ قال: «**هدنةٌ علىٰ دخنٍ، وجماعةٌ علىٰ أقذاءَ فيها**» قلت: يا رسول الله، أبعد هذا الخير شرٌّ؟ قال: «**يا حذيفة تعلَّم كتاب الله واتَّبع ما فيه**» ثلاث مرارٍ. قلت: يا رسول الله، أبعد هذا الخير شرٌّ؟ قال: «**فتنةٌ عمياء صمَّاء، عليها دعاةٌ علىٰ أبواب النَّار، وأن تموت يا حذيفةُ، وأنت عاضٌّ علىٰ جذلٍ خيرٌ لك من أن تتَّبع أحدًا منهم**»(١).

يا لله..إلىٰ أي مدىٰ بلغ هذا الحرص النبوي علىٰ الأمر بتعلم كتاب الله؟ ألم تره كرَّر ذلك الأمر في حديثٍ واحدٍ تسع مراتٍ، وهل ذاك إلا لأنه منبع الحماية والرعاية والتغيير نحو الخير والحسنىٰ!! ومن هنا نعلم لماذا تصر القوىٰ العالمية للمغضوب عليهم والضالين علىٰ إلغاء دور القرآن الكريم، والمدارس الشرعية، والمعاهد العلمية التي تنشر العدل والخير والنور في العالم.

---

(١) تم دمج ألفاظ الحديث من السنن الكبرىٰ للنسائي(٧ / ٢٦٤)، وأحمد (٥ / ٣٨٦)، وحسنه الأرناؤوط، والجذل: أصل الشجرة، انظر: مجمل اللغة لابن فارس (ص: ١٨١).

خَتمُ الفَاتِحَةِ وَمُوجَزٌ لِمَا تَبتَنِيهِ فِي العَقلِيَّةِ المُسلِمَةِ

في الختام تفوح أجمل النسائم، ويشعر بالقوة التي تكتنزها (الفاتحة) كلُّ قلبٍ صادقٍ مصدِّقٍ هائم.

ولهذا الختام للفاتحة المباركة قسمان:

القسم الأول: الآلاء والعَظَمَة في ختم الفاتحة بـ(آمين).

القسم الثاني: (الفاتحةُ) المباركة تحوي أم المحكمات والأولويات الحيوية القرآنية.

القسم الأول
الآلاء والعظمة في (آمين) نعم الخاتمة..
تصديق واشتياق للعطايا القادمة

الفصل الأوَّل

فضائل هذه الكلمة المباركة المخبتة (آمين)

الفاتحة: دعاءٌ وثناءٌ، وتمجيدٌ لرب الأرض والسماء، ومطالبُ يرتجيها منه عباده الأصفياء، ولذا جاء ختامها بـ(آمين). وهذه الكلمة المباركة ليست من الفاتحة إجماعًا، إلا أنها تزيد في الفاتحة ضياءً، وتكسو التالي لها بهاءً، ولها فضائل تهتز لها قلوب المتقين، وتُشْرِقُ بها نفوس المخبتين، منها:

الفضيلة الأولىٰ: الغفران لقائلها إن وافق تأمينه تأمين الملائكة:

ففي مشهدٍ شعوريٍ غامرٍ يدل علىٰ الانسجام بين الصالحين والملائكة المقربين يقرن النبي ﷺ بين تأمين البشر وتأمين الملائكة، ويبني علىٰ ذلك الأجور الوفيرة، والنعم الكثيرة، فعن أبي هريرة -رضي اللَّه عنه- أنَّ رسول اللهِ ﷺ قال: «**إذا قال الإمام: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولوا: آمين**. -وفي روايةٍ-: **إذا أمَّن القارئ فأمِّنوا، فإنَّ الملائكة تؤمِّن، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدَّم من ذنبه**»[(١)]. فانظر إشراق الفكر، وجمال الصورة.

والمخبتون من العباد يشعرون بأنهم يلتقون بالملائكة المقربين في هذا الترديد، وذلك التمجيد.

---

(١) البخاري (١/ ١٩٨).

الفضيلة الثانية: حسد اليهود لنا عليها:

عجيبٌ أمر الحاسد؛ إذ الحسد يأكل القلب، ويهلك الجسد، إلا أن كثيرًا من البشر لا يتركونه، ومنهم كثيرٌ من اليهود مذ كانت واقعة الحسد ليوسف -عليه وعلىٰ نبينا أفضل الصلاة والسلام-، وكما حسدوا النبي ﷺ علىٰ ختم النبوة به، فقد حسدوا أتباعه علىٰ تفاصيل شريعته، ومن ذلك (التأمين)، فعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عن النَّبِيِّ -صلَّىٰ الله عليه وآله وسَلَّم- قال: «ما حسدتكم اليهود علىٰ شيءٍ، ما حسدتكم علىٰ السَّلام، والتَّأمين»[1]، فما سبب حسدهم لنا علىٰ هذه الكلمة؟ هل ذلك لأن هذه الكلمة غير موجودة عندهم؟ كلا! فهي مزبورةٌ في كتبهم، ولعل حسدهم لنا عليها لأوجهٍ، منها:

الوجه الأول: (آمين) علامة علىٰ التصديق والاشتياق للعطايا الإلهية القادمة، وهم لا يرددونها كما نرددها، ولا يحفلون بها كما تفعل الأمة الإسلامية المباركة.

الوجه الثاني: هذه الكلمة لها رمزيتها الدينية العظيمة، فهي تدل علىٰ وحدة مصدر الرسالات السماوية، كما تدل علىٰ أن مخالفةَ الأمة لأهل الكتاب ليست علىٰ إطلاقها بل يُخالَفُ أهل الكتاب فيما ابتدعوه من الأهواء والرداءة والارتياب، وأما ما كان ذا أصلٍ شرعيٍّ أخذوه من أنبيائهم فهو جزءٌ من الإسلام ما لم يُنسخ.

ولفظة (آمين) نجدها في التوراة بعد الدعاء علىٰ المجرمين الذين يقترفون أرذل القبائح، ففي سفر التثنية:

«فيصرخ اللاويون ويقولون لجميع قوم إسرائيل بصوتٍ عالٍ:

---

(١) ابن ماجه (١/ ٢٨٧)، وفي مصباح الزجاجة: "هذا إسناد صحيح. احتج مسلم بجميع رواته".

٢٧: ١٥ ملعونٌ الإنسان الذي يصنع تمثالا منحوتًا، أو مسبوكًا، رجسًا لدىٰ الرب عمل يدي نحات، ويضعه في الخفاء، ويجيب جميع الشعب ويقولون: آمين.

٢٧: ١٦ ملعونٌ من يستخف بأبيه أو أمه، ويقول جميع الشعب: آمين.

٢٧: ١٧ ملعونٌ من ينقل تخم صاحبه، ويقول جميع الشعب: آمين.

٢٧: ١٨ ملعونٌ من يُضِلُّ الأعمىٰ عن الطريق، ويقول جميع الشعب: آمين.

٢٧: ١٩ ملعونٌ من يُعَوِّج حقَّ الغريب واليتيم والأرملة، ويقول جميع الشعب: آمين.

٢٧: ٢٠ ملعونٌ من يضطجع مع امراة أبيه؛ لأنه يكشف ذيل أبيه، ويقول جميع الشعب: آمين.

٢٧: ٢١ ملعونٌ من يضطجع مع بهيمةٍ ما، ويقول جميع الشعب: آمين.

٢٧: ٢٢ ملعونٌ من يضطجع مع أخته بنت أبيه أو بنت أمه، ويقول جميع الشعب: آمين.

٢٧: ٢٣ ملعونٌ من يضطجع مع حماته، ويقول جميع الشعب: آمين.

٢٧: ٢٤ ملعونٌ من يقتل قريبه في الخفاء، ويقول جميع الشعب: آمين.

٢٧: ٢٥ ملعونٌ من يأخذ رشوةً لكي يقتل نفس دم بريء، ويقول جميع الشعب: آمين.

٢٧: ٢٦ ملعونٌ من لا يقيم كلمات هذا الناموس ليعمل بها، ويقول جميع الشعب: آمين».

فإذا ردد المسلمون (آمين) كان ترديدهم من أدلة وحدة الرسالات السماوية،

وصدق النبوة المحمدية علىٰ صاحبها -علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وعلىٰ أنبياء الله أجمعين-، فهو لم يكن بِدْعًا من الرسل، وما ذكر إلا ما ذكره الأنبياء من قبل من المحكمات المتفق عليها، والمسائل التي لم تنسخ.

ومن أوجه غيظ اليهود، واشتعال قلوبهم حسدًا لنا علىٰ هذه الكلمة: أن ترديد المسلمين لها يجعل الرأي العام الكتابي يتنبه إلىٰ أن هناك مشابهةً بين رسالة سيدنا محمد ﷺ وبين مَن قبله، وربما دفع ذلك عوامهم إلىٰ التساؤل عن الإسلام، وربما الدخول فيه، فهذا وجهٌ من أوجه حسد اليهود لنا علىٰ هذه الكلمة المباركة.

الفصل الثاني

معناها (تصديق واشتياق للعطايا القادمة):

(آمين) تدل علىٰ التصديق الحقيقي، والإيمان العميق بكل ما سبقها من كلمات الحمد والثناء والدعاء.. (آمين) تدل علىٰ الترقب والاشتياق للعطايا الإلهية القادمة علىٰ أساس الاستجابة الإلهية للمطالب السابقة لهذه الكلمة المباركة.

إنها كلمةٌ واحدةٌ تجمع كلَّ تذللٍ ورغبةٍ من قائلها الذي يطلب من الله أن يقضي الحاجة، ويُفَرِّجَ الكربة، ويحقق المراد، فهي بمعنىٰ: اللهم استجب استجابةً تُغيث بها اللهفة، وتقيل بها العثرة، وتُروي بها الظمآن، وتُزيل بها حَيرة الولهان، وتُؤوي بها الغريب، وتُسعد بها القلق الكئيب[1].

---

(١) وشاعت آمين علىٰ ألسنة الناس حتىٰ قال قيس بن الملوح:

يا ربّ إنك ذُو مَنٍّ ومَغفِرَة ... بَيِّتْ بعافيةٍ ليلَ المُحبّينَا
الذّاكرين الهوىٰ من بَعْدِمَا رَقدُوا ... السّاقطين علىٰ الأيدي الْمُكِبِّينِا
يا ربّ لا تَسلُبَنِّي حُبَّها أبدًا ... ويرحم الله من قد قال: آمينَا.

الفصل الثالث

سبب انفراد الفاتحة بختمها بـ «آمين» دون غيرها من السور

لماذا اختتمت الفاتحة بالتأمين بخلاف السور التي تضمنت أدعيةً كسورة البقرة، وسورة آل عمران، فقد اختتمهما الله بالدعاء أيضًا، ولكن لم يسن لنا فيها قول (آمين) كسورة الفاتحة؟

لعل ذلك -أيدك الله- لمكانة (الفاتحة): مبناها ومعناها؛ فهي بأجمعها دعاء يتضمن الثناء، ولذا روى جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله»(١)؛ فالحمد في ذاته دعاء، وأي دعاء، فقد قال الله -تعالىٰ مجده-: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

فالدعاء نوعان:

النوع الأول: دعاءُ تملقٍ وتضرعٍ وثناءٍ، وهو في (الفاتحة) في نصفها الأول، وأعظم رموزه الحمدلة.

النوع الثاني: دعاءُ مسألةٍ وطلبٍ ورجاءٍ، وهو في (الفاتحة) في النصف الثاني ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

ومن أمثلة النوع الأول: عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فإنه لم يَدْعُ بها رجلٌ مسلمٌ في شيءٍ قط إلا استجاب الله**

(١) الترمذي (٥/ ٤٦٢)، وقال: "هذا حديث حسن غريب"، وابن حبان (٣/ ١٢٦).

له»[١]، فانظر كيف جمع هذا الابتهال كل دعاء رفيع. ومثله ما جاء عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، أن النبي ﷺ قال: «**خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله، وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو علىٰ كل شيء قدير**»[٢].

ألا ترىٰ أن هذا أيضًا ثناء يتضمن انتظار قائله للعطاء؟ وقد سئل سفيان بن عيينة عن ذلك: لماذا كان -أي التهليل- أفضلَ الدعاء- أي مع أنه ثناء؟ قال: ألم تسمع قول أمية بن أبي الصلت في مدح عبدالله بن جدعان:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤك إن شيمتك الحياءُ
إذا أثنىٰ عليك المرء يومًا ... كفاه من تعرضه الثناءُ
كريمٌ لا يغيره صباح ... عن الخلق الجميل ولا مساءُ

قال سفيان: فهذا مخلوقٌ حين نسب إلىٰ الكرم اكتفىٰ بالثناء عن السؤال، فكيف بذي الجلال والإكرام!!.

محبة (الوهاب المحمود سبحانه) جعلت الحمدَ لسانَ مقالِ النبيين، ومحلَّ ترديدِ المبتهلين، فروىٰ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتىٰ بختنصر بدانيال النبي -عليه السلام- فأمر به فحُبِسَ، وأجاع أسدين، فألقاهما في جُبٍّ معه، وطَبَّق عليه وعلىٰ الأسدين، ثم حبسه خمسة أيام مع الأسدين، ثم فتح عنه بعد خمسة أيام، فوجد

(١) الترمذي٥/ ٥٢٩، ورواه أحمد١/ ١٧٠، وصححه الحاكم٢/ ٦٣٧، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٦ / ٤٤٣): "ورجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن محمد بن سعد بن أبي وقاص وهو ثقة".

(٢) الترمذي٥/ ٥٧٢، وقال: "حسن غريب"، وفي تحفة الأحوذي (٨ / ٤٨٢): "قَالَ الْقَارِي: وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِلَفْظِ: «أَفْضَلُ مَا قُلْت وَالنَّبِيُّونَ قَبْلِي عَشِيَّةَ عَرَفَةَ لَا إِلَه إِلَّا اللَّه» إِلَخْ وَسَنَدُهُ حَسَنٌ جَيِّدٌ كَمَا قَالَهُ الْأَذْرَعِيّ".

دانيال قائمًا يصلي، والأسدين في ناحية الجب لم يعرضا له، فقال لبختنصر: أخبرني ماذا قلت فدُفِع عنك؟ قال قلت: (الحمد لله الذي لا ينسىٰ من ذكره، الحمد لله الذي لا يَخِيبُ من رجاه، الحمد لله الذي لا يَكِلُ من توكل عليه إلىٰ غيره، الحمد لله الذي هو ثقتنا حين تنقطع عنا الحيل، الحمد لله الذي هو رجاؤنا يوم تسوء ظنوننا بأعمالنا، الحمد لله الذي يكشف حزننا عند كربنا، الحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحسانًا، الحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاةً)[١].

إنه دعاء الحمد.. دعاء المناجاة والثناء.. يجد الداعي به كل راحةٍ وهناء.. كما قال حادي الهداة ولسان المخبتين التقاة:

إلهي من سناك قبستُ نوري ... وأَنْبَتُّ المحبةَ في ضميري
أفِرُّ إليك من نكدي ويأسي ... ومن عفن الضلالة في شعوري
فقيرًا جئت بابك يا إلهي ... ولستُ إلىٰ عبادك بالفقير
غنيٌّ عنهمُ بيقين قلبي ... وأطمع منك في الفضل الكبير
إلهي ما سألت سواك عونًا ... فحسبي العون من ربٍّ قدير
إلهي ما سألتُ سواك عفوًا ... فحسبي العفو من ربٍّ غفور
إلهي ما سألت سواك هديًا ... فحسبي الهدي من ربٍّ بصير
إذا لم أستعن بك يا إلهي ... فمن عوني سواك؟ ومن مجيري؟

---

(١) الشكر لابن أبي الدنيا ص٦٠.

القسم الثاني
(الفاتحةُ) المباركة تحوي أم المحكمات
والأولويات الحيوية القرآنية

وإذا قلنا بأنها تحوي أم (المحكمات) فهذا يعني أننا يجب أن نتحاكم إليها عند الاختلاف في معنىٰ آية، أو في مقتضاها ومفاهيمها.. أما لماذا؟

فلأن (الفاتحة) بمثابة الإعلان الدستوري المهيمن الذي يحوي القواعد الكلية العامة التي يفهم القرآن من خلالها، وخذ بعضَ الأمثلة التي تُوَضِّحُ محاكمةَ المعاني القرآنية المختلفة إليها:

فـ(إدارة المال) موضوعٌ مبثوثٌ في سور القرآن الكريم الأخرىٰ كسورة البقرة، وآل عمران، والنساء وغيرها، فإذا سأل سائلٌ: لماذا كانت قواعد إدارة المال في التَصَوُّرِ الإسلامي تقتضي كتابةَ كلِّ شيء، ولماذا وجد مع ذلك الاستثناء في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ [البقرة: ٢٨٢]،

فالجواب موجودٌ في سورة الفاتحة في قوله تعالىٰ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ، فالتنظيم الماليُّ عائدٌ إلىٰ مقاصد التربية، والرحمة، وإلىٰ مقصد المنهاج العبادي، وإلىٰ قاعدة حماية الصراط المستقيم من اعتداءات المغضوب عليهم والضالين.

وإذا سأل سائلٌ مثلًا: لماذا كان تقسيم الإرث بالصورة المذكورة في سورة النساء؟ ولماذا تم تشريع القصاص، وغيرها من أحكام الإسلام؟

فالجواب: لأنه يعود إلىٰ المقاصد ذاتها.

وإذا سأل سائل عن أسرار نظم السلم والحرب في الإسلام؟ فالجواب موجودٌ في الفاتحة. وفي حال تعارض بعض الاجتهادات في الصور الجزئية للأحكام نرجع إلىٰ مقاصد الفاتحة كالرحمة، والتربية؛ لنحاكم إليها الاجتهادات التي تم الاختلاف فيها.

وإنما حوت (الفاتحة) القواعد الأساسية الكلية ليصبح القرآن هاديًا وموجهًا لواقع الحياة وأنشطتها، ومؤسسًا لأهم قواعدها.

و(الفاتحة) تمثل القرآن الواجب تعلمه علىٰ كل مسلم، لذاك حَوَتْ التَصَوُّرَ الإسلاميَّ الكليَّ الذي يتضمن الأوليات الضرورية لإدارة الحياة، وليس لإدارتها فقط، بل لإدارتها بصورةٍ متقنةٍ تامةٍ.

إنَّها (الفاتحةُ) تحوي أُسس البناء لأعمدة السعادة والرخاء في الأفراد والأسر والمجتمعات؛ لتستنير النفوس بما فيها من أركان الخير والضياء.

إنها (الفاتحةُ).. تُؤَسِّسُ للمجتمعات حضارةً تقدميةً تزدان بالصالحات وتُكلل بالجمال والبهاء.. علىٰ غرار ما كان في عهد النبوة والعهد الراشدي حيث رأينا المثل الأعلىٰ للأنموذج القرآني المغيث للإنسانية من الضراء والبأساء ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٦].

وبعـــد:

ففي إطلالةٍ أخيرةٍ علىٰ (الفاتحة) حيث التعليم الاختياري الإجباري:

أول ما يقابلُك من آلائها، وسابغ نعمائها أنها تُعَلِّمُ قارئَها أعظمَ المسائل الكليةِ العلمية والعملية التي يحتاج إلىٰ معرفتِها..

تُعَلِّمُه كيف يتصل بالله، ويثني عليه -جلَّ في علاه-.. تُعَلِّمُه كيف يناجيه ويدعوه.. كيف يستلذ بما يُنعم به عليه وبما يعطيه ويحبوه..

كل ذلك التعليم تراه في (الفاتحة) بصورةٍ يتضاءل عندها الذكاء، وتتحول الكآبة والبأساء إلىٰ أجمل الحدائق الغَنَّاء المتزينة في حلل البهاء..

ومن عجيب أمرها أن آياتها لم تبدأ بالأمر (قل)، بل نراها مباشرةً تُعَلِّمُنا أعظمَ المحامد والتمجيد.. وذلك عندما نقرأ آيات الحمدلة والثناء والمالِكية والتوحيد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ .. ألا تراها تُعَلِّمُنا أن ندعوَ أعظم الدعوات؟.. نطلب الرحمة في الدنيا والآخرة بين ثنايا الثناء عندما نردد ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ .

من عجيب أمرها أنها تأخذ علينا العهدَ الموثق بيننا وبين الله بغتةً بمجرد قراءتنا لـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .. فانظر للجمال وعَظَمةِ المقال.. يُلجئنا الله إلجاءً إلىٰ أن ننطق نصَّ العهد فنقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾..تَصَوَّر ذلك! هكذا دون مقدمات، ودون إظهار الأركان المعتادة للعهود ودون أن نستطيع التراجع عن الكلمات.. نعم! هكذا.. دون أن نستطيع الفرار من ترديد هذا النص العظيم المدهش أو نحاول الهروب والإنكار.. وانظر لهذا الكنز المختبئ في هذه الكلمات الأربع: تجبرك (الفاتحة) علىٰ أن تخبر عن عبادتك الواقعة لله بقولك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وفي الوقت ذاته تخبر عن استعانتك المحققة لوجود الإعانة بقولك: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

إنها (الفاتحة) المباركة.. تبدأ بالثناء في الأربع الآيات الأُوَل ثم ما تلبث حتىٰ تنقلك إلىٰ الالتزام بالعهد العظيم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ثم تنقلك نقلًا سلسًا تشعر عند انقيادك له بلذةٍ غامرة تلتزم فيه بصريح الدعاء بطلب الهداية لصراط الأصفياء الأتقياء السعداء.

فانظر وتأمل ما تكتنزه الفاتحة من جمال، وما تخبئه من محاسن الخصال.

وبذا ظهر لنا ما تيسر من بصائر (الفاتحة)، وعظمتها، واستبان لنا كيف أشرق نورها علىٰ الأمة فبنىٰ لها مجدها وعزتها وكرامتها، وكيف وضعت بصائرُها أسسَ الصلاح النفسي، والسكينة الشخصية، والنظم الجامعة لتجعل الأمة في حصنٍ حصين من هزائم الفاشلين، وسبيل المجرمين.. فيا لله! ماذا حُرم المعرضون عن نصوصها من كنوز الذخائر، وماذا فاتهم من حياةِ القلوب، واستنارةِ البصائر.. ويا حسرةً علىٰ العباد! حرموا -والله- الوصول بعدولهم عن منهج الوحي وتضييعهم الأصول[1].

(وإلىٰ الله -تعالىٰ ذكره- جزيل الضراعة والمنة بقبول ما منه لوجهه، والعفو عما تخلله من تزينٍ وتصنعٍ لغيره)[2].

ربنا يا ربنا نحن عبيدك بين يديك.. متضرعون محتاجون إليك.. فأعنا علىٰ تدفق نور الإيمان في قلوبنا.. واهدنا ويسر الهدىٰ لنا ربنا..

ربنا..اقذف حبك في قلوبنا حتىٰ لا نحب أحدًا كحبك، واقذف رجاءك في قلوبنا حتىٰ لا نرجو أحدًا غيرك، واقذف خشيتك في قلوبنا حتىٰ لا نخشىٰ أحدًا سواك..

ربنا.. علمنا الكتاب والحكمة وعلمنا ما لم نكن نعلم، واجعل فضلك علينا عظيمًا، كن بنا حفيًّا، وارفعنا -بفضلك ورحمتك وجودك وإحسانك- مكانًا عليًا.. لا تجعلنا عطشىٰ من دون محبةٍ ربنا.. لا تتركنا حيارىٰ من دون نور القرآن ربنا.. لا تجعلنا من دون نصرة القرآن هلكىٰ ربَّنا.

(١) بعض الكلمات مقتبسة من مقدمة مدارج السالكين.

(٢) من خاتمة كتاب الشفا للقاضي عياض ٢/ ٣١٢.

ربنا.. ربنا: البشر دون نور القرآن تخطفهم الطير.. تهوي بهم رياح الظلم والظلمات في مكان سحيق..اللهم أنر بصائرنا ببصائر القرآن.. وخذ بأيدينا المضطربة إلىٰ سبل السلام.. يا ذا الجلال والإكرام..

اللهم إنا عبيدك بنو عبيدك بنو إمائك، نواصينا بيدك، ماضٍ فينا حكمك، عدلٌ فينا قضاؤك، نسألك اللهم بكل اسمٍ هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا، وأنس حياتنا، وغيث أمتنا الذي يخرجها من الظلمات إلىٰ النور، وأبدلنا مكان أحزاننا أعظم الغبطة والسرور.. يا رحيم يا غفور.

ربَّنا.. مُلئت الأرض بالجور، وعادت عبادة الأوثان، واجتمعت أحزاب الشيطان لطمس نور القرآن، واحتناك البشرية بعيدًا عن الإيمان..ونحن الأمة الحيرىٰ المستضعفة بين يديك ربَّنا يا رحمن.. اللهم فأعنا ولا تعن علينا ربنا، امكر لنا ولا تمكر علينا ربنا، انصرنا ولا تنصر علينا ربنا.

ربنا.. قنا شرور أنفسنا.. وانصرنا علىٰ أهوائنا وعلىٰ من بغىٰ علينا ربنا.. اللهم ارحم عبادًا غرَّهم طول إمهالك، ارحم عبادًا أطمعهم كرم نوالك.. ارحم عبادًا ذلوا لعزِّك وجلالك.. ارحم عبادًا علموا ألا غنىٰ لهم عن سؤالك..

اللهم ارحم أمة عبدك محمد ﷺ، وارزقها قادة ربانيين يقودونها بكتابك وسنة نبيك ﷺ، وارزقها فهم كتابك، والتلذذ بالعمل بخطابك..

ربنا اجعلنا أهلًا لولايتك ونصرتك وتوفيقك وتأييدك ومحبتك ورضاك، فإنه لا يعين علىٰ الحق غيرك، ولا يؤتيه إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

ربنا نسألك إيمانًا لا يرتد، ونعيمًا لا ينفد، ومرافقة نبينا محمدٍ ﷺ في أعلىٰ جنان الخلد يا أرحم الراحمين.

وصلىٰ الله تعالىٰ وسلم علىٰ نبينا محمدٍ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين .

والحمد لله رب العالمين.

عبد السلام مقبل المجيدي

أهم المصادر والمراجع

١- **آثَارُ الإِمَام مُحَمَّد البَشِير الإِبْرَاهِيمِي**، لمحمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي (المتوفىٰ: ١٣٨٥هـ)، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، الناشر: دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولىٰ، ١٩٩٧م.

٢- **الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما**، لضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي (المتوفىٰ: ٦٤٣هـ)، دراسة وتحقيق: معالي الأستاذ الدكتور عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، الناشر: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

٣- **الأخلاق والسير في مداواة النفوس**، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفىٰ: ٤٥٦هـ)، المحقق: بلا، الناشر: دار الآفاق الجديدة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

٤- **أسرار التكرار في القرآن المسمىٰ البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان**، لمحمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء (المتوفىٰ: نحو ٥٠٥هـ)، المحقق: عبد القادر أحمد عطا.

٥- **الإتقان في علوم القرآن**، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفىٰ: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

٦- **اتفاق المباني وافتراق المعاني**، لسليمان بن بنين بن خلف بن عوض، تقيّ الدين، الدقيقي المصري (المتوفىٰ: ٦١٣هـ)، المحقق: يحيىٰ عبد الرؤوف جبر، الناشر: دار عمار - الأردن، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٧- **الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان**، لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفىٰ: ٣٥٤هـ)، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (المتوفىٰ: ٧٣٩هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م.

٨- **البدر المنير في تخريج الأحاديث والأثار الواقعة في الشرح الكبير**، لابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (المتوفىٰ: ٨٠٤هـ)، المحقق: مصطفىٰ أبو الغيط

وعبد الله بن سليمان وياسر بن كمال، الناشر: دار الهجرة للنشر والتوزيع -الرياض-السعودية،الطبعة الاولىٰ، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

٩- **البرهان في علوم القرآن**، لمحمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله، الناشر: دار المعرفة- بيروت، ١٣٩١، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

١٠- **التحرير والتنوير** «تحرير المعنىٰ السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفىٰ: ١٣٩٣هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر - تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.

١١- **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، لأبي العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (المتوفىٰ: ١٣٥٣هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

١٢- **التسهيل لعلوم التنزيل**، لأبي القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (المتوفىٰ: ٧٤١هـ)، المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، الطبعة الأولىٰ- ١٤١٦هـ.

١٣- **تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن**، لمحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الحسني الحسيني الإِيجي الشافعيّ (المتوفىٰ: ٩٠٥هـ)، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

١٤- **تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن)**، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفىٰ: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، ومحمود محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

١٥- **تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)**، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفىٰ: ٧٧٤هـ)، المحقق: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون -بيروت، الطبعة الأولىٰ- ١٤١٩هـ.

١٦- **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، لمحمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفىٰ: ١٣٥٤هـ)، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠م.

١٧- **توقيع في الخلية (الدنا وأدلة التصميم الذكي)** للدكتور/ ستيفن ماير، ترجمة د.آلاء حسكي

وآخرون، نشر مركز براهين ط١، ٢٠١٧م.

١٨- **التيسير بشرح الجامع الصغير**، لزين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفىٰ: ١٠٣١هـ)، الناشر: مكتبة الإمام الشافعي- الرياض، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

١٩- **جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزَّوائِد**، لمحمد بن محمد بن سليمان بن الفاسي بن طاهر السوسي الردواني المغربي المالكي (المتوفىٰ: ١٠٩٤هـ)، تحقيق وتخريج: أبو علي سليمان بن دريع، الناشر: مكتبة ابن كثير، الكويت- دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

٢٠- **جمهرة اللغة**، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفىٰ: ٣٢١هـ)، المحقق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين- بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٨٧م.

٢١- **حاشية السندي علىٰ سنن ابن ماجه = كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه**، لمحمد بن عبد الهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدين السندي (المتوفىٰ: ١١٣٨هـ)، الناشر: دار الجيل- بيروت، بدون طبعة.

٢٢- **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسىٰ بن مهران الأصبهاني (المتوفىٰ: ٤٣٠هـ)، الناشر: السعادة- بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م.

٢٣- **الخطر اليهودي بروتوكولات حكماء صهيون**، ترجمة: محمد خليفة التونسي (نسبة إلىٰ قرية تونس في صعيد مصر) (المتوفىٰ: ١٤٠٨هـ)، قدم له: عباس محمود العقاد، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان.

٢٤- **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفىٰ: ٤٧١هـ)، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

٢٥- **الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان)**، الدكتور محمد عبد الله دراز، دار القلم.

٢٦- **الزبد في الفقه الشافعي**، لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن حسين بن حسن بن علي ابن رسلان الشافعي (المتوفىٰ: ٨٤٤هـ)، الناشر: دار المعرفة – بيروت.

٢٧- **الزهد**، لعبد الله بن المبارك بن واضح المرزوي أبو عبد الله [١١٨- ١٨١]، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.

٢٨- **السراج المنير في ترتيب أحاديث صحيح الجامع الصغير،** للحافظ جلال الدين السيوطي- العلامة محمد ناصر الدين الألباني، رتَّبه وعلق عليه: عصام موسىٰ هادي، الناشر: دار الصديق- توزيع مؤسسة الريان، الطبعة الثالثة، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

٢٩- **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها،** لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفىٰ: ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولىٰ.

٣٠- **سُنَن أبي داود،** لأَبي دَاوُدَ سُلَيْمَان بن الأَشْعَثِ السِّجِسْتَانِيِّ (المُتَوَفَّىٰ: ٢٧٥هـ)، كتب الحواشي والتعليقات: محمود خليل.

٣١- **سنن الترمذي،** لمحمد بن عيسىٰ بن سَوْرة بن موسىٰ بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسىٰ (المتوفىٰ: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م.

٣٢- **سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي،** لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، المحقق: مكتب تحقيق التراث، الناشر: دار المعرفة ببيروت، الطبعة: الخامسة ١٤٢٠هـ.

٣٣- **سنن النسائي الكبرىٰ،** لأحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولىٰ ، ١٤١١ه – ١٩٩١م، تحقيق: د.عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن.

٣٤- **السنن الكبرىٰ،** لأحمد بن الحسين بن علي بن موسىٰ الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفىٰ: ٤٥٨هـ)، المحقق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنات، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

٣٥- **سنن ابن ماجه،** لابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفىٰ: ٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسىٰ البابي الحلبي.

٣٦- **سنن الدارقطني،** لأبي الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (المتوفىٰ: ٣٨٥هـ)، حققه وضبط نصه وعلق عليه: شعيب الارنؤوط، حسن عبد

المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م.

٣٧- **شعب الإيمان**، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٠ه، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول.

٣٨- **الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ**، لأبي الفضل القاضي عياض بن موسىٰ اليحصبي (المتوفىٰ: ٥٤٤هـ)، مع حاشية أحمد بن محمد بن محمد الشمني (المتوفىٰ: ٨٧٣هـ)، الناشر: دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع، عام النشر: ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

٣٩- **الشكر**، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفىٰ: ٢٨١هـ)، المحقق: بدر البدر، الناشر: المكتب الإسلامي- الكويت ،الطبعة الثالثة، ١٤٠٠ه-١٩٨٠م.

٤٠- **شرح الحكم العطائية**، لعبد المجيد الشرنوبي، كتاب الكتروني.

٤١- **صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه)**، لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢هـ.

٤٢- **صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلىٰ رسول الله ﷺ)**، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفىٰ: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٤٣- **صحيح ابن خزيمة**، لأبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري (المتوفىٰ: ٣١١هـ)، المحقق: د. محمد مصطفىٰ الأعظمي، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت.

٤٤- **صحيح وضعيف سنن الترمذي**، لمحمد ناصر الدين الألباني (المتوفىٰ: ١٤٢٠هـ)، مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية- المجاني- من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية.

٤٥- **الصراع من أجل الإيمان (انطباعات أمريكي اعتنق الإسلام)**، للدكتور جفري لانج، ترجمة الدكتور منذر العبسي، دار الفكر المعاصر-دمشق، الطبعة الثانية١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٤٦- **العلم يدعو للإيمان**، لكريسىٰ موريسون، المترجم: محمود صالح الفلكي، دار وحي القلم، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م.

٤٧- **علل الدارقطني من مسند أمِّ الفضل بنتِ حمزة إلىٰ مسند خنساء بنت خدام، وهو آخر مسند في الكتاب** لأبي الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (المتوفىٰ: ٣٨٥هـ)، تحقيق: د/ علي الصياح.

٤٨- **العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**، لشمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن يوسف الدمشقي الحنبلي (المتوفىٰ: ٧٤٤هـ)، المحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار الكاتب العربي - بيروت.

٤٩- **كتاب العين**، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفىٰ: ١٧٠هـ)، المحقق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.

٥٠- **غريب الحديث**، لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفىٰ: ٣٨٨ هـ)، المحقق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، خرج أحاديثه: عبد القيوم عبد رب النبي، الناشر: دار الفكر - دمشق، عام النشر: ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٥١- **الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ومعه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني**، لأحمد بن عبد الرحمن بن محمد البنا الساعاتي (المتوفىٰ: ١٣٧٨هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية.

٥٢- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، لزين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفىٰ: ٧٩٥هـ)، تحقيق: محمود بن شعبان بن عبد المقصود وآخرين، الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية- المدينة النبوية.، الحقوق: مكتب تحقيق دار الحرمين- القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.

٥٣- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف علىٰ طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

٥٤- الفتنة الدجالية، لمناظر أحسن الكيلاني المتوفىٰ ١٣٧٥هـ-١٩٥٦م، تعريب الأستاذ محمد عارف جميل القاسمي الأعظمي، أكاديمية شيخ الهند، الجامعة الإسلامية، دار العلوم، ديوبند.

٥٥- **في ظلال القرآن**، لسيد قطب (المتوفىٰ: ١٣٨٥هـ)، الناشر: دار الشروق- بيروت- القاهرة، الطبعة السابعة عشر- ١٤١٢هـ.

٥٦- **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، لزين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفىٰ: ١٠٣١هـ)، الناشر: المكتبة التجارية الكبرىٰ - مصر، الطبعة الأولىٰ، ١٣٥٦ه.

٥٧- **اللطائف من علوم المعارف**، لمحمد بن عمر بن أحمد بن عمر بن محمد الأصبهاني المديني، أبو موسىٰ (المتوفىٰ: ٥٨١هـ)، الناشر: مخطوط نُشر في برنامج جوامع الكلم المجاني التابع لموقع الشبكة الإسلامية، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٤م.

٥٨- **ما هي النصرانية**، محمد تقي العثماني، مكتبة دار العلوم، كراتشي ١٤٠٣هـ.

٥٩- **مباحث الأمر التي انتقدها شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوىٰ**، لسليمان بن سليم الله الرحيلي، الناشر: الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة السنة السادسة والثلاثون- العدد (١٢٣).

٦٠- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفىٰ: ٧٥١هـ)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت.

٦١- **المجالسة وجواهر العلم**، لأبي بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي (المتوفىٰ: ٣٣٣هـ)، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: جمعية التربية الإسلامية (البحرين- أم الحصم) ، دار ابن حزم (بيروت- لبنان)، تاريخ النشر: ١٤١٩هـ.

٦٢- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفىٰ: ٨٠٧هـ)، المحقق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة، عام النشر: ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

٦٣- **المحكم والمحيط الأعظم**، لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي [ت: ٤٥٨هـ]، المحقق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

٦٤- **المستدرك علىٰ الصحيحين**، لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفىٰ: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفىٰ عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

٦٥- **مسند أبي يعلىٰ**، لأحمد بن علي بن المثنىٰ أبو يعلىٰ الموصلي، المتوفىٰ: ٣٠٧ هـ، المحقق: حسين سليم أسد، الناشر: دار المأمون للتراث - جدة، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م.

٦٦- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، لأحمد بن حنبل الشيباني (ت٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٦٧- **مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه**، لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز بن عثمان البوصيري الكناني الشافعي (المتوفىٰ: ٨٤٠هـ)، المحقق: محمد المنتقىٰ الكشناوي، الناشر: دار العربية - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

٦٨- **المعجم الصغير للطبراني** للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (المتوفىٰ: ٣٦٠ه)، ويليه رسالة غنيد الالمعي لمؤلفها العلامة الحافظ أبي الطيب شمس الحق العظيم آبادي غفر الله لنا وله وللمسلمين، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان.

٦٩- **المعجم الأوسط**، لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفىٰ: ٣٦٠هـ)، المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد أعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين - القاهرة.

٧٠- **المعجم الكبير**، لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفىٰ: ٣٦٠هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة الثانية.

٧١- **معجم مقاييس اللغة**، لأبي الحسين أحمد بن فارِس بن زكَرِيّا، المحقق: عبد السَّلام محمد هَارُون، الناشر: اتحاد الكتاب العرب، الطبعة: ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.

٧٢- **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفىٰ: ٧٥١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

٧٣- **مفاتيح الغيب = التفسير الكبير**، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفىٰ: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة- ١٤٢٠هـ.

٧٤- **ملاحظات نحو تعريف الثقافة**، ت.س. إليوت، ترجمة وتقديم: دشكري محمد عياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٧٥- **مجموع الفتاوىٰ**، لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفىٰ: ٧٢٨هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٧٦- **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، لأحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفىٰ: ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م.

٧٧- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن علىٰ، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الأفريقي (المتوفىٰ: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة الثالثة- ١٤١٤هـ.

٧٨- **لطائف الإشارات = تفسير القشيري**، لعبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفىٰ: ٤٦٥هـ)، المحقق: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر، الطبعة الثالثة.

٧٩- النبوءة والسياسة، لجريس هالسيل، ترجمة محمد السماك، دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

٨٠- **نصب الراية لأحاديث الهداية مع حاشيته بغية الألمعي** في تخريج الزيلعي، لجمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي (المتوفىٰ: ٧٦٢هـ)، قدم للكتاب: محمد يوسف البَنُوري، صححه ووضع الحاشية: عبد العزيز الديوبندي الفنجاني، إلىٰ كتاب الحج، ثم أكملها محمد يوسف الكاملفوري، المحقق: محمد عوامة، الناشر: مؤسسة الريان للطباعة والنشر- بيروت-لبنان/ دار القبلة للثقافة الإسلامية- جدة - السعودية، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

٨١- **صحيفة الرياض** العدد١٤٨٧٤ الأحد١٨ربيع الأول١٤٣٠هـ الموافق١٥مارس٢٠٠٩م، نقلا عن جريدة: L'osservatore Romano 4/3/2009.

82- The Jewish Encyclopedia (New York: Funk and Wagnalls Company) 1909, p. 161 .

83- (An Historical Account of Two Notable Corruptions of Scripture).

84- World Order, Henry Kissinger

المحتويات

مقدمة: في بصائر القرآن المجيد، ورسمها لخريطة النجاح الإنساني............ ٥

تمهيد: معراج (الفاتحة): (الفاتحة) تُقدِّم الإسلام للعالم، وترسم خطة الإنقاذ للبشرية، وتقرر المقاصد المعرفية والسلوكية التي تحتاجها الإنسانية.................. ١٧

- نماذج لإدراك قيمة الفاتحة وعَظَمَتِها:.................................. ١٩
- بين مركزية الفاتحة في النسق القرآني وبين بقية السور في المصدر الأول للمعرفة. ٢٤
- نماذج لجهود العلماء في تحديد مقاصد سورة (الفاتحة):...................... ٢٧
- تحرير المقاصد الكلية (للفاتحة).. المقاصد التي تعرف العالم بالإسلام: ٣١

فأما المرتبة الأولى فهي مرتبة التقسيم الإجمالي العام لمقاصد (الفاتحة) المباركة:٣٣

وأما المرتبة الثانية فهي مرتبة المقاصد التعريفيّة بالإسلام في (الفاتحة) المباركة: .. ٣٧

المقصد الأول: التعريف باسم الإله الحق الأول والآخر (الله) -جلَّ مجدُه-، والتعريف بأساس صفاته (الرحمة) ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ٤٩

البصيرة الأولىٰ: البسملة تُعَرِّفُ العالم باسم إلههم الحق الأول والآخر ٥١

البصيرة الثانية: (البسملة) مرسوم تقديمي يوضح أن الرحمة أساس الصفات الإلهية في التصور الإسلامي ٥٩

البصيرة الثالثة: البسملة مقدمة لحقيقة التوحيد التي هي أعظم الحقائق الكونية ٦٤

البصيرة الرابعة: (البسملة) أساسٌ يكَمِّلُ الاستعاذة، ويثمر الحماية والرعاية في البدايات

٦٨

البصيرة الخامسة: قوة التوحيد والتعبد الصادق من العبيد، (فإذا كانت الاستعانة بالاسم تحقق المطلوب، فكيف إذا كان الإنسان في كنف صاحب الاسم علامِ الغيوب) ... ٧٢

المقصد الثاني: التعريف بالعالم (الوجود الكوني)، وأنه دليلٌ علىٰ أن الله هو الإله الحق ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ٧٥

البصيرة الأولىٰ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ اسم يبين حق الربوبية لله، وبراهين هذا الحق.. ٧٩

البصيرة الثانية: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾اسم يبين حقوق الخلق، وتتلخص في الإنعام المقترن بالتربية.. ٩٨

البصيرة الثالثة: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دليلٌ علىٰ أن الله ليس كمثله شيء فهو ربُّ الخلق أجمعين ١٠٤

البصيرة الرابعة: (ربّ العالمين) يُرَبِّي تربية كاملة تضعف عندها تربية النظم البشرية الآفلة.. ١٠٧

البصيرة الخامسة: ﴿الحمد لله﴾ معراج الوصول إلىٰ الله، ومرقاة السعادة والسكينة١١٢

البصيرة السادسة: ﴿الحمد لله﴾ أجمل ما تتزين به الأفواه، ويردده القانت الأواه.. ١١٦

المقصد الثالث: التعريف بأهم أهداف خلق العالمين: الرحمة بهم، وهو أهم أهداف الرسالة الإسلامية﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ١٢٧

البصيرة الأولىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تدل علىٰ أن إشاعة الرحمة أهم أهداف خلق الطبيعة (العالمين)، وإنزال الشريعة.. ١٣٠

البصيرة الثانية: الرحمة في التَصَوُّر الإسلامي مطلوبةٌ غايةً ووسيلةً، وابتداءً وانتهاءً ١٣٥

البصيرة الثالثة: حقيقة الخلق والأمر هي الرحمة الإلهية، وإن ظهر من بعض صورها غير ذلك ١٣٨

المقصد الرابع: التعريف بقصة نهاية العالم الدنيوي، وتطبيق العدل الإلهي الكامل ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ١٤٣

البصيرة الأولىٰ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ تختصر قصة نهاية التاريخ ١٤٦

البصيرة الثانية: ﴿ٱلدِّينِ﴾ هو النظام الذي يدين به الناس في الدنيا، ويدانون وفقه في الآخرة ١٥٠

البصيرة الثالثة: (الله) هو الملك المالك ليومٍ يحاسب فيه الخلق علىٰ نظامهم الدنيوي ١٥٣

البصيرة الرابعة: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ تمجيدٌ لبيان هيبة العدل، وتفويضٌ لبيان جمال الرحمة والفضل ١٥٩

البصيرة الخامسة: ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ هو أعظم حلٍّ لإيجاد التنمية الصادقة في المجتمعات ١٦٤

بعض الحقائق التي تبرزها الآيات الأربع الأولىٰ من سورة (الفاتحة): ١٦٩

الحقيقة الأولىٰ: احتوت تلك المقاصد علىٰ أعظم بصائر التنزيل القرآني التي ترسم الخريطة الحقيقية للحياة الإنسانية: ١٦٩

الحقيقة الثانية: احتوت هذه المقاصد علىٰ أعظم الثناء الإلهي الذي يمكن أن يقوله الأنبياء: ١٧٠

الحقيقة الثالثة: جمعت هذه المقاصد أسباب ثناء العبد علىٰ أرحم الراحمين في أبهىٰ صورها: ١٧٢

الحقيقة الرابعة: الثناء علىٰ الله علامة الاتصال الأعظم أهميةً في حياة الإنسانية: ... ١٧٣

المقصد الخامس: التعريف بوظيفة العالمين لتحقيق السعادة في الحياتين: الالتزام بأنظمة العبادة الموحدة لله ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ ١٧٧

البصيرة الأولىٰ: (العبادة) هي البرنامج الحياتي العملي الذي يدل علىٰ صدق التوحيد ١٨١

البصيرة الثانية: (النظام العبادي) هو النظام الإلهي الـمُنَظِّم للحياة الجالب للإنسانية السعادة.. ١٨٤

البصيرة الثالثة: (العبادة) هي طريق البشرية للتحرر الحقيقي، وللسيادة والريادة الأولية القرآنية التي تقدمها هذه الآية: ١٩٠

المقصد السادس: الاستعانة بالله نظامٌ تعبدي يُظهِر الافتقار لقوة القادر القهار ليعين علىٰ بناء الحياة وتحقيق الانتصار وفق أنظمة العبادة ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾....... ١٩٧

البصيرة الأولىٰ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ تحصر طلبَ العون في الله تعظيمًا وحمايةً من العجب والكبرياء.. ٢٠٠

البصيرة الثانية: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ تبني الاستقلال الـذاتي، والتحرر من التبعية للآخرين ٢٠٥

البصيرة الثالثة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ تَصوُّر التحقق، والتعلق والتخلق، ولذة المناجاة، وجمال القرب.. ٢١٢

البصيرة الرابعة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تعني أن «من علامات النجاح في النهايات الرجوع إلىٰ الله في البدايات» ٢١٣

المقصد السابع: (الصراط المستقيم) هو الطريق الوحيد لاتخاذ القرارات الصائبة في التعامل مع الحياة وإقامة النظام العبادي ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ٢١٩

البصيرة الأولىٰ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ هي الحصن العاصم للعبادة من الانحراف السقيم ٢٢٢

البصيرة الثانية: ﴿ٱهْدِنَا﴾ علامةٌ علىٰ أن تحقيق المطالب يتم بتقديم ذكر أعظم المناقب ٢٢٤

البصيرة الثالثة: ﴿ٱهْدِنَا﴾ بداية الحياة الحقيقية للخروج من الأزمات والحَيرة في الظلمات ٢٢٥

البصيرة الرابعة: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ مثال الحماية المصطلحية الإسلامية النقية من المخاطر الثقافية ٢٣٣

البصيرة الخامسة: الرحمة تقتضي هداية العالَم إلىٰ الصراط وحراستهم من الانحراف أو الانجراف ٢٣٦

البصيرة السادسة: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يُقَدِّمُ الحلول للقضايا العالمية المثخنة بالظلم والعوج ٢٤٠

البصيرة السابعة: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يعني أن عودة أمة الإسلام إلىٰ الصدارة العالمية يتم عبر القرآن، وهذا يقتضي محو أمية تلاوة القرآن، ووجوب نشر مؤسسات التعلم القرآني ٢٤٢

البصيرة الثامنة: ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ يربط بين عالمي الغيب والشهادة، ويصل بين مرحلتي الدنيا والآخرة ٢٤٥

۞ الآية السابعة من سورة الفاتحة: المقاصد العاصمة للصراط المستقيم.......... ٢٤٨

المقصد الثامن ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الحقيقي هو الذي سار عليه الـمُنعَم عليهم من السابقين ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ٢٥١

البصيرة الأولىٰ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ تحديدٌ لماهية الإسلام يحمي من التحريف والضياع والتزوير والابتداع... ٢٥٤

البصيرة الثانية: قيادات الـمُنعَم عليهم علىٰ الصراط المستقيم بعد الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- هم: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.......... ٢٦٢

البصيرة الثالثة: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ (الله) مصدر الإنعام الكلي..................... ٢٦٦

المقصد التاسع: حراسة الصراط المستقيم من الخطرين الاستراتيجيين الموجودين علىٰ جانبي الصراط: خطر الوقوع في الغضب الإلهي، وخطر الضلالة المهلكة ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ٢٦٩

البصيرة الأولىٰ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ليست تزكية للمسلمين بل هو تحذير لهم من أنفسهم قبل غيرهم، فيجب أن يجتنبوا مواقع الغضب والضلالة، فالأوصاف تتحقق بالأعمال والاكتساب لا بالادعاء والانتساب ٢٧٢

البصيرة الثانية: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ﴾ تشير إلىٰ الصفات الخطيرة التي تستنزل الغضب الإلهي ٢٨١

البصيرة الثالثة: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ تعني وجوب حماية أصحاب الصراط المستقيم من

الوقوع في الخسارة في القرارات المصيرية من خلال معرفة صفات الضالين....... ٢٨٩

البصيرة الرابعة: تغاير النفي في ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ يبين اختلافًا واتفاقًا بين الفئتين، مما يكشف لنا طبيعة التحالفات ضد أهل الصراط المستقيم.. ٢٩٥

البصيرة الخامسة: (الصراط) يبين الحلفاءَ والأعداء الإستراتيجيين للأمة المسلمة في الواقع العالمي... ٣٠١

البصيرة السادسة: تقترن أفعال قيادات المغضوب عليهم والضالين بالوحشية ٣١٣

البصيرة السابعة: التناقض بين الأقوال والأعمال ينافي مبدأ الاستقامة في (الصراط المستقيم)... ٣١٣

البصيرة الثامنة: آيتا الصراط تمثلان دستورًا كاملًا للمعرفة العليا والعمل الأقوم .. ٣١٥

المقصد العاشر: مبدأ الأمة الواحدة هو وسيلة أصحاب الصراط المستقيم لتحقيق النصر الجماعي، والحماية لأفراد الأمة، ونستنبط هذا من التعبير الجماعي المميز في قوله ﴿نعبد، نستعين، اهدنا﴾.. ٣١٩

البصيرة الأولىٰ: مبدأ (الأمة الواحدة) يمثل سلاح البناء الحقيقي والردع الوقائي للمعتدين... ٣٢٣

البصيرة الثانية: أهم آثار التقسيم الإلهي الثلاثي للعالم: الوحدة الزمانية والمكانية بين أصحاب الصراط المستقيم.. ٣٢٨

البصيرة الثالثة: فقه التعايش ملازم لفقه الحذر والتحذير من المغضوب عليهم والضالين ٣٣١

۞ ختم (الفاتحة) وموجزٌ لما تبنيه في العقلية المسلمة ٣٣٥

القسم الأول: الآلاء والعظمة في (آمين) نعم الخاتمة.. تصديق واشتياق للعطايا القادمة ٣٣٨

القسم الثاني: (الفاتحةُ) المباركة تحوي أم المحكمات والأولويات الحيوية القرآنية ٣٤٥

أهم المصادر والمراجع ٣٥١

المحتويات ٣٦١

تم الكتاب بحمد الله

بصائر المعرفة القرآنية

بصائر المعرفة القرآنية

(٢)

تسوير السور القرآنية

المفصل (١)

الإسلام في سبع آيات

الفاتحة منهاج حياة

دراسة تحليلية لمقاصد سورة الفاتحة

الأستاذ الدكتور

عبد السلام مقبل المجيدي

دار الأصول العلمية
AL-USOOL AL-ELMİYAH

عبد السلام مقبل المجيدي

الإسلام في سبع آيات الفاتحة منهاج حياة دراسة تحليلية لمقاصد سورة الفاتحة

دار الأصول العلمية

في «باريس» كان ذلك الشاب يسبح متأملًا في أنوار سورة «الفاتحة» متنقلًا بين أفلاكها، مستضيئًا بمصابيحها، مستمتعًا بأسرارها، يطير من نجم إلى نجم، يشده جمال محاسنها، وتستهويه روعة مقاصدها، وحسن ترتيبها، وجلال شمائلها، وعظمة شمولها؛ إذ أضاءت في قلبه فكرة، فقال للمؤلف لمّا علِم أنه سيطبع مادة الدورة في كتاب: لماذا لا تسميه (الإسلام في سبع آيات)؟

لماذا هذا الاسم؟

لأن الفاتحة «منهاج حياة» تُعرِّف بالإسلام تعريفًا مكثفًا في آياتها السبع.

إنها أعظم الكلمات الإلهية التي تتواصل بواسطتها مع ربك ومع الآخرين من حولك.

إنها السورة التي تختصر الكتب الإلهية المنزلة.

«إنها المفتاح الأعظم لكنوز الأرض، ومفتاح كنوز الجنة، ولكن ليس كل أحد يحسن الفتح بهذا المفتاح».

تفتح «الفاتحة» كتاب الحياة الحقيقية لتحل ألغاز الوجود الكوني، وتقدم لك الكنوز التي تُدير الحياة، وتنشئ حضارةً تقدميةً تزدان بالصالحات، وتُكلل بالجمال والبهاء، ويحيط بها الاستسلام الخاشع لرب العالمين. فتعال معي لنكتشف الإسلام والكون والإنسان في ثلاثة أسطر من القرآن العظيم.

هذه حكاية تسمية هذا الكتاب. وهو أساس لـ (مشروع بصائر المعرفة القرآنية).

دار الأصول العلمية
AL-USOOL AL-ELMİYAH
طباعة – نشر – توزيع

تطلب جميع إصداراتنا من:
مكتبة دار الأصول العلمية
تركيا – إسطنبول

Balabanağa mah. Büyük Reşitpaşa Cd. No: 16B 15
Yümni iş hanı, Fatih – İstanbul.
جوال: 00905378167783 هاتف: 00902125146104
Fb: daralusool Tw: usool2017
www.dar-alusool.com - info@dar-alusool.com

ISBN 978-605-7896-44-5
9 786057 896445

دار الأصول العلمية
AL-USOOL AL-ELMIYAH

بصائر المعرفة القرآنية
(٢)

تشوير السور القرآنية
المفصل (١)

الإسلام في سبع آيات

الفاتحة منهاج حياة

دراسة تحليلية لمقاصد سورة الفاتحة

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي

دار الأصول العلمية
AL-USOOL AL-ELMİYAH

فـي «باريس» كان ذلك الشاب يسبح متأملًا في أنوار سورة «الفاتحة» متنقلًا بين أفلاكها، مستضيئًا بمصابيحها، مستمتعًا بأسرارها، يطير من نجم إلى نجم، يشده جمال محاسنها، وتستهويه روعة مقاصدها، وحسن ترتيبها، وجلال شمائلها، وعظمة شمولها؛ إذ أضاءت في قلبه فكرة، فقال للمؤلف لـمّا علِم أنه سيطبع مادة الدورة في كتاب: لماذا لا تسميه (الإسلام في سبع آيات)؟

لماذا هذا الاسم؟

لأن الفاتحة «منهاج حياة» تُعرِّف بالإسلام تعريفًا مكثفًا في آياتها السبع.

إنها أعظم الكلمات الإلهية التي تتواصل بواسطتها مع ربك ومع الآخرين من حولك.

إنها السورة التي تختصر الكتب الإلهية المنزلة.

«إنها المفتاح الأعظم لكنوز الأرض، ومفتاح كنوز الجنة، ولكن ليس كل أحد يحسن الفتح بهذا المفتاح».

تفتح «الفاتحة» كتاب الحياة الحقيقية لتحل ألغاز الوجود الكوني، وتقدم لك الكنوز التي تُدير الحياة، وتنشئ حضارةً تقدميةً تزدان بالصالحات، وتُكلل بالجمال والبهاء، ويحيط بها الاستسلام الخاشع لرب العالمين. فتعال معي لنكتشف الإسلام والكون والإنسان في ثلاثة أسطر من القرآن العظيم.

هذه حكاية تسمية هذا الكتاب. وهو أساس لـ (مشروع بصائر المعرفة القرآنية).

دار الأصول العلمية
AL-USOOL AL-ELMİYAH
طباعة – نشر – توزيع

تطلب جميع إصداراتنا من:
مكتبة دار الأصول العلمية
تركيا – إسطنبول

Balabanağa mah. Büyük Reşitpaşa Cd. No: 16B 15
Yümni iş hanı, Fatih – İstanbul.
جوال: 00905378167783   هاتف: 00902125146104
Fb: daralusool Tw: usool2017
www.dar-alusool.com - info@dar-alusool.com